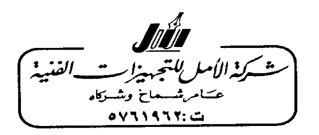
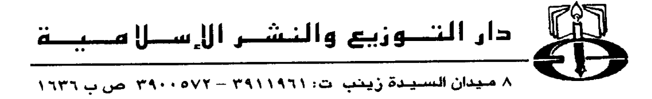
سلسلة التربية فى القرآن الكريم
(٤)

التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب

تأليف
الدكتور على عبد الحليم محمود
من علماء الأزهر


شركة الأمل للتجهيزات الفنية
عامر شماخ وشركاه
ت:٥٧٦١٩٦٢


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

إهـــداء

إلى الراغـبين فى أن يربوا أنفـسـهم وأبناءهم وغـيـرهم من الـناس تربـيـة إسـلامـيـة نابـعـة من مصـدرى الإسـلام الرئيـسين :

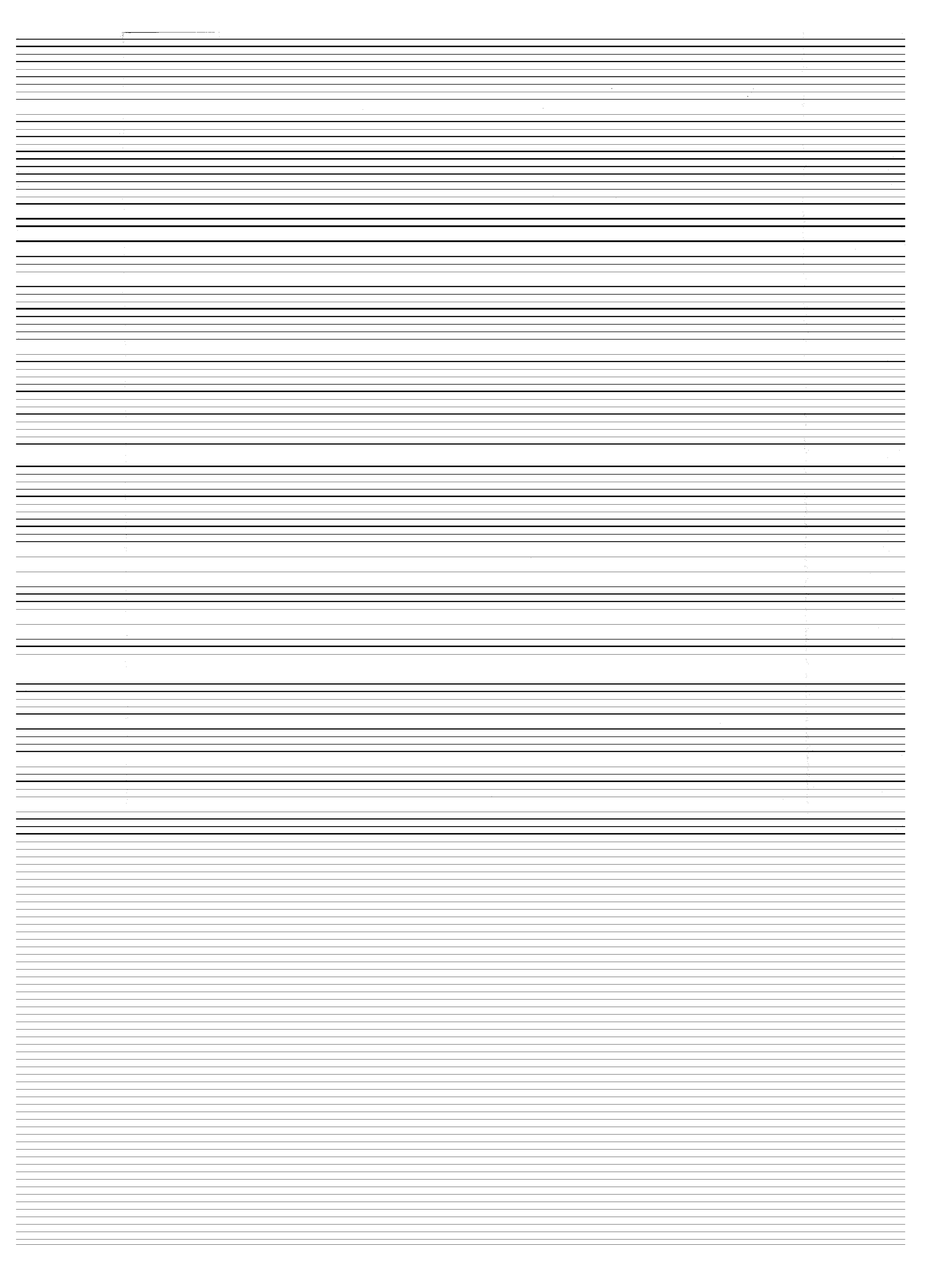
القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

وإلى المشغولين بالتربية الإسلامية من العلماء والمعلمين والمتعلمين ، أقدم هذا الكتاب ، رابع حلقة من سلسلة التربية فى القرآن الكريم ، وموضوعه : التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب ، سائلا الله تبارك وتعالى لى وللقراء الكرام العفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

على عبد الحليم محمود

غرة شهر ذي القعدة من سنة ١٤١٦ من الهجرة النبوية

الموافق ٢٠ / ٣ / ١٩٩٦ م



بين يدَى هذه السلسلة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه والمتمسكين بسنته إلى يوم الدين.

وبعـد :

فإن هذه السلسلة : « التربية فى القرآن الكريم » عمل ، تطلب من الجهد والوقت ما أرجو أن أكون قد بذلته ووفيت به ما علي، ووفقت فيه بعون من الله وسداد.

وقد قلت فى مقدمة كل حلقة من الحلقات الأربعة السابقة إنه عمل كبير يحتاج أكثر من جهد واحد من الناس، لأن استنباط المواقف التربوية العامة أو الخاصة من آيات القرآن الكريم عمل غير مسبوق – فى حدود ما أعلم وما أوتيت من العلم إلا قليلا – ولو كان مسبوقا لمهّدَ السابق للاحق ويسر له بعض معالم الطريق.

ولأجل هذا احتاج هذا العمل إلى الجهد والوقت والتفكير والتدبر العميق لما فى الآيات الكريمة من مواقف تربوية عامة أو خاصة.

ولقد كان فضل الله عليّ عظيما أن أنجزت حتى الآن أربع حلقات من هذه السلسلة ذات الحلقات السبع، والذى أنجز هو :

- التربية الإسلامية فى سورة المائدة .
- والتربية الإسلامية فى سورة النور .
- والتربية الإسلامية فى سور آل عمران.
- والتربية الإسلامية فى سورة الأنفال.

وهذا الكتاب هو الحلقة الخامسة وموضوعه :

- التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب .

ويبقى من هذه السلسلة حلقتان هما :

- التربية الإسلامية فى سورة النساء.
- والتربية الإسلامية فى سورة براءة.

أسأل الله تعالى أن ييسر من الأسباب ما يمكنني من الانتهاء منهما.

● وقد سبق لي أن نبهت - في الحلقات السابقة - إلى أن المواقف التربوية التي استنبطتها من الآيات على مستويين من القراء:

مستوى المسلمين عموما.

ومستوى الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية خصوصا.

وكل منهما نافع للمسلم في دينه ودنياه بإذن الله ما دام قد أخلص النية وقرأ وتدبر، وأدى واجبه نحو ربه فمارس الدعوة إلى الله لينقل بها الناس من الضلال إلى الهدى أو من الكفر إلى الإيمان.

● وأرجو أن يزداد المؤمنون إيمانا بقراءة هذا الكتاب، ويزدادوا هُدى وفهما وفقها للدين والدعوة والحركة، وأن يصبحوا أكثر امتثالا لما أمر الله به، واجتنابا لما نهى عنه، وبذلك تسهل الحركة بهذا الدين في العالم كله، حتى لا يعبد غير الله في الأرض.

وأما غير المؤمنين إذا قرءوا هذا الكتاب، فلعل الله تعالى أن يهديهم به إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، فهو سبحانه على ما يشاء قدير.

● ويطيب لي - من باب التذكير - أن أنبه إلى ما قلته في تقديم الحلقة الأولى من هذه السلسلة: «التربية الإسلامية في سورة المائدة» مع إجمال ذلك وتركيزه، فيما يلي:

ولقد اشتركت جميع الشرائع التي جاءت من عند الله في إرساء دعامتين أساسيتين يقوم عليهما بناء التعليم والتربية، أو يعتمد عليهما في صياغة الإنسان المؤمن، الذي يرضى عنه خالقه سبحانه وتعالى، هاتان الدعامتان هما:

- توحيد الله تبارك وتعالى إلهًا وربًّا، وعبادته سبحانه وفق ما شرع، ودليل ذلك أن كل نبي أو رسول قال لقومه: **«اعبدوا الله ما لكم من إله غيره»**(١).

- وطاعة الله تعالى في كل ما أمر به، وطاعته في الانتهاء عن كل ما نهى عنه، ودليل ذلك أنه ما من نبي أو رسول إلا طالب قومه بطاعة الله ورسوله، فبعض الرسل قالوا لأقوامهم: **«أطيعوا الله والرسول»** وبعضهم قال: **«أطيعوا الله ورسوله»** أو **«وأطيعوا الرسول**

---

(١) وردت هذه الآية الكريمة بنصها في سورة «الأعراف» أربع مرات، وفي سورة «هود» ثلاث مرات، وفي سورة «المؤمنون» مرتين.

واحذروا» وبعضهم قال : «**فاتقوا الله وأطيعون**»[1].

- وما طالب الرسل والأنبياء أقوامهم بذلك التوحيد وتلك الطاعة إلا لما لهما من أهمية بالغة فى تربية الإنسان تربية إيمانية صحيحة، تقربه من ربه وتحقق له سعادة الدنيا والآخرة.

- وإذا كانت مفردات التربية للإنسان - كما أوضحت فى سلسلة : مفردات التربية الإسلامية، مما اهتم بها الإسلام ودلت عليها آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ هى أنواع، قد استطعنا بفضل من الله أن نحصى منها عشرة هى :

التربية الروحية،

والتربية الخلقية،

والتربية العقلية،

والتربية الجسمية أو البدنية ،

والتربية الدينية ،

والتربية الاجتماعية ،

والتربية السياسية ،

والتربية الاقتصادية ،

والتربية الجهادية ،

والتربية الجمالية .

وذكرنا هناك من مفردات كل نوع من أنواع هذه التربية الإسلامية سبع مفردات، وأوضحنا كيف لقيت هذه الأنواع العشرة من الإسلام : الكتاب والسنة كل عناية واهتمام.

- ومن أجل أن نحصل على التربية الصحيحة للإنسان، التربية المتكاملة، كان اتجاهنا إلى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة إذ هما معين لا ينضب، باعتبار أن السنة النبوية هى شارحة القرآن ومفسرته، ومفصلة مجمله، إذ يصعب فهم القرآن الكريم فهما عمليا

---

(١) وردت هذه الآيات الكريمة وأمثالها فى الآيات التالية : الآية : ٣٢ من سورة آل عمران، والآية : ٢٠ ، ٤٦ من سورة الأنفال، والآية : ٩٢ من المائدة، والآية : ١٥١ من الشعراء كما وردت فى سور : النساء، وطه، والنور، والأحزاب، والزخرف، ومحمد، والفتح، والحجرات، والمجادلة، والتغابن، ونوح.

تفصيليا صحيحا إلا بسنة النبى ﷺ.

● ومكانة السنة النبوية من القرآن الكريم أكدها الرسول ﷺ فى عدد من الأحاديث النبوية الصحيحة، نذكر منها ما يلى:

– روى الإمام أحمد وأبو داود بسنديهما عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألالا يحل لكم لحم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السبع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها...».

– وروى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم بأسانيدهم عن المقدام بعد معد يكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل متكئا على أريكته يُحَدِّث بحديث من حديثى فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حَرَّم رَسولُ الله مثلُ ما حَرَّم الله».

– وروى الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان بسنديهما عن واثلة ابن الأسقع رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيتُ مكان التوراة السبع الطوال(١)، وأعطيتُ مكان الزبور المئين(٢)، وأعطيتُ مكان الإنجيل المثانى(٣)، وفُضّلتُ بالمُفصَّل(٤)».

ولعل هذه الأحاديث النبوية الكريمة تردّ على أولئك الأغرار الذين تحدّث عنهم النبى ﷺ قبل أربعة عشر قرنا، فوصفهم بأنهم جلوس على أرائكهم يرفضون السنة النبوية مكتفين بالقرآن الكريم، ثم يسمون أنفسهم القرآنيين.!!!

● ومن أجل انتقاء أحسن المناهج وأكملها فى التربية الإسلامية.

● ومن أجل تربية المسلمين جميعا صغارهم وكبارهم، أفرادهم وجماعاتهم على منهج الإسلام فى التربية.

---

(١) السبع الطوال هن: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس.

(٢) المئين هن: كل سورة من القرآن الكريم تزيد آياتها على المائة آية.

(٣) المثانى هن: كل سورة تقل عن مائة آية – ما عدا المفصل – وتطلق المثانى على سورة الفاتحة.

(٤) المفصَّل هو: السور من أول سورة الحشر إلى آخر سورة الناس.

● ومن أجل التأكيد على تميز المسلمين عن سواهم من الناس فى التربية، كان توجهنا إلى الكتاب والسنة نستنبئهما عن التربية الإسلامية : أبعادها وأنواعها وخصائصها، وأهدافها ووسائلها.

● ومن أجل بناء الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة، كان من المُحَتَّم أن يتربى المسلمون ويتعلموا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، ليستوعبوا الأهداف الصحيحة والقيم الرفيعة، ثم ينطلقوا فى مجالات العلم والمعرفة ليعمروا الأرض بالإيمان والعلم ولتكون لهم أكمل حضارة إنسانية، وليكون منهم المجتمع الإنسانى الصالح الراقى.

● ولقد كانت بداية عملنا فى هذا المجال للحصول على تلك التربية هى تفسير سورة المائدة تحت عنوان : التربية الإسلامية فى سورة المائدة.

ثم أتبعنا ذلك بسورة النور، ثم سورة آل عمران، ثم سورة الأنفال، ثم هذه السورة الأحزاب، نستنبط منها المواقف التربوية العامة والمواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة.

● ولا يستطيع المسلمون أن يتعلموا من مصدر أو مرجع للعلم والثقافة والتربية كما يتعلمون من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فلقد أورد أبو بكر الأنبارى(١) صاحب كتاب : غريب الحديث – بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم».

وقال العلماء فى تفسير هذا الحديث : إنه مَثَل، شبَّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس، لهم فيه خير ومنافع، ثم دعاهم إليه.

● وأهم ما يحتاج إليه الإنسان من التعلم من أجل معاشه ومهاده معًا هو ما يصحح به عقيدته وعبادته، وما يتعامل به مع نفسه ومع الناس، وقد أجمل أسلافنا من العلماء ذلك كله فى أمرين هما :

– علم التوحيد،

– وعلم أفعال العبيد،

ويدخل فى هذين العلمين جميع العلوم والمعارف مما له صلة بحياة الإنسان فى الدنيا والآخرة.

---

(١) هو : محمد بن القاسم بن بشار (٢٧١ – ٣٢٨هـ) من علماء الأمة المشهورين.

● والقرآن الكريم والسنة النبوية قد تكفلا ببيان ذلك بما لم يُبَيَّن مثلُه فى كتاب أو منهج سابق أو لاحق، وهذا من فضل الله على الأمة الإسلامية التى أورثها الكتاب وجعله خاتم الكتب وأتمها وأكملها.

● وللقرآن الكريم وللسنة النبوية منهج فى التربية يتميز بسمات تجعله متفردا بين سائر المناهج، وقد أوضحنا تلك السمات بالتفصيل فى كتابنا: التربية الإسلامية فى سورة المائدة، ونشير إلى تلك السمات فى إيجاز فيما يلى:

– أنه من عند الله سبحانه وتعالى،

– وأنه شامل متكامل ،

– وأنه متوازن ،

– وأنه إيجابى ،

– وأنه يجمع بين المثالية والواقعية.

– وأنه يربى الفرد والأسرة والمجتمع المسلم والمجتمع الإنسانى كله أكمل تربية وأنفعها له فى حياته وآخرته.

● ولقد أوضحت فى الحلقتين الأوليين من هذه السلسلة لماذا كان البدء بسورتى المائدة والنور، وأود أن أوضح هنا أن النية منعقدة على مواصلة العمل واستنباط القيم التربوية العامة والخاصة من عدد غير قليل من سور القرآن الكريم، إذا أذن الله وأعان وأمدَّ بالأسباب، إنه على ما يشاء قدير.

بين يدى هذا الكتاب

هذا الكتاب: «التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب» أحاول أن أوضح فيه ما تضمنته هذه السورة الكريمة من الملامح الأساسية للمجتمع المسلم، وقد استقر نوعا من الاستقرار فى المدينة المنورة، وبخاصة بعد الانتصار الذى هيأه الله للمسلمين فى معركة بدر الكبرى.

وإنما قلت نوعا من الاستقرار، لأن الاستقرار الكامل لم يحدث، إذ كان أعداء المسلمين من خارج المدينة مستمرين فى التحرش بالمسلمين وشنّ الحروب عليهم - كما حدث فى معركة أحد ومعركة الأحزاب - الخندق - وكان اليهود بالمدينة وما حولها يحاولون جاهدين زعزعة هذا الاستقرار، بل كان المسلمون أنفسهم غير مستقرين لما يقومون به من معارك وغزوات يردون بها على التحرشات والدسائس، كما حدث فى غزوات: بنى سليم، وبنى قينقاع، وغزوة السويق، وذات الرقاع، وغزوة بدر الآخرة، وغزوة ذى أمر، وغزوة نجران، وغزوة بنى النضير، وغزوة دومة الجندل، وغزوة بنى لحيان، وبنى المصطلق أو المريسيع، كل ذلك جعل الاستقرار غير كامل.

- وهذه الفترة الزمنية بلغت ما يقرب من ست سنوات بعد معركة بدر إلى معركة الحديبية، هذه الفترة قد جرى فيها من الأحداث وجاء فيها من التشريعات ما شكل القيم والأخلاق والنظم التى قامت عليها أسس المجتمع المسلم، فالدولة المسلمة.
- هذه الفترة هى أهم الفترات - بعد الهجرة إلى المدينة المنورة - التى صيغت فيها الدولة المسلمة صياغة تمكنها من أن يستتب لها الأمر، كما اتضحت فيها معالم التأصيل للقيم الإسلامية، ونمت التشريعات بنزول الوحى، مما مكن لقيام الدولة المسلمة.
- إن الصفة البارزة فى هذه السورة الكريمة هى: تأسيس المجتمع المسلم وتهيئة الظروف لقيام الدولة المسلمة لتمارس حياتها الإسلامية التى تقوم على العقيدة والشريعة والأخلاق والآداب.
- ولقد جاء فى السورة الكريمة حديث عن الحشود المعادية للإسلام والمسلمين التى حشدها مشركوا العرب وأعانهم عليها اليهود، فتحزبوا ضد الإسلام وهاجموا المسلمين فى عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الأحزاب أو الخندق، مما جعل المسلمين - ولأول مرة فى الجزيرة العربية - يحفرون خندقا يحول بينهم وبين الأعداء، ويتقون به هجومهم.

● وجاء فى هذه السورة الكريمة حديث خاص عن يهود بنى قريظة الذين خانوا وغدروا بالمسلمين، وحديث آخر عن المنافقين وما أرجفوا به مما كانت تُكنُّه صدورهم ولا تبديه ألسنتهم.

● وفى كل ما جاء فى هذه السورة الكريمة تأصيل لتكوين المجتمع المسلم الناشئ، وما يجب أن يسوده من قيم خلقية تحكم حركته فى السِّلم والحرب، وفى التعامل مع المشركين واليهود.

وهذا ما سوف نوضحه بتفصيل مناسب ونحن نستعرض محتوى هذه السورة الكريمة، ونبرز ما فيها من قيم تربوية عامة، وقيم تربوية يفيد منها العاملون فى مجالى الدعوة والحركة من أجل الإسلام ومن أجل التمكين لدين الله، حتى تكون كلمة الله هى العليا.

ونسأل الله تبارك وتعالى العون والتسديد.

ســورة الأحــزاب
والقيم التربوية التى تستفاد منها

هذه السورة الكريمة زاخرة بالقيم التربوية التى ترسم للمسلمين معالم الشخصية المؤمنة، ومعالم المجتمع المسلم، وتتحدث عن كثير من القواعد والأسس التى يقوم عليها بناء المجتمع المسلم والدولة المسلمة.

وفيها توضيح لكثير من النظم التى يجب أن يلتزم بها المسلمون فى دنياهم لتصح لهم بهذا الالتزام دنياهم وأخراهم.

● وتعنى هذه السورة الكريمة بإبطال بعض ما كان يعتقد بصحته أهل الجاهلية من عادات مثل:

ادعائهم بأن ظهار الرجل من امرأته يحرِّمها عليه كأمه،

وادعائهم بأن الابن من التبنى يرث من يتبناه، ويكون مثل الابن من الصلب.

وتحرر بعض آيات السورة الكريمة معنى الولاء وتحدد لمن يكون هذا الولاء.

● وتؤكد السورة الكريمة أن الأنبياء جميعا، وخصوصا أولوا العزم منهم: محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، قد أخذ الله عليهم الميثاق أن يدعوا إلى عبادة الله وحده، وأن يبشروا المؤمنين وينذروا المكذبين.

● وتنفرد هذه السورة بحديث ضاف عن معركة الأحزاب والخندق، وما كان فيها من أحداث، وتوضح للمؤمنين فى هذه الغزوة ما كان عليه المنافقون من صفات، وتكشف عما كان يرغب فيه المعوقون من شرور.

● وفيها تأكيد للأسوة فى محمد ﷺ عموما وفى الصبر على مكاره الحرب خصوصا، وما كان عليه موقف المؤمنين من الأحزاب، وكيف ردهم الله تعالى مهزومين يملأ قلوبهم الرعب.

● وفيها حديث عن بنى قريظة وغدرهم وخيانتهم، وما عوقبوا به من عقاب.

● وفى السورة توجيه لزوجات النبى ﷺ، وتعريفهم بما يجب عليهن من تَحَلٍّ بصفات

بعينها، ليتناسب ذلك مع مكانتهن من النبوة.

- وفيها التسوية بين الرجال والنساء من المسلمين فى وجوب أن تقوم حياتهم وحياتهن على الأسس الجديدة التى وضعها الإسلام والتقيد بالقيم التى دعا إليها.
- وفيها قصة تطليق زيد بن حارثة لزينب بنت جحش، وأمر الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يتزوجها، ليُشَرِّع بذلك هذا الزواج الذى كان العرب يحظرونه قبل الإسلام.
- وفيها آيات كريمة تطالب المسلمين بذكر الله وتسبيحه، وتربيهم على الطاعة والذكر حتى يحظوا برضا الله تعالى فيخرجهم من الظلمات إلى النور، ويشملهم برحمته.
- وفيها آيات توضح وظيفة النبى ﷺ فى تعامله مع المؤمنين والكافرين والمنافقين.
- وآيات توضح الأحكام العامة فى تنظيم العلاقات الأسرية، وما يتصل بشئون الأسرة المسلمة من واجبات واداب.
- وفيها بيان لأحوال الكافرين يوم القيامة من خلود فى النار مع العذاب والهوان، دون نظر أو التفات إلى ما يثيرونه وحجج يبررون بها باطلهم.

موضوعات سورة الأحزاب

أما تحديد الموضوعات التى تحدثت عنها السورة مرتبطة بآياتها بحسب ورودها فى السورة، فنوضحها فيما يلى - والله المستعان - :

١ - فى الآيات الثلاثة الأولى من السورة الكريمة :

أمرٌ للنبى ﷺ بأن يستمر على تقوى الله، ونهى له وللمؤمنين عن طاعة الكفار والمنافقين، وأمر له وللمؤمنين بشيئين هما:

- اتباع ما أوحى الله تعالى به.

- والتوكل على الله، والاكتفاء به سبحانه عن كل ما سواه.

٢ - والآيات من الرابعة إلى السادسة :

تصحيح لبعض المفاهيم الخاطئة التى كان العرب يعتقدون صحتها، وهى كثيرة منها مانشير إليه فيما يلى:

– اعتقادهم أن لبعض الناس قلبين اثنين ،

– واعتقادهم أن الابن بالتبنى كالابن من الصلب ،

– واعتقادهم أن قول الرجل لزوجته : أنت عليّ كظهر أمي – الظهار – يحرم زوجته عليه .

● وفى هذه الآيات الثلاث بيان لحكم الخطأ والعمد، وأن الله تعالى لا يحاسب على الخطأ وإنما يحاسب على العمد .

● وفيها بيان لأحكام خاصة بالنبى ﷺ وأزواجه، مع بيان لبعض أحكام الميراث التى كان معمولا بها قبل نزول هذه الآيات .

٣ – وفى الآيتين السابعة والثامنة :

حديث عن وجوب الدعوة إلى الله، والتبليغ عنه على الأنبياء جميعا وعلى أصحاب الشرائع وأولى العزم منهم وأولو العزم هم : محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وأن الله تعالى سائل من لم يبلغ دعوته إلى عباده ومحاسبه على ذلك التقصير فى البلاغ .

٤ – وفى الآيات من التاسعة إلى العشرين :

حديث عن غزوة الأحزاب، وعن بنى قريظة، وعن ما جرى فى هذه الغزوة من أحداث، وما كان من المنافقين من قول وعمل، وفيها امتنان من الله على المؤمنين بأن صرف عنهم الأحزاب مهزومين، وفيها تأكيد لحقيقة كبرى هى أن ما جاء أجله مات أو قتل بحيث لا ينفعه من ذلك فرار، إذ لا عاصم من قدر الله .

٥ – وفى الآيات من الحادية والعشرين إلى السابعة والعشرين :

كشف لأحوال المنافقين وأعمالهم، وهم المعوقون الصادون عن دين الحق وعن النبى ﷺ، الذين يثبطون الناس عن القتال ويخذلونهم عن خوض المعركة، ومن صفاتهم : أنهم إذا حضروا قتالا فللرياء والسمعة، وأنهم بخلاء بالمال والعمل، وأنهم جبناء، وأنهم يبحثون عن منافعهم الدنيوية ويجادلون عنها بلسان سليط، وأنهم يباعدون بينهم وبين القتال ما وسعهم .

٦ – وفى الآيات من الثامنة والعشرين إلى الرابعة والثلاثين :

أمر للنبى ﷺ بأن يخير زوجاته بين الرغبة فى الحياة الدنيا وزينتها وإيثار النبى ﷺ

والحياة فى كنفه.

وفيها بيان لحقوق زوجات النبى ﷺ وواجباتهن، وأن الثواب والعقاب يجرى عليهن كسائر الناس.

ومطالبة زوجات النبى ﷺ بالتحلى بآداب اجتماعية معينة، والتخلى عن صفات بعينها.

٧ - وفى الآية الخامسة والثلاثين :

بناء الشخصية المسلمة وتوضيح أبعادها وصفاتها.

٨ - وفى الآيات من السادسة والثلاثين إلى الآية الأربعين :

حق الرسول ﷺ على المؤمنين وواجبه نحوهم، وفيها أحكام خاصة بزواج مطلقة الابن بالتبنى، وبيان حقيقة قرابة المؤمنين من الرسول ﷺ.

٩ - وفى الآيات من الحادية والأربعين إلى الثامنة والأربعين :

مطالبة المؤمنين بذكر الله وتسبيحه على كل حال وفى كل حين، وتقرير لرحمة الله تعالى بالمؤمنين،

وبيان لوظائف النبى ﷺ وهى :

الشهادة على الناس ،

والتبشير والإنذار ،

والدعوة إلى الله تعالى ،

وإضاءة الطريق لمن اتبعه،

وتبشير المؤمنين بفضل الله عليهم .

١٠ - وفى الآيات من التاسعة والأربعين إلى الثانية والخمسين :

أحكام فى الزواج تعم المسلمين وتخص الرسول ﷺ، ففيها حكم المطلقة قبل الدخول بها، وما أحل الله لرسوله ﷺ من الزوجات والسرارى.

١١ - وفى الآيات من الثالثة والخمسين إلى التاسعة والخمسين :

أدب الدخول إلى بيوت النبى ﷺ، وأدب التعامل مع زوجاته ﷺ، وحجاب أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.

١٢ - وفى الآيات من الستين إلى الثامنة والستين:

تهديد للمنافقين فى الدنيا والآخرة، وبيان لسنة الله تبارك وتعالى فيهم فى الماضى، وما ينتظرهم من عقاب فى الآخرة.

١٣- وفى الآيات من التاسعة والستين إلى الثالثة والسبعين نهاية السورة :

نداء على المؤمنين بتقوى الله، وتحذير لهم من إيذاء النبى ﷺ كما آذى اليهود موسى عليه السلام، ومطالبة المؤمنين بالتقوى والقول السديد، وتبشير لهم بأن الله تعالى سيصلح أعمالهم ويغفر ذنوبهم، وحديث عن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، وإبائهن حملها، وقبول الإنسان حملها، ليعذب الله أهل النفاق والشرك، ويتوب على أهل الإيمان، ويغفر لهم ذنوبهم.

تسمية السورة بسورة «الأحزاب»

رويت هذه التسمية عن ابن عباس رضى الله عنهما، كما رويت عن أُبىّ بن كعب رضى الله عنه، روى ذلك عنهما العلماء بأسانيد جيدة.

● ووجه التسمية أن فيها ذكر أحزاب المشركين من قريش، ومن تحزب معهم من كنانة وغطفان وأحابيش قريش؛ وهم بنو المصطلق، وبنو الهون - حيث اجتمع هؤلاء الأحابيش عند جبل بمكة يقال له: حُبْشى، فحالفوا قريشا أنهم معهم ضد محمد ﷺ.

● وهكذا جاءت تسميتها فى المصاحف الشريفة، وكتب التفسير وكتب السنة النبوية المطهرة بحيث لم تذكر فى مصحف بغير اسم سورة الأحزاب.

أما معركة الأحزاب فقد سميت فى بعض كتب السيرة والتاريخ بمعركة الخندق أو وقعة الخندق أو غزوة الخندق، بالإضافة إلى تسميتها بغزوة الأحزاب أو معركتها، وسميت الخندق لأن المسلمين حفروا حول المدينة خندقا لاتقاء الأعداء.

● وهذه السورة الكريمة مدنية باتفاق العلماء، وكان نزولها -كما قال ابن إسحق -فى أواخر سنة خمس من الهجرة، ورأى ذلك أيضا ابن رشد فى كتابه البيان والتحصيل، ولا خلاف فى مدنيتها، ولكن هناك خلاف فى السنة التى نزلت فيها، فقد روى عن الإمام مالك أنها نزلت فى سنة أربع وهى سنة غزوة الأحزاب نفسها.

● **وفى عدد آيات هذه السورة قولان:**

- أحدهما ينسب إلى أبى بن كعب رضى الله عنه، فقد سأله زر بن حبيش رضى الله عنه قائلا: كأين تعددن سورة الأحزاب؟

قال: ثلاثا وسبعين آية، وان كانت لتعدل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم» فَرُفع فيما رفع -أى نسخ نسخ- من التلاوة وان بقى الحكم رجما للمحصن والمحصنة إذا زنيا.

● وهذا الخبر لابد أن يكون موضع شك وريبة، وغير مقبول حتى عند الذين قالوا: إن أُبيّا كان يلحق شيئا من القرآن بهذه السورة.

والسر فى رفض هذا القول: أن حفاظ القرآن الكريم، والخلفاء الأربعة رضى الله عنهم،

وكافة الصحابة رضى الله عنهم أجمعوا على أن القرآن هو الذى فى المصحف، كما أجمعوا على أن عدد آيات القرآن وآيات كل سورة كما ورد فى المصحف دون خلاف يذكر.

والذين اختلفوا فى شئ من ذلك قلة نادرة لا يؤبه لهم.

- والقول الآخر ينسب إلى عائشة رضى الله عنها: فقد قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمان النبى ﷺ مائتى آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن.

● وهذا القول ضعيف بل واهٍ متهالك، ومثله فى الضعف والتهالك ما روى من أن تلك الزيادة كانت مكتوبة فى صحيفة فى بيت عائشة رضى الله عنها فأكلتها الداجن -أى الشاة- فذلك من أضاليل الروافض والملاحدة، وهؤلاء الروافض يزعمون أن القرآن مستودع عند الإمام المنتظر، ويقولون: إن هذا الإمام سوف يأتى بالقرآن. وقر بعير -أى حمل بعير.

● وبعد:

فإن هذين القولين المنسوبين إلى أبى بن كعب وعائشة رضى الله عنهما لا وزن لهما، ولا يمكن تصديقهما كمخالفتهما لما أجمع عليه الصحابة رضى الله عنهم، وتضمنهما أن القرآن قد ضاع بعضه، وهذا مناقض لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)** ﴾ [الحجر: ٩]. وكل قول يخالف قول الله تعالى أو يناقضه مرفوض.

والخلاصة أن السورة اسمها فى المصحف «الأحزاب» وأن عدد آياتها ثلاث وسبعون آية وما عدا هذا فهو غير صحيح.

وبعد: فإلى تفسير آيات السورة الكريمة والله المستعان.

تفسير آيات السورة الكريمة

وبيان ما فيها من قيم تربوية عامة

وقيم تربوية خاصة فى مجالى الدعوة والحركة

١ - الآيات من الأولى إلى الثالثة.

وفيها بيان لواجب النبى ﷺ نحو الله تعالى.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) ﴾

[**الأحزاب**: ١ - ٣].

● هذه الآيات الكريمة بدئت بنداء النبى ﷺ، لتوضح له واجباته نحو ربه، وتجملها فى أوامر ثلاثة ونهى هى:

١ - الأمر بالاستمرار على تقوى الله تعالى.

٢ - والنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين.

٣ - والأمر باتباع ما أوحى الله تعالى.

٤ - والأمر بالتوكل على الله وحده فى كل أمر.

● وقد اشتملت هذه الآيات على أسلوب نداء وعلى أكثر من أسلوب أمر وعلى نهى وأكثر من أسلوب خبر جاء بعض هذه الأخبار مؤكدا، وبعضها خاليا من التأكيد، مما سنوضحه فيما يلى:

- نودى النبى ﷺ فى هذه السورة خمس مرات بلفظ: يأيها النبى، وهى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ - الآية الأولى.

و **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ .... ﴾** - الآية الثامنة والعشرون.

و **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾** - الآية الخامسة والأربعون.

و **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ... ﴾** الآية الخمسون.

و ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ - الآية التاسعة والخمسون.

● ونداؤه صلى الله عليه وسلم بوصف النبوة تشريف له بالنبوة، وقد قال العلماء: إن نداءه بلفظ النبي أو الرسول تنويه بمكانة النبوة والرسالة، ومكانه ﷺ منهما، ومثل هذا التنويه به وبالنبوة والرسالة، قد يرد بالإخبار عنه بوصف النبوة أو الرسالة، كقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ (٢٩) ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ (٤٠) ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

● وفي وصفه بالنبوة أو الرسالة أو ندائه بهما، إخبار بأن صاحب هذا الاسم: «محمد» هو رسول الله، أو فيه تعليم وتلقين للمؤمنين ليخاطبوه بوصف النبوة والرسالة.

● ومعرفة اسمه أو أسمائه ﷺ من الإيمان لكيلا يلتبس بغيره، ولذلك ذكر لنا رسول الله ﷺ أسماءه، فيما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لى خمسة أسماء: أنا محمد وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمي، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا العاقب».

وروى أحمد ومسلم بسنديهما عن أبى موسى رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أنا محمد، وأحمد، والمقَفّى، والحاشر، ونبى التوبة، ونبى المرحمة» وزاد الطبرانى فى الكبير: «ونبى الملحمة».

- وهذا النداء الأول على رسول الله ﷺ، نداء عليه فيما هو متعلق بذاته ﷺ، حيث نودى بأن يتقى الله وبأن لا يطيع الكافرين والمنافقين وبأن يتبع ما يوحى إليه، وبأن يتوكل على الله.

- **«اتق الله»**: أى خف الله ولا تخف غيره.

وليس الأمر بالتقوى يدل على المطالبة بها ابتداءً، أى أنها غير موجودة، ولكن المقصود بالأمر هو: الثبات على تقوى الله والاستمرار عليها والازدياد منها، لأن تقوى الله باب واسع وغرض بعيد.

● وقال العلماء: إنّ المَلِك يتقيه عباده على ثلاثة أوجه:

بعضهم يتقيه خوف عقابه.

وبعضهم يتقيه خوفا من قطع ثوابه.

وبعضهم يتقيه خوفا من احتجابه عنه.

والنبى ﷺ لم يؤمر بالتقوى خوف العقاب ولا خوف قطع الثواب، وإنما أمر بها بالمعنى الثالث، لأن الإنسان مهما أخلص لله لا يأمنه مادام فى الدنيا، إذ كيف يأمنه والأمور الدنيوية شاغلة له؟

والإنسان فى الدنيا تارة يكون مع الله تعالى، وأخرى يكون مقبلا على مالا بُدَّ منه من شئون الدنيا وإن كان معه الله!!!

وقد روى أحمد ومسلم بسنديهما عن الأغر المزنى -رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبى، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة».

- ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما** ﴾.

الكافرون هم: المجاهرون بالكفر.

والمنافقون هم: الذين يضمرون الكفر.

ويروى علماء أسباب النزول أن المقصود بالكافرين هم: أبو سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل، وأبو الأعور السلمى من قريش، وكانوا قد جاءوا إلى النبى ﷺ بعد وقعة أحد فأذن لهم بالأمان فى المدينة. والمقصود بالمنافقين عبد الله بن أبى بن سلول، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس، وطعمة بن أبيرق.

وكان أبو سفيان وصحبه قد سألوا رسول الله ﷺ أن يترك ذكر آلهة قريش، فغضب المسلمون، وهمَّ عمر رضى الله عنه بقتل القرشيين، فمنعه رسول الله ﷺ لأنه كان قد أعطاهم الأمان، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، فنزلت هذه الآية.

● والأرجح أن يكون الأمر بعدم طاعة الكافرين والمنافقين عام غير مرتبط بسبب بعينه لأنه مطلوب دائما، ولأن القاعدة فى تفسير آيات القرآن الكريم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿ **إن الله كان عليما حكيما** ﴾ معناه أن الله تعالى جدير بالطاعة، دون الكافرين والمنافقين، لأنه لا يأمر إلا بما فيه الصلاح.

و «**عليم**»: فيه إشارة إلى أن التقوى ينبغى أن تكون من صميم القلب، بحيث لا يخفى صاحبها فى نفسه تقوى غير الله، والله عليم بذلك الإخفاء كان أو لم يكن.

و «**حكيم**» تشير إلى وهم قد يرد على أذهان بعض الناس، عندما يجمع الكافرون والمنافقون مع أقارب النبى ﷺ على شئ يرون فيه المصلحة، ويكون اتباعهم فيما رأوه مصلحة، فإن الله تعالى حكيم، فلا تكون المصلحة إلى فى قوله سبحانه وتعالى.

- ﴿**واتبع ما يوحى إليك من ربك**﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكنه يشمل أمته كلها، بدليل آخر الآية التى خوطب بها المسلمون جميعا وهى قوله تعالى «**وبما تعملون...**».

والمعنى أن الوحى مصدره الله تعالى، وأنه واجب الاتباع، لأنه وحده الذى يحقق للإنسان سعادة الدنيا والآخرة.

ومعنى الاتباع: الالتزام بالأوامر التى أمر بها، والاجتناب للنواهى التى نهى عنها، التزاما نابعا من القلب المؤمن بأنه لا اتباع إلا لما جاء من عند الله تعالى.

- ﴿**إن الله كان بما تعملون خبيرا**﴾، أى يعلم سبحانه حقيقة ما تعملون ويعلم الدوافع إلى العمل، ويعلم كل ما يصلحكم فى معاشكم ومعادكم، والله سبحانه خبير بكل ذلك آمرٌ به ناهٍ عن كل ما يعوق تلك المصالح.

- «وتوكل على الله» هذا أمر للنبى ﷺ وللمسلمين جميعا فى كل زمان ومكان، وذلك أن التوكل على الله تعالى مطلب شرعى ودلت عليه هذه الآية الكريمة إذ جاء بصيغة الأمر.

● وقد ورد الأمر بالتوكل على الله بصيغة الأمر المتوجه إلى الفرد فى ثمانية مواضع فى القرآن الكريم(١).

وورد بصيغة الأمر المتوجه إلى الجماعة فى موضعين(٢).

وورد بصيغة الأمر المقرون بلام الأمر فى ثلاثة مواضع(٣).

● ومعنى التوكل على الله هو: الاعتماد عليه وحده.

وهذا التوكل عمل من أعمال القلب، وليس قولا باللسان ولا عملا بالجوارح، وذلك لا ينفى الأخذ بالأسباب.

---

(١) هى: الآية: ١٥٩ من آل عمران، والآية: ٨١ من النساء، والآية: ٦١ من الأنفال، والآية: ١٢٣ من هود، والآية: ٥٨ من الفرقان، والآية: ٢١٧ من الشعراء، والآية: ٧٩ من النمل، والآية: ٤٨ من الأحزاب.

(٢) وهما: الآية: ٢٣ من المائدة، والآية: ٨٤ من يونس.

(٣) هى: الآية: ٦٧ من يوسف، والآية: ١٢ من إبراهيم، والآية: ٣٨ من الزمر.

● روى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل».

● وروى الترمذى بسنده عن عمر رضى الله عنه مرفوعا: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا».

● ومن التوكل على الله التسليم بقضاء الله وقدره والرضا به وتفويض الأمر إليه، ومن التوكل على الله الأخذ بالأسباب، ومنه رسوخ القلب فى مقام التوحيد، ومنه الاعتماد على الله والسكون إليه سبحانه، وحسن الظن بالله تعالى.

– «وكفى بالله وكيلا» أى أنه سبحانه وتعالى نعم الوكيل، وأنه سبحانه يكفى من توكل عليه فى كل أمر.

والمعنى أن المتوكل على الله لا يهمه إن كان الناس معه أو عليه، ولا يحزنه كيد أعدائه له أو مكرهم به، لأنه بهذا التوكل قد ألقى الأمر كله لله يصرفه كيف يشاء وفق حكمته سبحانه وتعالى.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أمور كثيرة منها:

١ – أن كل مؤمن لا يكمل إيمانه إلا بعناصر أربعة هى كما يفهم من هذه الآيات الكريمة:

● تقوى الله فى كل حال وفى كل حين.

● وعدم طاعة الكافرين والمنافقين.

● واتباع وحى الله ومنهجه.

● والتوكل على الله والاعتماد عليه.

٢ – وأن التحلى بهذه الصفات، واجتماع هذه العناصر فى المؤمن يجعله كامل الإيمان، ومن كمل إيمانه كانت له عند الله منزلة رفيعة قد تلحقه بدرجة النبيين والصديقين والشهداء، وأن ذلك غاية ما يتمنى المؤمن.

٣ - وأن الاستمرار على التحلى بهذه الفضائل مطلب شرعى، لأن التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل طاعة لله تعالى وطاعة الله يجب أن تكون مستمرة.

وعلى سبيل المثال الذى يفهم من هذه الآيات الكريمة، فإن من كان من المسلمين تقيا فليداوم على تقواه، ومن كان لا يطيع الكافرين والمنافقين فليستمر على ذلك، ومن كان متبعا لوحى الله ومنهجه فليواظب على هذا الاتباع، ومن كان متوكلا على الله فى أمره كله فليس له أن يتخلى عن هذا التوكل.

٤ - وأن الله تعالى عليم بالمسلمين وبأعدائهم وبكل ما يصدر عنهم من قول أو عمل، وعليم بما يصلحهم ويصلح دينهم ودنياهم، وأنه سبحانه وتعالى له فى كل ذلك الحكمة البالغة التى اختار لهم بها المنهج الصحيح فأحل لهم ما أحل، وحرم عليهم ما حرم.

وأنه سبحانه وتعالى مع علمه بكل هذا سوف يجازى كلا بما قدم من قول أو عمل، إن خيرا فخيرا وإن شرا فبمثله.

٥ - وأنه سبحانه نعم المولى ونعم الوكيل، فلا يتخذ الإنسان وكيلا يعتمد عليه ويسلم له أمره كله إلا الله سبحانه وتعالى، ومن توكل على الله بهذا المعنى -الذى ذكرناه للتوكل- كفاه الله كل مئونة، وهداه إلى أقوم السبل ووقاه كيد الشيطان.

روى الترمذى وأبو داود والنسائى بأسانيدهم عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال -يعنى إذا خرج من بيته- بسم الله توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له: هُديت وكفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان».

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

فى هذه الآيات الكريمة مواقف تربوية يفيد منها الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية، نذكر منها ما يلى:

١ - أن تقوى الله تعالى فى كل قول أو عمل، وفى كل فعل أو ترك مطلب شرعى رئيسى تضافرت على شرعيته ووجوبه الأدلة من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ.

وأولى الناس بتقوى الله على كل حال، وفى كل حين هم الدعاة والحركيون، وذلك فى

المجالات التالية:

أ - تقوى الله فى عرض الدعوة على المدعويين، وفى جذب الناس إلى الانخراط فى الحركة من أجل الإسلام.

ففى الدعوة ينبغى اتباع الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريقة التى هى أحسن، أى تجنب التشدّد والتشديد على الناس، وتجنب الكلمة الخشنة، وتجنب الجدال بهدف غلبة الخصم فقط.

وفى الحركة يجب الاقتناع بأن الاختلاط بالناس هو الأصل وأن التحبب إليهم واجب، وأن تقديم الخير والنفع لهم مطلب شرعى دعا إليه الإسلام، وأن جمعهم على الحق ودعوته أساس ركين يقوم عليه العمل من أجل الإسلام، وأن توظيفهم فى أداء ما يحسنون من عمل مع التنسيق بين هذه الأعمال لتُسلبها ثغرات العمل من أجل الإسلام هو صلب العمل من أجل الإسلام.

ب - وتقوى الله فى الصبر على ما يأتى به بعض المدعويين من أقوال وأعمال تسىء إلى الدعوة أو إلى الدعاة، اقتداء برسول الله ﷺ فى صبره على ما ناله من أذى المشركين، ذلك الصبر الذى أمر الله تعالى به فى قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** (١٢٧)﴾ [النحل: ١٢٧]، وفى قوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ** (٦٠)﴾ [الروم: ٦٠].

جـ - وتقوى الله فى الصبر على ما يلحق الدعاة والحركيين من أذى وضرر، وهم يمارسون الدعوة إلى الله والحركة من أجل الإسلام، إذ قلما تخلو مواقف الدعاة من تعرض للأذى، فعليهم عندئذ أن يتقوا الله فى الصبر على ما يصيبهم فى سبيل الله ويحتسبون الأجر عند الله، ومن كان من الدعاة والحركيين يتصور أن يسلم من هذا الضرر فقد خدع نفسه بهذا التصور، لأن تلك سنة الله فى الأنبياء والمرسلين والدعاة إلى الله.

د - وتقوى الله فى الصبر على المدعويين وهم فى الطريق إلى الالتزام والانتماء، لأن عقبات كثيرة قد تقوم فى طريقهم فتبطىء خطاهم وتحول بينهم وبين مواكبة الركب على درب العمل من أجل الإسلام، والدعاة هم حماة المدعويين والآخذون

بيدهم إلى رحاب طاعة الله تعالى والالتزام بمنهجه.

وما لم يصبر الدعاة والحركيون على المدعويين فلن يحدث لهم النضج الواعى بالمواقف والأحداث، ولن يخلو أمر الدعاة مع المدعويين والحالة هذه من أحد أمرين كلاهما سيئ:

- إما أن يفقدوا معهم الصبر فيتجاوزوا بهم مرحلة أو أكثر من مراحل التربية تعجلا للوصول بهم إلى مستوى أحسن، وهذا خطأ.
- وإما أن يهملوهم يأسا منهم أو من استجابتهم، فيخسرون بهذا الإهمال، وذلك اليأس كثيرا ممن يعملون معهم، وهذه خطيئة.

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات أن لا يطيعوا فى حياتهم كافرا أو منافقا فى أى شئ، لأن الكفار والمنافقين يدعون إلى التخلى عن ركن من أركان الدين أو خلق من أخلاقه أو حكم من أحكامه، إذ قد صرّح القرآن الكريم بأعمالهم هذه كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً** ..... (٨٩) ﴾ [النساء: ٨٩]، ومن قوله: تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** (١٤٩) ﴾ [آل عمران: ١٤٩]، وقوله عز وجل: ﴿ **فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ** (٨) **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** (٩) ﴾ [القلم: ٨، ٩].

- وأود أن أذكر فى هذا المجال ببعض الحقائق وهى:

أن الكفار والمنافقين أعداء الله ورسوله والمؤمنين، والإضلال صنعتهم وفتنة الناس عن الحق وعن الدين صناعتهم، ولهم فى ذلك حيَل وخدع، إذ هم شياطين الإنس ينصبون الشباك للمؤمنين، وغالبا ما تكون بداية إضلالهم بإغراء من يخدعونه بترك سنة، ثم بترك واجب أو فريضة، ثم يكون الانهيار بالانحياز إلى جانبهم وموالاتهم بهذه الطاعة لهم.

- وأحب أن أوكد أن الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية هم حُرَّاس هذا الدين وحماته، وهذا الدين العظيم الخاتم كلٌ لا يتجزأ ومنهج متكامل لا يمكن أن يستغنى عنه ولا عن بعضه.

وتوضيح ذلك هو أن للدعاة إلى الله وظيفة، هى حماية الدين والذود عنه وحماية الناس من شياطين الجن والإنس، ولن تكون حماية أو ذود عن الدين، وعن الناس إذا كانت هناك طاعة للكفار والمنافقين. لأن هؤلاء إنما يأمرون بما يغضب الله وما يعطل أركان من الدين

ويحول بين الناس وبين ربهم ومنهجهم الصحيح فى الحياة الذى هو وحى من الله تبارك وتعالى.

٣ – وأن اتباع الوحى الذى جاء من عند الله هو الأصل وهو الواجب.

وأن هذا الوحى هو القرآن الكريم والسنة النبوية بمعناها الواسع الذى يشمل أقوال النبى ﷺ وأعماله وتقريراته، وأن هذا الوحى هو المنهج الواجب الاتباع لكماله وتمامه وختمه للمناهج التى جاءت على أيدى الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وهو منهج وصفه الله تعالى بالكمال والتمام، وأعلن رضاه عنه وعمن تمسك به، وما ذلك إلا لقدرته على توجيه الحياة الإنسانية نحو ما يصلحها ويصلح بها، قال الله تعالى فيه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** (٣)﴾ [المائدة: ٣].

● وأحب هنا أن أنبه إلى بعض الحقائق الهامة فى التعامل مع هذا المنهج ومن تلك الحقائق ما يلى:

أ – أن نجاح المسلمين وفلاحهم فى كل عصر فى معاشهم ومعادهم هو فى أتباع منهجه والالتزام بكل ما جاء فيه، لأن ما جاء فيه يصلح الإنسانية كلها فى كل زمان ومكان.

ب – وأن المؤمنين بهذا المنهج المتبعين لما جاء فيه يكفيهم شرفا وعزًا وسيادة أن يتبعوا منهجا جاء من عند الله ختاما للمناهج التى تقدمته على يد خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، بل هم مأمورون بذلك بقوله تعالى: ﴿**واتبع ما يوحى إليك من ربك**﴾.

جـ – وأن آفة المسلمين فى كل عصر، وعلامة ضعفهم وهوانهم وعصيانهم لله تعالى أن يبتعدوا عن هذا المنهج أو يتخلوا عن بعضه فضلا عن أن ينبذوه كله أو تستبدلوا به سواه، إذ هم لو فعلوا شيئا من ذلك كانوا موضع حساب وعقاب من الله تعالى: ﴿**إن الله كان بما تعملون خبيرا**﴾.

د – وأن تفرق المسلمين اليوم وذهاب ريحهم، ووقوعهم فى براثن أعدائهم، ومعاناتهم فى الاقتصاد والسياسة والنظم الاجتماعية، وتأخرهم فى العلم والبحث والكشف عما أودع الله فى الكون من أسباب للحياة الإنسانية الكريمة، كل ذلك –وهو واقع المسلمين اليوم– ما كان إلا بتركهم اتباع المنهج أى ما أوحى الله إلى خاتم أنبيائه

من قرآن كريم وسنة نبوية مطهرة، وما يستطيعون النهوض إلا باتباعه.

٤ - وأن التوكل على الله تعالى واتخاذه وحده وكيلا وكفيلا هو الأصل الذى يقوم عليه إيمان المؤمنين، وفى هذا التوكل على الله الذى أمر الله تعالى به فى هذه الآية الكريمة: ﴿**وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا**﴾ إشارات على جانب كبير من الأهمية يفيد منه المسلمون عموما والدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية على وجه الخصوص، ونحن نذكر من هذه الإشارات ما يلى:

أ - أن التوكل على الله تعالى -بالمعنى الذى ذكرناه للتوكل آنفا- فرض على كل مسلم ومسلمة لأنه جاء على صيغة الأمر: «وتوكل على الله». فهو أمر لافكاك منه ولا محيد عنه، وله حُكْم كل فرض، أى وجوب اتباعه والعقاب على تركه.

وإذا كان هذا بالنسبة للمسلمين عموما، فإنه بالنسبة للدعاة إلى الله والعاملين من أجل الإسلام أوجب وأولى وآكد، وبخاصة أنهم يدعون الناس إلى ذلك ويشجعونهم على الالتزام به.

ب - وأن التوكل على الله تعالى يقى الإنسان كل شر، ويهيئة لكل خير، ويغنيه عن كل عون، ويكفيه فى كل موقف، بل يكفل له رزقه فقد روى الترمذى بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا».

والعاملون من أجل الإسلام أحوج ما يكونون إلى عون الله وتأييده وكفايته فيما يواجهون من متاعب ومشكلات فى طريق الدعوة والحركة.

جـ - وأن التوكل على الله يبعث على الطمأنينة والثقة، ويزيد اليقين بالله تعالى، لكن يكون كل شئ على نحو ما يجب أن يكون عليه، وعلى الوجه الذى يحبه الله ويرضاه.

وأى الناس أولى بالطمأنينة والثقة واليقين من الدعاة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية؟

د - وأن التوكل على الله لا ينفى وجوب الأخذ بالأسباب، لأن ترك الأخذ بالأسباب تواكل لا توكل، وأذكر هنا بقصة الرجل الذى استوضح رسول الله ﷺ معنى

التوكل على الله حينما قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إني تركتُ ناقتي خارج لمسجد، أفأتركها دون عقال وأتوكل على الله أم اعقلها وأتوكل، فقال له رسول الله ﷺ: «اعقلها وتوكل» والمعنى أنه يجب الأخذ بالأسباب مع العلم اليقيني بكفاية الله تعالى لمن توكل عليه.

هـ – وأن أوضح ما يكون التوكل على الله في دعاء الاستخارة الذى يجب أن يتدبر فيه المسلم وأن يتعمق فهمه والأخذ بما فيه.

روى أحمد والبخارى بسنديهما عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إنى استخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر – تسميه باسمه– خيرا لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، فاقدره لى ويسره، ثم بارك لى فيه، اللهم وإن كنت تعلمه شرا لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاصرفنى عنه واصرفه عنى، واقدر لى الخير حيث كان، ثم رضنى به».

- ومعنى الحديث وجوب الاعتماد على الله بالتوكل عليه مع الأخذ بكل سبب ممكن والزفر إلى السبب فى الحديث بل التصريح به هو: «اعقلها وتوكل» أى خذ بالأسباب مع التوكل على الله.
- والدعاة إلى الله والعاملون من أجل الإسلام أولى الناس بهذا الفقه، وأجدرهم بتوضيحه للناس.

٥ – ويتعلم الدعاة من هذه الآيات الكريمة أن رصيدهم الدائم الذى يتزودون منه بالرغبة فى العمل، هذا الرصيد هو:

- تقوى الله على كل حال وفى كل حين.
- ومعصية الكافرين والمنافقين فى كل ما يشيرون به.
- واتباع وحى الله –الكتاب والسنة– ومنهجه اتباعا يوجب الالتزام بكل ما جاء فى المنهج من حكم أو خلق أو أدب.
- والتوكل على الله مع اليقين بأن الله نعم المولى، وأنه سبحانه وتعالى يكفى من توكل عليه.

إن ذلك أكبر رصيد، بل أغلى رصيد، وأبقى رصيد، إنه المعين الذى لا ينضب أبدا.

وما يحتاج الدعاة والحركيون إلى شئ مثل احتياجهم إلى هذا الرصيد، إنه أهم رصيد يواجهون به مشاق الدعوة ومتاعب الطريق وتحدى أعداء الله ولدعاته.

٢ – الآيات من الرابعة إلى السادسة

وفيها : تصحيح لبعض المفاهيم الخاطئة عند العرب

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) ﴾ [الأحزاب : ٤ – ٦].

● هذه الآيات الكريمة تصحح بعض المفاهيم الخاطئة التى كانت تسود المجتمع آنئذ، وترسى القواعد الصحيحة لبناء المجتمع الصالح القادر على التفاعل مع القيم السليمة والأخلاق الحميدة، المجتمع القادر على أن يبنى حضارة إنسانية تحافظ على كرامة الإنسان.

● وهذه المفاهيم الخاطئة التى صححتها الآيات الكريمة هى :

١ – اعتقاد بعضهم أن لبعض الناس قلبين فى جوفه.

٢ – واعتقادهم أن الرجل إذا قال لزوجته : « أنت علىَّ كظهر أمى » حُرمت عليه.

٣ – واعتقادهم أن الابن بالتبنى مثل الابن من الصلب، يحرم على مَنْ تبناه أن يتزوج بزوجه بعد طلاقها منه.

وفى تعديل هذه المفاهيم تأسيس لقواعد أساسية للمجتمع الصالح الذى تتضح فيه معالم الحق ويتصلح بقيمه أمر المعاش والمعاد، وتستبين من خلالها علاقات الناس بخالقهم وبالرسول ﷺ، وباليوم الآخر، وترسم لهم أسلوب التعامل مع الناس بما تشرحه لهم من أحكام وأخلاق وآداب، مما سنوضحه بعد قليل.

● وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على عدد من المفاهيم التى صححتها، وعلى بعض الأوامر، وعلى عدد من الأحكام الشرعية التى سيقت مساق الحقائق المقررة. وبيان ذلك فيما يلى –والله المستعان–

- «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه».

والمعنى أن الله تعالى لم يجعل فى خلق بعض الناس نظاما لم يجعله فى غيرهم، ومن ذلك أنه لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه، وكيف تستقيم حياة رجل له قلبان؟ أى هذين القلبين يؤدى وظائفه؟ وما قيمة الآخر؟ فكل دعوى من هذا القبيل باطلة.

- نقل بعض المفسرين عن مجاهد أنه قال: نزلت هذه الآية فى رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه، وكان يقول: إنّ لى فى جوفى قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد - ﷺ -.

- ونقل بعض المفسرين عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن سبب هذه الآية أن بعض المنافقين قال: إن محمدا له قلبان، لأنه ربما كان فى شئ فنزع فى غير نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول، فقالوا ذلك فأكذبهم الله عز وجل.

- وقال بعض المفسرين: كان الواحد من المنافقين يقول: لى قلب يأمرنى بكذا، وقلب يأمرنى بكذا... فالمنافق ذو قلبين كما يزعمون، والآية الكريمة ترد على هذا الزعم وتنفيه.

- «وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم».

ومعناه تقرير أن من قال لزوجه: أنت علىّ كظهر أمى، لا تصير أُمًّا له، ولا تحرم عليه -كما كانوا يعتقدون- فالكلمة لا تغير الحقيقة، ولا تبدل تغير الثوابت فالأم أم والزوجة زوجة.

- وقول الرجل لزوجه: أنتِ علىّ كظهر أمى، هو الظهار. ومن أحكامه التى جاء بها الإسلام:

أنه لا يخرج الزوجة عن الزوجية.

ولا يُعد طلاقا -كما كان يعتقد أهل الجاهلية.

وإنما تجب فيه كفارة وهى:

عتق رقبة، فإن لم يجد صام شهرين -ستين يوما- فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينا.

- وأحكام الظهار التى ذكرنا جاءت فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**

(٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾ [المجادلة: ٢ - ٤].

- «وما جعل أدعياءكم أبناءكم».

المعنى: أنهم كانوا ينسبون الأدعياء أبناءً فيقولون للمدعىّ -المتبنى- هو ابن فلان للذى تبناه، ويجعلون له جميع ما للأبناء.

● وقد نزلت هذه الآية فى إبطال التبنى وإبطال آثاره كالإرث وحرمة القرابة وحرمة الصهر، حيث كانوا يجعلون له كل ما للابن الحقيقى من الصلب.

● ومن أشهر المتبنين فى الجاهلية أربعة:

١ - زيد بن حارثة رضى الله عنه، تبناه رسول الله ﷺ، قبل النبوة، فكان يدعى زيد بن محمد.

٢ - وعامر بن ربيعة تبناه الخطاب والد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

٣ - وسالم، تبناه أبو حذيفة رضى الله عنه.

٤ - والمقداد بن عمرو، تبناه الأسود بن عبد يغوث رضى الله عنه.

● وأشهرهم زيد بن حارثة رضى الله عنه وهو الذى نزلت هذه الآية فى شأنه، وكان زيد رضى الله عنه فيما روى أنس بن مالك رضى الله عنه مسبيًّا من الشام، سبته خيل من تهامة، فابتاعه حكيم بن خزام بن خويلد، فوهبه لعمته خديجة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ، فوهبته للنبى ﷺ فأعتقه وتبناه، فأقام عنده مدة، ثم جاء جده[1] وعمه يرغبان فى فدائه، فقال لهما النبى ﷺ:

- وذلك قبل النبوة -خيّراه، فإن اختاركما فهو لكما دون فداء، فخيراه فاختار رسول الله ﷺ دون قومه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: يا معشر قريش اشهدوا أنه ابنى يرثنى وأرثه، وكان يطوف على حِلَق قريش يشهدهم على ذلك، فرضى ذلك أبوه -أى جده-

(١) فى بعض الروايات: جاء أبوه وعمه، ومعروف أن الجدَّ أبٌ، لأن والد زيد كان قد توفى، فنشأ زيد فى حجر جده، وكل جد أبٌ.

وعمه، وانصرفا.

● وزيد بن حارثة رضى الله عنه هو الذى تزوج زينب بنت جحش، وهى بنت عمة رسول الله ﷺ أُميمة بنت عبد المطلب، وهو الذى قاد جيش المسلمين فى مؤته، وقضى هناك شهيدا، وكان قد طلق زينب بنت جحش رضى الله عنها.

- **«ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل»**.

ذلكم: إشارة إلى ما كانوا عليه من عادات خاطئة: كقولهم إن لبعض الناس قلبين فى جوفه، وكالظهار، وجعل الأدعياء أبناء.

والمعنى أن ذلك كله ليس إلا مجرد أقوال، ليس لمدلولاتها حقائق خارجية تطابقها، والقول الحق هو ما شرعه الله لهم من نظام يهديهم به إلى أقوم السبل وأهداها.

- **«ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم.....»**.

● قال المفسرون: نزلت فى زيد بن حارثة.

● وقال ابن عمر رضى الله عنهما: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، مما يدل على أن التبنى كان معمولا به فى الجاهلية والإسلام، يتوارث به ويتناصر، إلى أن نسخ الله تعالى ذلك بقوله: «ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله» أى أعدل، فقد أخرج البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، حتى نزل فى القرآن: ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله».

● وقال النحاس: هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبنى، وهو من نسخ السنة بالقرآن، فأمر أن يدعو من دعوا إلى أبيه المعروف، فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى ولائه، فإن لم يكن له ولاء معروف قال له: يا أخى، يعنى فى الدين، قال الله تعالى: **«إنما المؤمنون إخوة»**.

● وحكمة: «ادعوهم لآبائهم» لا يشمل دعاءه الحفدة أبناء، فقد قال النبى ﷺ فى الحسن ابن بنته رضى الله عنهما: «إن ابنى هذا سيد».

● ويفهم من قوله تعالى: «ادعوهم لآبائهم» النهى عن النَّسب إلى غير الأب، ففى الحديث الشريف ما رواه ابن ماجة بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«من انتسب إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

- «**وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم، وكان الله غفورا رحيما**».

الجناح: الإثم، لأنه يميل بالإنسان عن الحق.

● وهذه الآية صريحة فى أن الأمر فى قوله تعالى: «**ادعوهم لإبائهم**» أمر وجوب بدليل أن دعوتهم إلى غير آبائهم تعمدا إثم.

● ومعنى: «**فيما أخطأتم به**» أى ما يجرى على الألسنة خارجا مخرج الغالب فيما اعتاده الناس من قولهم: فلان بن فلان للمتبنى والمتبنى، ولذلك قابله بقوله: «**ولكن ما تعمدت قلوبكم**» أى ما تعمدته عقائدكم بالقصد والإرادة إليه، وذلك هو المؤاخذ عليه.

● وهذه الآية الكريمة تدل على أن الخطأ لا يؤاخذ عليه، لأن العبرة فى آيات القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولقول النبى ﷺ فيما رواه الطبرانى فى الكبير بسنده عن ثوبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

- «**وكان الله غفورا رحيما**».

قال القرطبى معناه أن الله غفور للعمد، رحيم برفع إثم الخطأ.

- «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم....».

أى أنه ﷺ أولى بكل مؤمن من أنفس المؤمنين، فقد روى أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفى من المؤمنين فترك دينا فعلى قضاؤه، ومن ترك مالا فهو لورثته».

● وفى رواية لمسلم بسنده عن أبى هريرة أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى بالمؤمنين فى كتاب الله، فأيكم ما ترك دينا أو ضيعة -أى عيالا- فادعونى فأنا وليه، وأيكم ما ترك مالا فليؤثر بما له عصبته من كان».

● وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم: «**النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم**» فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه».

وليس بعد تفسير رسول الله ﷺ لهذه الآية من تفسير.

● وللآية الكريمة معنى آخر قال به بعض العلماء مستندين إلى تفسير آخر لرسول الله ﷺ للآية وهو: أن رسول الله ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة، قال ابن عطية: ويؤيد هذا ما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه» فهذا تفسير لرسول الله ﷺ للآية الكريمة.

– «**وأزواجه أمهاتكم....**» والمعنى أن الله تعالى شرَّف أزواج النبى ﷺ بأن أمهات جعلهن المؤمنين، فى وجوب التعظيم والمبرة والإجلال، وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضى الله عنهن.

– استثناء من الأمهات الحقيقيات إذ لا تحتجبن عن أبنائهن.

● قال العلماء: وبنات أمهات المؤمنين لسن إخوة للمؤمنين، فيجوز التزوج منهن، وكذلك الشأن فى الإرث فليست تركات أمهات المؤمنين يرثها جميع المسلمين.

● والصواب الراجح أن زوجات النبى ﷺ أمهات للرجال والنساء، من المؤمنين والمؤمنات تعظيما لحقهن على الجميع، ولا وجه لتخصيص أمومتهن على الرجال دون النساء استنادا إلى رواية مسروق بن الأجدع(١) عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة قالت لها: يا أُمَّة، فقالت: لستُ لك بأم، إنما أنا أم رجالكم ولأن العلماء لم يصححوا هذه الرواية.

– ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا، كان ذلك فى الكتاب مسطورا**﴾.

● «**أولوا الأرحام**»: هم القرابة الذين خرجوا من رحم واحدة، والمراد بهم الإخوة الأشقاء أو لأم.

● «**بعضهم أولى ببعض**» أى فى الميراث.

● «**فى كتاب الله**» أى فى حكمه وشرعه الذى جاء به محمد ﷺ.

● «**من المؤمنين والمهاجرين**» أى الذين كانوا يتوارثون بالهجرة أو بالحلف أو بالمؤاخاة التى

(١) هو مسروق بن عبد الرحمن الهمدانى، من التابعين المشاهير بالكوفة، وكان عابدا، ومن قُرّاء أهل الكوفة.

عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

● وبيان ذلك كما يلي:

١ – التوارث بالهجرة هو كما قال سعيد عن قتادة: كان نزل في سورة الأنفال: ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا** ﴾ فتوارث المسلمون بالهجرة، فكان لا يرث الأعرابي المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئا حتى يهاجر، ثم نسخ ذلك في هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾ فبيَّن تعالى أن القرابة أولى من الحِلف، فتركت الوراثة بالحلف وورثوا بالقرابة.

وقد توارث المسلمون بتلك المؤاخاة التي عقدها بينهم رسول الله ﷺ، زمانًا، ثم نسخ هذا التوارث بتلك الآية، كما نسخ التوارث بالتبني بآية «**ادعوهم لآبائهم**».

– «**إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا....**».

وهذا استدراك على ما قد يتوهم من قطع الانتفاع بأمور الأولياء عن أصحاب الولاية بالإخاء والحلف، فبينت الآية الكريمة أن الذي أُبطل ونسخ هو انتفاع الإرث، وبقي حكم المواساة وإسداء المعروف بمثل الإنفاق والإهداء والوصية ونحو ذلك.

– «**كان ذلك في الكتاب مسطورا**».

«**ذلك**» إشارة إلى ما ذكر في هذه الآيات من الأحكام التي شرعت مثل:

١ – ﴿ **وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم** ﴾.

٢ – ﴿ **ادعوهم لآبائهم** ﴾.

٣ – ﴿ **فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم** ﴾.

٤ – ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾.

٥ – ﴿ **وأزواجه أمهاتكم** ﴾.

٦ – ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين** ﴾.

«**في الكتاب**»: أي كتاب الله تعالى، وهو ما كتبه أي فرضه على عباده، أو هو القرآن الكريم.

«المسطور» المكتوب في سطور.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة ما يلى :

١ - أن الله تعالى خلق للإنسان قلبا واحدا، ولم يميز -فى أصل الخلقة- أحدا بأن جعل له قلبين، وذلك عدل ومساواة بين الناس فى أصل الخلقة وتلك حكمة الله تبارك وتعالى.

● فالقلب الواحد للإنسان الواحد هو فطرة الله التى فطر الناس عليها، والقول بغير ذلك افتئات على الله تعالى، ولا يقول به إلا الدجاجلة من الناس، الراغبين فى خداع الناس وتضليلهم.

● والآية الكريمة : «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه» تنفى الجمع بين قلبين (أو عقلين - لأن القلب ورد فى القرآن الكريم بمعنى العقل كما فى قوله تعالى : ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** .... (٤٦)﴾ [الحج : ٤٦]، وقوله جل شأنه : ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا** ..... (١٧٩)﴾ [**الأعراف** : ١٧٩].

فالآية الكريمة تنفى الجمع بين قلبين أو عقلين لرجل واحد، وتلك حقيقة صرح بها القرآن الكريم، وشهد بها واقع الإنسان منذ خلقه الله، وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

٢ - ويتعملون أن هذا القلب الواحد لا يستقيم أمره حتى يؤمن بإله واحد هو المعبود بحق سبحانه وتعالى، وأن هذا القلب الواحدأو العقل الواحد لا تستقر له حياة كريمة فى هذه الأرض حتى يلتزم بمنهج واحد فى هذه الحياة الدنيا، ليصلح به معاشه ومعاده.

● وأن هذا المنهج جاء من عند الله الواحد سبحانه وتعالى، ليصحح له فكره عن الكون والناس والأشياء، بل ليصحح له فكرته عن عالم الغيب واليوم الآخر، فضلاً عن إصلاحه لحياة الإنسان ونظمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

٣ - وكما نفى الله تعالى أن يكون لرجل قلبان فى جوفه -كما يزعم أهل الجاهلية- نفى تصورات خاطئة أخرى كانوا يعتقدون بصحتها وهى :

أ - نفى أن تجمع المرأة بين الزوجية والأمومة لمجرد كلمة يقولها الزوج.

ب - ومنع أن تكون كلمة الزوج لزوجته : أنت علىَّ كظهر أمى» سببا فى الطلاق، بل

يكفى من قال ذلك أن يكفر عن هذا بإحدى وسائل الكفارة التى ذكرناها آنفا.

جـ - وإلغاء نظام التبنى وإهدار للأحكام التى كانت تترب عليه كالميراث وحرمة تزوج أب المتبنى بمطلقة ابنه بالتبنى، واعتبر كل ذلك مجرد كلمات بالأفواه، لا يترتب عليها تغيير للحقائق الثابتة فى حياة الناس والنظم الاجتماعية الصحيحة.

٣ - ويتعلمون من الآيات وبخاصة: «**والله يقول الحق وهو يهدى السبيل**» ما يلى:

أ - أن ما يقوله الله تبارك وتعالى هو الحق دائما وعلى كل حال، وهو المطابق للواقع فى كل زمان ومكان، وهو الذى يحمل للإنسان كل ما ينفعه فى دنياه وآخرته.

ب - وأن ما يشرعه الله للناس من أحكام هو الذى يهديهم إلى السبيل الصحيح والطريق القويم فى كل ما يتصل بحياة الإنسان فى معاشه ومعاده.

٤ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم**... ﴾ ما يلى:

أ - أن يلتزم المسلمون الحق والعدل والدقة والصواب فى كل ما يقولون أو يفعلون، ولا يسمحوا لأنفسهم بتغيير الحقائق أو مجانبة العدل والصواب.

ب - وأن الأخوة فى الدين حق وواجب بين المسلمين جميعا، وأن هذه الإخوة لا تغير النسب، والمسلم حين يدعوا مسلما لا يعرف أباه، يقول له: يا أخى بدلا من: يا ابنى.

وبين المسلمين جميعا ولاء إخوة أو ولاء حلف يوجب البر والإحسان بينهم.

جـ - وأن حق الأخوة فى الدين والولاء بين المسلمين حق كبير، له واجبات كثيرة، كما أن له حقوقا كذلك، وأن هذه الحقوق والواجبات هى التى تدعم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين المسلمين جميعا، على مستوى الوطن الواحد، وعلى مستوى العالم الإسلامى كله، وأن المسلمين عندما يضيعون هذه الحقوق والواجبات، يقعون فى الفرقة والانقسام، ثم فى التخاذل والضعف، وطمع الأعداء، وهزيمتهم للمسلمين المتفرقين.

٥ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم**... ﴾ ما يلى:

أ – أن الله تعالى يعفو فلا يؤاخذ على الخطأ غير المتعمد، أى بالسهو أو سبق اللسان أو نحوه.

ب – وأن المؤاخذة والعقاب إنما تكون على تعمد الخطأ والمخالفة لأمر الله ونهيه.

جـ – وأن الله تعالى غفور رحيم، قد يغفر للمتعمد إذا تاب وأناب وأحسن التوبة وفق شروطها وآدابها، وأنه سبحانه وتعالى قد رحم بالفعل المخطئ غير المتعمد، فسامحه فيما أتى من خطأ إذ رفع إثمه عنه، ومن المعروف أن الرحمة أوسع من المغفرة.

٦ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم...**﴾ ما يلى:

أ – أن حب النبى ﷺ فرض أوجبه الله على كل المسلمين، إذ النبى ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فقد روى أحمد والبخارى ومسلم وابن ماجه بأسانيدهم عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».

وفى رواية: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر رضى الله عنه: والذى أنزل عليك الكتاب لأنت أحبُّ إلى من نفسى».

ب – وأن النبى ﷺ أولى بالمؤمنين من ولاية بعضهم لبعض وفى هذا المعنى، روى أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفى من المؤمنين فترك دَيْنًا فعلى قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته».

جـ – وأن ولاية النبى ﷺ للمؤمنين فى كل أمر من أمور الدين والدنيا، كما يشهد بذلك الإطلاق فى تعبير: «**النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم**» دون تقييد لنوع هذه الولاية.

د – وأن أزواجه ﷺ أمهات للمؤمنين أى مُنَزَّلات منزلة الأمهات فى تحريم التزوج بهم بعد النبى ﷺ، وفى وجوب التوقير لهن والتعظيم، وفيما عدا ذلك فهم كالأجنبيات.

٧ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين**

والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا كان ذلك فى الكتاب مسطورا﴾ ما يلى :

أ – أنه ذوى القرابات بعضهم أولى ببعض فى التوارث، وأن هذا النظام فى التوارث بين الأقرباء قد ألغى ما كان من التوارث بالهجرة والموالاة فى الدين والمؤاخاة، قبل نزول هذه الآية الكريمة.

ب – وأن إلغاء التوارث بالأخوة والموالاة لا يتعارض مع أن يصنع المؤمن معروفا لأخيه فى الدين فيوصى –مثلا– بقدر من ماله– فى حدود ما شرع فى الوصية وهو الثلث بشرط ألا يكون أحد ورثته لأنه لا وصية فى أكثر من الثلث ولا وصية لوارث –كما هو مقرر فى الشريعة الإسلامية.

جـ – وأن هذه الأحكام من عند الله تبارك وتعالى، وهى مسطورة فى اللوح المحفوظ أو فى القرآن الكريم، فهى تلغى كل ما يخالفها فى الماضى أو ما سوف يخالفها فى الحاضر أو فى المستقبل، لأنها أحكام تؤمن الحياة الاجتماعية للمسلمين، وتحفظها من كل ما يسئ إليها أو ينحرف بها عن صالح الإنسان فى معاشه ومعاده».

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة كثيرا من القيم التى يحتاجون إليها وتنفعهم فى الدعوة والحركة مما سنوضحه بعون الله تعالى فيما يلى :

١ –يتعلمون من قول الله تعالى : «**ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه**» ما يلى :

أ – أن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية، يجب أن يكون ولاؤهم كله لله تعالى ولمنهجه الذى أنزل على رسوله ﷺ، وليس بجائز لهم أن يجمعوا مع هذا الولاء –فى نفس منزلته–ولاءً لسلطان أو منهج أو نظام، وإنما لهم أن يستفيدوا من هذه المناهج والأنظمة بما لا يتعارض مع منهج الله ونظامه.

ب – وأن قلب الإنسان لا ينبغى أن يتسع إلا لله تعالى ومنهجه ونظامه أولاً وأساسًا، ومن أجل هذا كان الانتماء إلى أى نظرية سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية نابعا وتابعا للانتماء إلى منهج الله تعالى ونظامه، وغير مخالف أو معارض لشىء مما جاء فى منهج الله تعالى ونظامه.

جـ - وأن قلب المؤمن الذى أعطى ولاءه لله، وعَمُر بالإيمان به سبحانه يجعل لصاحبه ميزانا دقيقا يزن به الناس والأحداث والأشياء فيحكم لهم أو عليهم بمقدار قربهم من الله تعالى أو بعدهم عنه، وعلى قدر تمسكهم بمنهجه أو تقصيرهم فى الأخذ به.

هذا الإيمان هو الذى ينبع منه الخلق والأدب والسلوك، وهو الذى يتمسك بشريعة الله تعالى ويستهديها كل قانون ونظام، فمن امتلأ إيمانا بالله وولاءً له هداه الله إلى كل ذلك الخير، كما أخبر بذلك ربنا سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)** ﴾ [التغابن: ١١].

د - وأن نقاء القلب وخلوصه من غير الله، وعمرانه بالإيمان الذى يوجهه دائما إلى الحق فى كل أمر من أمور الدين والدنيا، إن هذا القلب هو الذى يدرك ويتعمق فى توحيد الله تعالى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)** ﴾ [المجادلة: ٢٢].

هـ - وأن هذا القلب العامر بالإيمان بالله تعالى ومنهجه، هو الذى يملى عليه أسلوب حياته، ونمط تعامله ومع نفسه ومع ربه ومع أسرته وإخوانه فى الدين، بل مع المجتمع كله حكامه وعلمائه وكبرائه، وسائر الناس فيه، بل مع غير المسلمين من الموالين والأعداء، ومع الشياطين وسائر قوى الشر.

وهو نمط من التعامل لا يعرف إلا الحق، ويرفض على الدوام الكيل بمكيالين -كما تفعل أكبر دول الأرض فى عصرنا هذا، وهى الولايات المتحدة الأمريكية والنظام العالمى الجديد وهيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها الذى يتمتع فيه بعض الأعضاء بحق الاعتراض وايقاف أى قرار لا يرضى هؤلاء الأعضاء المتميزون!!!

هذا النمط من التعامل الذى جاء به الإسلام يرفض ظلم أى أحد من الناس، ولو كان من المشركين، إن سر نقاء هذا القلب وسر رفضه الكيل بمكيالين هو أنه قد عمر بالإيمان بالله وتلقى منهجه من النبى الخاتم ﷺ، ومن سر ذلك أن هذا القلب،

وهو يعمر بالتوحيد قد رفض الوقوع فى تناقض المعايير واختلال القيم، فكان من رحمة الله تعالى أنه سبحانه ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه.

و – وأن العاملين من أجل الإسلام يجب أن يكونوا وحدة واحدة، وصنا واحدا لا يمكن اختراقه، ولا تغيير توجهه، مهما تكن التهديدات ومهما تكثر المغريات.

إن كل واحد من هؤلاء العاملين من أجل الإسلام ليس له إلا قلب واحد، وتوجه واحد، وما يجوز له أن يحيد عن هذا التوحيد أو يجمع معه ما يعكر عليه صفو وحدة الصف ووحدة الهدف بل وحدة الوسائل غالبا.

ز – وأن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية عليهم أن يربوا الناس على وحدة القلب ووحدة الإيمان، ووحدة العمل والسلوك النابع كله من توحيد الله تعالى واتباع منهجه وصراطه.

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: **﴿ ... وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ﴾**
[الأحزاب: ٤، ٥] يتعلمون من ذلك ما يلى:

أ – أن الإنسان مهما بلغ شأنه وعظمت مكانته –لا يستطيع بحكلة منه أن يغير حقيقة من الحقائق، لأن للحقائق ثبات واستقرار جعله الله لها لتستقر به حياة الناس، ويتعاملون على أساسه ليحققوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

ومن هذه الحقائق –على سبيل المثال:

– أن الله تبارك وتعالى واحد، وأنه خالق كل شئ، وهو على كل شئ وكيل، وأنه سبحانه الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل، وأنه –رحمة بالناس– أرسل الرسل وأنزل الكتب، وطالب البشرية كلها أن تؤمن بالمنهج الذى ختم به المناهج وأنزله على خاتم رسله محمد ﷺ.

- وأن الناس مهما قالوا ومهما حاولوا بكلامهم أو عهودهم أن يغيروا هذه الحقائق، فلا قيمة لما يقولون ولما يحاولون ولا وزن له ولا تأثير، وستظل هذه الحقائق ثابتة، ونصاراهم من كل تلك الدعاوى والمحاولات أن يخدعوا بعض الغافلين ويصطنعوا بعض المنافقين، وأن يضلوا عن سبيل الله الحق بعض التفهاء الغاوين.

والحق دائما هو الحق لا يغيره كلام ولا عمل.

- وأن ما يدعو إليه الدعاة إلى الله، ومايقوم به العاملون فى الحركة الإسلامية حق ثابت لا يملك أحد أن يغيره بقانون، ولا بمساومة ولا بتخويف وإرهاب، ولا بحشود المنافقين والمنتفعين بظلم الظالمين وبطش الطاغين.

ب - وأن ثبات هذه الحقائق يجب أن يكون مسلما به لدى الناس جميعا، وأن الزوجة التى أباحها الله وحماها بقانونه ونظامه، إحدى هذه الحقائق الثابتة، وأنها لا تنهار بمجرد أن يقول رجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي، فتلك كلمة لا تغير هذه الحقيقة، وقد جعل الله لها كفارة تمحو أثرها -على نحو ما أوضحنا آنفا-

وأن البنوة من الصلب حقيقة لا يغيرها التبنى، ولا تغيرها كلمة من الكلمات، إذ الأصل أن يدعى كل إنسان إلى أبيه، والحق هو ما أقره الله تعالى وهدى إليه فهو سبحانه: «**يقول الحق وهو يهدى السبيل**».

جـ - وأن البر، والتعاون على البر والتقوى حق للمؤمن على أخيه المؤمن، وأن الموالاة والمودة والتحالف على الخير والحق والهدى حق للمؤمن على أخيه المؤمن، أما أخوة النسب وقرابة الرحم فلها حقوق ثابتة أقرها الله تعالى وقدَّر فيها لكلٍ نصيبا مفروضا، ومع ذلك فالأخوة فى الله وفى الدين توجب الموالاة والبر وإيصال الخير إليهم بالوصية ونحوها. «**فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم**».

د - وأن من حقائق هذا الدين العظيم الكامل الخاتم؛ أن الله تعالى يغفر الخطأ ويعفو عنه، ويعاقب من تعمد المعصية بمخالفة شرع الله ومنهجه ونظامه تطبيقا لقوله تعالى: «**ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم، وكان الله غفورا رحيما**».

- ولقضية الخطأ فى العمل بالنسبة للدعاة والحركيين أبعاد، وفيها كثير من السلبيات، نرجو أن نوضح بعضها فيما يلى:

– الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية كثيرا ما يتعرضون لأخطاء فى العمل، نتيجة للاجتهادات التى تتطلبها مرحلة عمل بعينها، ثم يتبين لهم الخطأ فيها، وعندئذ يجب أن نقول ونذكر بقول الله تعالى: ﴿**ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما**﴾.

– وأنواع الخطأ فى العمل فى مجالى الدعوة والحركة كثيرة نذكر منها ما يلى:

● قد يكون الخطأ فى الترشيح لعمل أكبر أو عمل مغاير لما يقوم به العامل من عمل.

● وقد يكون فى التوظيف أى اختيار الرجل الصالح لعمل بعينه دون غيره من الناس.

● وقد يكون الخطأ فى اختيار هذا العمل دون سواه من الأعمال فيعطى أولوية يتبين أنها ليست له.

● وقد يكون فى التنسيق بين الجهود المبذولة، أو بين أنواع العمل، أو بين الأفراد.

● وقد يكون فى التوريث لصفات بعينها، أو لأساليب عمل بذاتها ثم يتبين الخلل فى ذلك التوريث، بحيث لا تتضح هذه الصفات ولا تلك الأساليب، مما يعوق الوصول إلى النتائج.

● وقد يكون الخطأ فى السياسات المرحلية أو العامة.

– وفى جميع الأحوال فإن المعروف عن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أنهم لا يأخذون قرارا فى أمر ذى بال إلا بعد أن يأخذوا فيه الشورى، ويعطوا للحوار حقه، ويحسنوا الاستماع إلى الرأى الآخر، ثم يلتزموا بما تفضى إليه الشورى، وكل ذلك داخل فى تلك الاجتهادات التى لا يؤاخذ الله تعالى على الخطأ فيها، فهى تدخل فى مفهوم قوله تعالى: ﴿**ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به...**﴾.

– واللائمون على الوقوع فى الخطأ، والمتباكون على الفرص التى ضاعت، يفوتهم دائما أو فى غالب الأحيان –على الرغم من إخلاصهم فى تباكيهم– يفوتهم أن الذين أخطأوا لم يتعمدوا ترك ما يجب من الشورى والمدارسة وحسن الاستماع إلى الرأى الآخر....

فهل بعد ذلك يوجه اللوم إلى من أخطأوا؟

وكيف يوجه لوم أو عتاب لمن لم يقصروا ولم يهملوا سببا من الأسباب كان يجب الأخذ به؟.

● تلك أدبيات فى العمل من أجل الإسلام يجب أن تسود أفكار هؤلاء العاملين، وأن يتحاكموا إليها لأنها أدبيات نابعة من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة.

فإن نسى بعضهم هذه الأدبيات فإنى هنا قد ذكرتهم بها، والذكرى تنفع المؤمنين.

– وما تلاوم العاملون من أجل الإسلام على تلك الأمور إلا وقد أفاد من ذلك أعداؤهم المتربصون بهم –وهم كثير– ولو تعمق اللائمون هذا الموقف وتلك النتيجة، لأنبوا أنفسهم على أن قدموا لأعدائهم هذه الفرصة التى يشنعو بها على المسلمين والإسلام نفسه، وفى كل حين يحدث فيه هذا التلاوم، نجد حملة أقلام الشر والحقد على الإسلام والتخوف منه على أنفسهم، وعلى انحرافاتهم نجد هؤلاء –وما أكثرهم– يفرحون بما يهاجمون به الحق وأهله، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، ولو شئنا أن نذكر أسماء لبعض الكتاب لفعلنا، ولكن هذا ليس من أهدافنا، لعل الله أن يهديهم فيصبحوا يوما عونا للإسلام لا عونا عليه.

إن الحاجة ماسَّة إلى التدبر والوعى العميق لقوله تعالى:

﴿ ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به، ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾.

– والذى أعلمه علم اليقين، ويعلمه غيرى ممن يرقبون العمل الإسلامى والعاملين من أجل الإسلام، أن واحداً من الدعاة أو الحركيين لا يمكن أن يتعمد قلبه المعصية أو المخالفة، وإلا فقد صفته ونقد إيمانه، وكان عدوا يلبس ثوب صديق، وهادمًا يتستر فى عمل مَنْ يبنى ويشيد، وحاشا أن يكون ذلك كذلك، فإن كان فإنها فتنة ومحنة نسأل الله السلامة منها، كما نسأله دائما العفو والعافية فى الدين والدنيا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

– والذى أوقن به، ويوقن به سواى من أبناء جيلى ممن عايشوا الدعوة والحركة، وخالطوا أهلها أن العاملين من أجل الإسلام مغبوطن على ما هم فيه من نعمة التوفيق إلى العمل من أجل الإسلام، وأنهم بإذن الله تعالى مجزيون عن ذلك أحسن الجزاء عنده تعالى.

وأن ما يعانون من متاعب قد تصل إلى حد الفتن والمحن، يعقب فى نفوسهم رضا وسعادة لو علمها أعداؤهم لقاتلوهم عليها، ولكن الغافلين لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا، وما أوهى وأهن ما يعلمون.

إن هؤلاء الأعداء يرون فيما يفتنون به الدعاة ويمتحنونهم فيه تضييقا عليهم بالسجن،

وإيلا ما لهم بالتعذيب والتنكيل- فى عصر يزعمون فيه أنه عصر حقوق الإنسان - وما يرون أو يشعرون بما احتسب هؤلاء الدعاة عند الله من أجرعظيم، ويعمون عما سوف يئول إليه أمر الظالمين فى الدنيا والآخرة، وليتهم يبصرون ويتبصرون.

هـ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وكان الله غفورا رحيما** ﴾ ما يلى:

- أن مغفرة الله تعالى تشمل من أخطأ فيما قال أو عمل ما لم يتعمد.
- وأن رحمته سبحانه تشمل من تعمد المعصية إذا تاب وأناب لقوله تعالى: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** (١٥٦) ﴾ [**الأعراف**: ١٥٦]، وقوله عز شأنه: ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** (٧) ﴾ [**غافر**: ٧].

٣ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا** (٦) ﴾ [**الأحزاب**: ٦] يتعلمون ما يلى:

أ - يتعلمون من جزء الآية: ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾:

- أن النبى ﷺ أولى بكل مؤمن من ولده ووالده ونفسه التى بين جنبيه، وهذه الولاية النبوية ذات شقين أحدهما:

حب المسلمين للنبى ﷺ أكبر الحب، وهذا الحب له ترجمة حقيقية هى طاعته ﷺ فى كل ما جاء به تصديقا لقوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٣١) ﴾ [**آل عمران**: ٣١]، واتباع الرسول ﷺ فى هذه الآية هو طاعته وتلك الطاعة كما قلنا هى نتيجة الحب.

والآخر:

حب النبى ﷺ للمسلمين، وهذا الحب النبوى للمسلمين له جانبان:

أحدهما:

رأفته ورحمته بالمؤمنين، كما أخبر بذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** (١٢٨) ﴾ [**التوبة**: ١٢٨].

والآخر:

تحمله ﷺ عن المؤمنين ديونهم وإعالة أبنائهم إذا مات أحدهم ولم يترك لأولاده مالاً ولا ضياعا، فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى من المؤمنين فترك دينا فعلىّ قضاؤه، ومن ترك مالا فهو لورثته».

ب - وأن هذا الولاء والحب من الرسول ﷺ للمؤمنين وتحمله عنهم ورعاية أبنائهم إن مات أحدهم ولم يترك لأولاده شيئا هو واجب كل حاكم مسلم، إذ عليه بموجب موقعه أن يؤدى عن المؤمنين ديونهم وأن يرعى أبناءهم ويعولهم إن كانوا صغار، فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة، اقرأوا إن شئتم «**النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم**» فأيما مؤمن ترك مالاً فلورثته عصبته مَنْ كانوا، وإن ترك دينا أو ضياعا (أى صغارا) فليأتنى فأنا مولاه».

جـ - والدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية هم أولى الناس بولاية النبى ﷺ، فهم الذين يحملون عبء الدعوة والحركة ويعلمون الناس الولاء للنبى ﷺ والانتماء لدينه بالمعنى الذى أشرنا إليه فى الولاء.

● وكل خطوة يخطوها الدعاة والحركيون فى مجالات العمل من أجل الإسلام فهى دعم لقوله تعالى: ﴿**النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾ فهم الذين يُعززون الولاء لرسول الله ﷺ فى نفوس الناس، وهم الذين يفسرون لهم معنى ولاء الرسول ﷺ لهم، ويوضحون معنى ولاء الحكام وأولياء الأمور لمن يلون أمورهم.

● وربما كان هذا التفسير والتبصير للناس بحقوقهم على حكامهم وولاة أمورهم سببا فى أن يعادى بعض الحكام الدعاة إلى الله وبخاصة مَنْ كان من هؤلاء الحكام لا يؤدى الذى عليه بنفس القوة التى يحرصون بها على أخذ ما لهم من الطاعة والخضوع.

ومن أجل هذا تجد الدعاة والحركيين أكثر الناس تعرضا لظلم الحكام وتحديهم وعداوتهم، وهى سنة الله فى الدعاة إلى الحق فى كل زمان ومكان.

● ومن مهام الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يسدوا -بإمكاناتهم المحدودة-

كل الثغرات وأنواع الخلل التى يهمل الحكام سدها، فيقوم الدعاة برعاية الأيتام وكفالتهم، ويمدون يد العون للفقراء والمساكين والعاجزين عن العمل والأرامل، ومن أصابتهم الجوائح. ويوجهون إليهم أموال الزكاة توجيها راشدا ينقل بعض مستحقى الزكاة من طبقة الآخذين إلى طبقة المكتفين، وربما تأهلوا بذلك إلى أن يصبحوا من طبقة الذين يؤتون الزكاة.

● وكثيرا ما يحارب بعض الحكام هذه الأعمال التى يقوم بها الدعاة إلى الله، ويحولون بينهم وبين ذلك الواجب، فلا هم أعطوا المستحقين ولا هم تركوا الدعاة يعطونهم ويكفونهم!!! وهؤلاء الحكام ينطبق عليهم المثل القائل: لا يرحم ولا يدع رحمة الله تنزل بأحد!!! وما مثل ذلك إلا ظلم وضلال وأنانية ورغبة فى تجويع الناس!!!

٤ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**وأزواجه أمهاتهم...**﴾ الأدب الرفيع فى وجوب توقير زوجات النبى ﷺ وإنزالهم فى هذا التوقير منزلة الأمهات، واحترام سِيَرَهم النقية التى أفادت النقاء والطهارة والتقوى من بيت النبوة. ثم يتعلمون من هذه الآية الكريمة ما يلى:

أ – أن على الدعاة أن يعلموا الناس حب النبى ﷺ وتوقير أهل بيته، والإحساس العميق بأن لزوجات الرسول ﷺ على كل مسلم حق الأم من البر والاحترام والإجلال، وأن يؤكدوا لهم أن المساس بسيرة إحدى أمهات المؤمنين إفك وبهتان، وعقوق وعصيان لما أمر الله به، وأن على الدعاة أن يردوا على من يشارك فى ذلك أو يشيعه لأنها جميعا أحاديث إفك جديدة تنزف بها أقلام بعض العصاة الطاغين، الذين ينتمون إلى العلمانية ويتذدرون بالدين ويتهمون الرسول ﷺ ويخوضون فى الحديث عن زوجاته أمهات المؤمنين، فى هذا النتن الذى ينشرونه فى صحف تملكها الدولة التى ينص دستورها على أن دينها الرسمى الإسلام!!![(١)].

ب – وأن معركة التهجم على الإسلام وعلى النبوة وبيت النبوة معركة تحركها فى هذه

---

(١) من ذلك مؤلَّف لمأفون لم يستح أن يطلق على نفسه –فى إعلان مدفوع الأجر– أنه كاتب مفكر، يكتب عن زوجات الرسول –ﷺ– الـ ٢٥، وعن إمائه الـ ٢١!!! كما أعلن أنه كتب عن أسورة عذاب القبر، وعن الجزية وغيرها!!! هكذا أعلن المأذون عن نفسه فى صحيفة الأهرام بتاريخ ٢/٢/١٩٩٦م، فى صفحة ٢٤، ومن عجب أن اسمه: أحمد!!!

الأيام أيد خبيثة واغلة فى الإلحاد والكفر، والعداء للحق ولكل ما هو إسلامى.

- ومن العجب أن يلقى هؤلاء الكتاب الذين يهرفون بما لا يعرفون أحسن الجزاء وأكبر التكريم من بعض رؤساء الدول والمؤسسات الصهيونية، ويحظون بالحماية والأمن، ويتصدرون المجالس والندوات وتنفق على حمايتهم مئات الآلوف من الجنيهات!!!
- ولقد أصبح من الطرق القصيرة للشهرة والحظوة التهجم على الإسلام ورسول الإسلام، وإن من يراقب أحوال هؤلاء المتهجمين يجد مصداقا لما نقول.

جـ - وإن مهمة الدعاة إلى الله تعالى كانت ومازالت الدفاع عن الحق وعن الإسلام ورسول الإسلام وبيت النبوة، ورد هذه المفتريات وتفنيد هذه الأباطيل، والتصدى لهم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، دفعا للباطل بالحق، وللضلال بالهدى.

- ومن واجب الدعاة الإشارة أو التصريح بمن يحركون هذه الحملات، ومن يؤيدونها، ومن ينفقون عليها، ليكون المسلمون على علم وعلى حذر ممن يناصبون الإسلام العداء.

ورائد الدعاة فى هذه الردود وهذه التوضيحات قول الله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤)** ﴾ [الأحزاب: ٤].

٥ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين كان ذلك فى الكتاب مسطورا**﴾ ما يلى:

أ - أن الإسلام يحترم الأسرة ويقدرها أحسن تقدير، ويراها وحدة المجتمع وقوامه، ويعطيها من الحقوق ما يحافظ عليها ويؤمن حاضرها ومستقبلها.

- ومن ذلك أنه يقدر القرابات النابعة من الأسرة، ويجعلها فى الميراث أولى من الأخوة فى الدين.
- ومنه تقديره للمرأة واحترامها وتوقيرها أما وزوجة وخالة وعمة ووجوب رعايتها بنتا وأختا، ويجعل القرابة المتسببة فيها أولى القرابات بالحقوق والواجبات ويسمى هذه القرابات ﴿**أولو الأرحام**﴾ أى الذين جمعت بينهم رحم واحدة.

ب - وأن لقرابة الدم حرمة مرعية وحقوقا وواجبات فى الميراث لا يجوز تخطيها، ولا

تفضلها الأخوة فى الدين فى الميراث، وإن كان لكل نوع من أخوة الرحم وأخوة الدين احترام وتقدير وحقوق وواجبات.

جـ- وأن منهج الإسلام قام على حقائق راسخة فى تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم، وإنما رسخت هذه النظم لأنها جاءت من عند الله تعالى، وسطرت فى كتابه الكريم.

٣ - الآيتان الكريمتان السابعة والثامنة

وهما فى وجوب تبليغ الرسالة والدعوة إلى الدين الحق

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) ﴾

[الأحزاب: ٧، ٨].

- هاتان الآيتان تتحدثا عن أخذ الله تعالى الميثاق على النبيين عموما، وعلى أولى العزم منهم على وجه الخصوص -وهم محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام- أخذ الميثاق عليهم أن يبلغوا عن ربهم، وأن يبشر بعضهم ببعض وأن يصدق بعضهم بعضا، كان ذلك حين أخذ الله الميثاق على الأنبياء جميعا.

- وإنما أخذ الله هذا الميثاق على الأنبياء عليهم السلام لكى يدعوا الناس إلى دين الحق عبادة الله وحده لا إله غيره، ثم يسألهم سبحانه وتعالى عن تبليغهم الدعوة إلى أقوامهم، كما يسأل الناس عن تصديقهم الرسل أو تكذيبهم إياهم، فيحاسب من عاندوا الرسول وكذبوهم،فكفروا، ويعد لهم العذاب الأليم.

- وفى الآيتين الكريمتين أكثر من خبر، وكلها أخبار تقرر حقائق أكيدة، إذ تقرر سنة الله تعالى فى رسله ودعوته وموقف الناس منها.

ولتوضيح هذه الحقائق نقول والله الموفق:

- ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) ﴾ [الأحزاب: ٧].

- الميثاق: عقد أو عهد مؤكد بيمين.

- والنبيون: جمع نبى، والنبيون هم صفوة البشر الذين اختارهم الله تعالى ليبلغوا عنه الناس بما ينفعهم فى دينهم ودنياهم، حيث يأمرونهم بالخير وينهونهم عن الشر.

- ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ (٧) ﴾ [الأحزاب: ٧].

هؤلاء هم أصحاب الشرائع والكتب، وهم أصحاب العزم من الرسل، عليهم الصلاة

والسلام، وهم شركاء فى أمور من أهمها:

- أنهم جميعا دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.
- وأنهم جميعا دعوا إلى الله وتحملوا فى سبيل الدعوة من أذى قومهم ما جعلهم يستحقون الوصف بأولى العزم من الرسل.
- وأنهم دعوا إلى فضائل الأخلاق والأعمال ونهوا عن راذلها.

– ﴿ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾.

أى ميثاقا عظيم الشأن، أو هو اليمين بالله على الوفاء بما حملوا من أمانة الدعوة إلى الدين القيم.

– ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

أى أخذ الميثاق على النبيين أن يبلغوا دين الله إلى عباد الله، وذلك يؤدى إلى إثابة من أطاعهم، وعقاب من عصاهم بإعداد العذاب العظيم له يوم القيامة.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي .... (٨١) ﴾ [آل عمران: ٨١]، أى أن يعلنوا أن محمدا ﷺ هو النبى الخاتم، وأن يعلن محمد ﷺ أنه لا نبى بعده.

– ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

– ليسأل الصادقين عن صدقهم: فيه أقوال منها:

- ليسأل الأنبياء عمن أجابهم من أقوامهم».
- أو ليسأل الأنبياء عن الوفاء بالميثاق الذى أخذه عليهم.
- أو ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم.
- أو ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة، وفائدة سؤالهم توبيخ الكفار.
- وأعد الله لمن عصى الرسل عذابا مؤلما لهم.

المواقف التربوية العامة فى هاتين الآيتين الكريمتين

١ - يتعلم المسلمون من الآية الأولى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ ما يلى:

أ - أن الله تعالى لم يخلق الخلق ويتركهم دون رعاية وعناية، بل أرسل إليهم رسلا، وأخذ عليهم الميثاق أن يبلغوا عن ربهم منهجه إلى الناس، كى ينقلوهم به من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى، وإلى سعادة الدنيا والآخرة.

ب - وأن منهج الله تعالى واحد لم يختلف من نبى إلى نبى، إذ هو دائما قائم على توحيد الله تعالى، وهو منهج متمثل فى قوله تعالى على لسان كل نبى: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف: ٥٩](١).

فهو منهج يقوم على توحيد الله وعبادته وطاعته، يبلغه الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم، ولذلك أخذ الله عليهم الميثاق أن يبلغوا الناس منهجه.

جـ - والدليل على وحدة المنهج أن الله تعالى -كما تدل على ذلك تلك الآية الكريمة- قد أخذ هذا الميثاق على النبيين جميعا، وخص بالذكر منهم محمدا ونوحا وإبراهيم وموسى وعيسى أولى العزم من الرسل عليهم السلام.

● وقال بعض المفسرين: إن الميثاق أخذ على جميع الأنبياء، وإنما خص هؤلاء الخمسة بالذكر لأنهم صبروا وعانوا فى الدعوة إلى الله، حتى صاروا فى ذلك مثلا، ولأنهم أصحاب الشرائع.

د - وأن الميثاق الغليظ هو الميثاق القوى العظيم الشأن، وإنما كان هذا الميثاق كذلك لأن الله تعالى استحلفهم أن يبلغوا رسالاته عنه كما يفهم ذلك من قوله تعالى:

﴿ **لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)** ﴾ [الجن: ٢٨]، ومن قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)** ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

(١) الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥ وسورة هود: ٥٠، ٦١، ٨٤، والمؤمنون: ٢٣، ٣٢.

٢ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: «ليسأل الصادقين عن صدقهم، وأعد للكافرين عذابا أليما» ما يلى:

أ – أن كل من كلفه الله تعالى بعمل فهو مسئول عنه بين يدى الله تعالى، لأنه سبحانه يسأل الجميع:

يسأل المبلغين عن تبليغهم.

ويسأل الوافين الصادقين عن وفائهم وصدقهم.

ويسأل المؤمنين عن إيمانهم.

ويسأل كل أحد عن كل ما كلفه به.

● وهذا السؤال هو الحساب الذى يعقبه الثواب والأجر لمن أطاع والعقاب والوزر لمن عصى.

ب – وأن الكافرين الذين عصوا الرسل وعاندوهم ورفضوا ما جاءوهم به ووقفوا فى طريق دعوتهم وتبليغهم، هؤلاء الكافرين قد أعدّ الله تعالى لهم عذابا أليما.

● وهذا من عدل الله تعالى فى معاملة من أطاع ومن عصى، وتلك سنته التى لم تتغير أبدا.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

فى هاتين الآيتين الكريمتين كثير مما يتعلمه الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية، مما نشير إلى بعضه فيما يلى:

١ – يتعلمون من قوله تعالى: «وإذ أخذ الله من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ميثاقا غليظا».

ما يلى:

أ – أن التبليغ عن الله تعالى والدعوة إليه عمل كل رسول من رسل الله تعالى ووظيفته الأساسية التى من أجلها ابتعثه الله تعالى.

ب – وأن هذا التبليغ عن الله له من الأهمية فى حياة البشرية كلها ما جعل الله تعالى يأخذ عن رسله وأنبيائه الميثاق الغليظ ليبلغوا ما أرسلوا به وما ابتعثوا من أجله.

جـ – وأن الدعاة إلى الله والعلماء في كل جيل هم ورثة الأنبياء فى هذا العمل وتلك الوظيفة –وهى دعوة الناس إلى الله إلى الحق والخير والهدى وإلى كل ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم.

وأن تلك الوظيفة أو هذه المهمة قد أكدها قول الله تعالى على لسان خاتم أنبيائه محمد ﷺ: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)** ﴾ [**يوسف**: ١٠٨].

د – وأن هذا الميثاق مأخوذ على كل من آتاه الله علما، وملك البصيرة فى الدعوة إلى الله، وذلك أن الدعاة والعلماء هم الذين أورثهم الله الكتاب، كما يفهم ذلك من قوله: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)** ﴾ [**فاطر**: ٣٢].

● قال علماء التفسير: إن الذين أورثوا الكتاب هم أمه محمد ﷺ، وبخاصة أهل العلم منهم.

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآية الكريمة أن تخصيص محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم –أولى العزم من الرسل– بالذكر، مع النص على سائر النبيين، فيه إشارة إلى الدعاة وإيحاء بوجوب الصبر على متاعب الدعوة والتبليغ مهما كانت، لأن أولى العزم من الرسول هم مضرب المثل فى الصبر على مشاق الدعوة وتحمل متاعبها، وذلك يفهم من قوله تعالى يخاطب خاتم رسله ويعلمه الصبر: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ .... (٣٥)** ﴾ [**الأحقاف**: ٣٥].

● ومن هذا يدرك الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية عددا من الحقائق الهامة فى حياة الدعوة والدعاة، نشير إلى أهمها فيما يلى:

أ – أن الدعوة إلى الله والتبليغ عنه واجب كل مسلم يملك البصيرة أى القدرة على الدعوة إلى الله، وأن هذا الواجب لا تخلص منه إلا بعذر يقبله الله تعالى.

ب – وأن الصبر على المتاعب التى تؤدى إليها الدعوة إليه والتبليغ عنه –وهى متاعب لابد حاصلة لأنها من سنة الله التى لا تتغير فى الدعوة والدعاة– هذا الصبر واجب

لا مفر منه ولا نكوص عنه، لأن الله تعالى يجزى عنه أحسن الجزاء.

جـ - وأن الدعاة إلى الله ليس لهم أن يستعجلوا أمر المدعويين، بل الصبر عليهم هو الأصل، أما أن يواجهوا عنادهم بالدعاء عليهم فهذا ما لا يجوز بحال، وللدعاة فى ذلك أسوة حسنة فى خاتم النبيين ﷺ فقد صبر على عداوة المدعويين وعنادهم ودعا لهم بالهداية وطلب من الله تعالى أن إذا لم يهتد هؤلاء، فليكن من أصلابهم مؤمنين مهتدين، فقد روى أحمد والبخارى ومسلم بأسانيدهم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لقد لقيتُ من قومك... وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كُلال، فلم يجبنى إلى ما أردتُ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب مكان هناك) فرفعتُ رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فنادانى فقال: إن الله قد سمع كلام قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال: يا محمد! فقال ذلك فما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، قلت: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا».

د - وأن سيرة أولى العزم من الرسل -سواء أكانوا جميع الأنبياء أم الخمسة المشهورون بتلك التسمية -يجب أن تكون محل دراسة وتأمل وتدبر عند كل من يشغل نفسه بالدعوة إلى الله والعمل من أجل الإسلام، فإن هذه الدراسة خير زاد يتزود به الدعاة.

وسير هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس لها مرجع ولا مصدر أوثق من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون من تغليظ الميثاق على الأنبياء والمرسلين أن الأمر جد ومهم، وأن الدعوة والتبليغ عن الله، لا يجوز التشاغل عنه ولا التراخى فيه، فضلا عن النكوص عنه لأى سبب غير العجز عنه، بدليل قوله تعالى: ﴿**قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى....**﴾ الآية.

● وإذا كان الله تعالى قد غلظ الميثاق على الأنبياء وهم ليسوا مظنة لأى تقصير -لمكانهم من العصمة- فما بال الدعاة والعلماء وهم بشر من الناس يوسوس إليهم الشيطان، ويزين لهم القعود عن الواجب، ويغريهم -وهذا شأنه- بما يغضب الله تعالى!!!

● فليكن الدعاة والعلماء والعاملون فى الحركة الإسلامية على حذر من القعودعن الدعوة إلى اللهومن وسوسات الشياطين.

ويفهم من هذا التغليظ للميثاق عدد من الحقائق، من أهمها ما نذكره فيما يلى:

أ - أن تغليظ الميثاق نابع من ضخامة المهمة الملقاة على عاتق الأنبياء وورثتهم فى الدعوة إلى الله، وتابع لخطرالوظيفة التى يقومون بها، إذ ليس فى الوظائف ما هو أهم من الدعوة إلى الله والتبليغ عنه، وليستقيم الناس على منهج الله تعالى، فيستريحوا من كل ما يعانونه فى حياتهم الدنيا -وإنه لكثير بحكم أن الدنيا دار ابتلاء واختبار وعمل- ويأمنوا خسران حياتهم الأخرى وهذه وتلك هى سعادة الدنيا والآخرة.

ب - وأنه على قدر غلظ الميثاق وأهمية ما أخذ عليه هذا الميثاق يكون عظم الجزاء وحسنه لكل من دعا إلى الله وبلغ عن ربه، كما يكون شديد العقاب وسيئه لمن قصر فى ذلك وأهمل.

٤ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **ليسأل الصادقين عن صدقهم، وأعد للكافرين عذابا أليما** ﴾ ما يلى:

أ - أن مساءلة الله تعالى للصادقين عن صدقهم سببها ما كلفهم به من تكليفات فى مجال الدعوة إلى الله وإلى الحق، وأن هذه المساءلة يترتب عليها الثواب أو العقاب.

ب - وأن عقاب الداعية المقصر فى الدعوة أو القاعد عنها، لابد أن يكون أشد من عقاب غيره من المدعويين، وأن عظم الثواب عند الطاعة لابد أن يقابله شديد العقاب عند المعصية.

جـ - وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يرسلوا عبثا، وإنما أرسلوا ليبلغوا عن الله تعالى ما اختار للناس من دين، وأن الله تعالى محاسبهم ومحاسب من أورثهم وظائفهم، وأنه جل شأنه لا يرضيه كفر الكافرين ولذلك يعد لهم العذاب الأليم.

٤ – الآيات من التاسعة إلى الآية العشرين

فى غزوة الأحزاب وبعض ما أحاط بها من أحداث

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ
تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ
وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١)
وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ
مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ
بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا
إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) قُل لَّن
يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم
مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧) قَدْ
يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ
فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ
الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي
الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) ﴾ [الأحزاب: ٩ – ٢٠].

- تحدثت هذه الآيات الكريمة عن غزوة الأحزاب وعن مواقف الكفار والمنافقين واليهود من هذه المعركة.

- وغزوة الأحزاب من كبريات الغزوات فى تاريخ الإسلام، بل هى لا تقل أثرا عن:

غزوة بدر التى أيّد الله فيها القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، ونصر فيها الدين بالقوة المعنوية والمادية.

وغزوة أحد التى علّم الله تعالى فيها المسلمين درسا عميقا فى وجوب الطاعة التامة لرسول الله ﷺ.

• وهذه الغزوة كانت آخر الغزوات التى تجمع فيها الكفر والنفاق واليهود ضد المسلمين، إذ لم يتجمعوا بعد ذلك فيهاجموا المسلمين.

• وقصة غزوة الخندق أو الأحزاب فى مسرد تاريخى نسوقه نقلا عن ابن إسحق فيما أورده ابن هشام، مع شئ من الاختصار فيما يلى(1):

« . . . وكان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم:

سلام بن أبى الحقيق النَّضرى –نسبة إلى يهود بنى النضير–

وحُيى بن أخطب النضرى.

وكنانة بن أبى الحقيق النضرى.

وهوذة بن قيس الوائلى.

وأبو عمار الوائلى.

فى نفر من بنى النضير، ونفر من بنى وائل، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ.

خرجوا حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش: يا معشر يهود: إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (51) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (54) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55)** ﴾ [النساء: 51 – 55].

فلما قالوا ذلك لقريش، سرَّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له.

---

(1) انظر سيرة ابن هشام: 2 / 14 ط الحلبى بمصر 1375 هـ – 1955م، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين.

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشا تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب.

وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصين في بني فزارة، والحارث بن عوف في بني مرة، ومسعر بن رخيلة بن أشجع فيمن تابعه من قومه من أشجع.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، وما أجمعوا له من الأمر، ضرب الخندق حول المدينة(١).

فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيبا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا.

وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم رجال من المنافقين، وجعلوا بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله ﷺ ولا إذن، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ **قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا** .... (٦٣) ﴾ [النور: ٦٣].

وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير، واحتسابا له، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ** (٦٢) ﴾ [النور: ٦٢].

وعمل المسلمون في الخندق حتى أحكموه.

وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتني، فيها من الله تعالى عبرة، في تصديق رسول الله ﷺ، وتحقيق نبوته، وقد عاين ذلك المسلمون(٢).

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة... في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت

---

(١) قال ابن هشام: يقال إن سلمان الفارسي أشار به على رسول الله ﷺ، وأن المهاجرين قالوا: سلمان منا، وقالت الأنصار سلمان منا فقال رسول الله ﷺ: سلمان منا أهل البيت.

(٢) من ذلك:

قصة الحجر الذي رش عليه رسول الله ﷺ الماء فصار كثيبا. والبركة في تمر ابنة بشير بن النعمان، وفي طعام جابر رضي الله عنهم جميعا وما أرى الله تعالى رسوله من مبشرات الفتح لليمن والشام والمغرب والمشرق.

وقد أورد ذلك وغيره ابن هشام في سيرته. انظر ٢ / ٢١٨ - ٢١٩. مرجع سابق.

غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد.

- وخرج رسول الله ﷺ حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع -جبل بالمدينة- في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم.

واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم..

وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الآطام.

- وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي -صاحب عقد بني قريظة وعهدهم- وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده على ذلك وعاهده...

ولم يزل حيي بن أخطب بكعب بن أسد حتى نقض عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر، وإلى المسلمين، بعث رسول الله ﷺ:

سعد بن معاذ -وهو يومئذ سيد الأوس.

وسعد بن عبادة -وهو يومئذ سيد الخزرج

وعبد الله بن رواحة - الشاعر المعروف

دَخوَّات بن جبير بن النعمان الأنصاري -رضي الله عنهم- فقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، فيما نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه -وكان رجلا فيه حدة- وقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

- ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ، فسلموا عليه، ثم قالوا عضل والقارة -أي غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع -خبيب وأصحابه- فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.

● وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظنّ المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين... حتى قال بعضهم: بيوتنا عورة.

● فأقام رسول الله ﷺ، وأقام عليه المشركون بضعًا وعشرين ليلة قريبا من شهر، لم تكن بينهم حرب إلا الرميًا بالنبل، والحصار..

وأقام رسول الله ﷺ وعدوهم محاصروهم، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس من قريش منهم: عمرو بن عبد ودّ، وعكرمة بن أبى جهل، وهبيرة بن وهب، وضرار بن الخطاب بن مرداس الشاعر، تلبسوا للقتال ثم خرجوا على خيلهم... ثم تيمموا مكانا ضعيفا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع.

● وخرج علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه -فى نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة....

وقال عمر بن عبد ود: من يبارز؟ فبرز له على بن أبى طالب فقال له يا عمرو: إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه.

قال له: أجل.

قال له على -رضى الله عنه-: فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام.

قال: لا حاجة لى بذلك.

قال: فإنى أدعوك إلى النّزال.

فقال له: لِمَ يا ابن أخى؟ فوالله ما أحب أن أقتلك.

قال له على رضى الله عنه: لكنى والله أحب أن أقتلك.

فحمى عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علىّ -رضى الله عنه- فتنازلا وتجاولا، فقتله علىّ رضى الله عنه.

● وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

● وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق ويوم بنى قريظة: حَمَ لا ينصرون.

قال ابن إسحق: وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف من الخوف والشدة، لتظاهر

عدوهم عليهم واتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

● ثم إن نعيم بن مسعود... بن غطفان، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة».

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة –وكان لهم نديما فى الجاهلية– فقال: يا بنى قريظة: قد عرفتم ودى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، ولا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم يكونون بأيديكم، ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه.

فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

● ثم خرج نعيم رضى الله عنه حتى أتى قريشا، فقال لأبى سفيان بن حرب، ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا، وإنه قد بلغنى أمر، قد رأيت علىّ حقًا أن أبلغكموه، نصحا لكم فاكتموا عنى، فقالوا: نفعل.

قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على مَنْ بقى منهم، حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم.

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا.

● ثم خرج –نعيم رضى الله عنه– حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إلىّ، ولا أراكم تتهمونى.

قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عنى، قالوا:

نفعل ، فما أمرك ؟

ثم قال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم ما حذرهم :

● فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، وكان من صنع الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم :

إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ، ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

● فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فارسلوا إلى بنى قريظة إنّا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . . .

فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم محمدا حتى تعطوا رهنا ، فأبوا عليهم ، وخذل الله بينهم ، وبعث الله عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم .

● فلما انتهى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم ، وما فرق الله من جماعتهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم ينظر ما فعل القوم ، ليلا . وقال له : اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يصنعون ولا تحدث شيئا حتى تأتينا .

قال : فذهبت فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل . لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ من جليسه ؟

قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان .

● ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع – الخيل – والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل . . .

قال حذيفة – وهو يسمع كلام أبى سفيان : ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىّ : « ولا تحدث شيئا حتى تأتينى » ثم شئتُ لقتلته بسهم .

فرجعتُ إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلى فى مرط – كساء – لبعض نسائه ، فلما رآنى أدخلنى إلى رجليه ، وطرح علىّ طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإنى لفيه – أى فى المرط – فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

● ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون ، ووضعوا السلاح .

● ثم كانت غزوة بنى قريظة على نحو ما هو معروف فى كتب السيرة .

● وقد اشتملت الآيات الكريمة على نداء على الذين آمنوا يذكرهم بأحداث هذا اليوم ومواقف الكفار والمنافقين وغيرهم ، كما اشتملت على جملة من الأخبار ، وعلى عدد كبير من الأوامر ، وعلى استفهام يفيد النفى ، مما سنوضحه فيما يلى والله الموفق :

– ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩)** ﴾ [**الأحزاب** : ٩] .

نعمة الله : هى ما أجراه سبحانه وتعالى من عظيم صنعه ، إذ هزم الأحزاب الذين تحالفوا ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه .

● وكان من أسباب هذه الغزوة أن قريشا بعد وقعة أحد تهادنوا مع المسلمين لمدة عام ، على أن يلتقوا ببدر من العام القابل ، فلم يقع قتال ببدر لتخلف أبى سفيان عن الميعاد .

● ولم يكن بعد ذلك من الأحداث إلا حادثة بئر معونة حيث غدرت قبائل عصية ورعل وذكوان – من بنى سليم – بأربعين من المسلمين ، إذ كان عامر بن مالك قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوجه إلى قومه أهل نجد من يدعونهم إلى الإسلام ، فلما توجهوا إليهم غدروا بهم وقتلوهم، وكان ذلك بعد أربعة أشهر من انقضاء غزوة أحد .

● وكان من نتائج غزوة أحد أن أجلى النبى صلى الله عليه وسلم يهود بنى النضير بعد أن غدروا بالمسلمين فى أحد وخاسوا بعهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

● وقد أدَّى إجلاء بنى النضير إلى أن اغتاظ يهود بنى قريظة وانضم إليهم حيى بن أخطب سيد بنى النضير ، فكان أن ذهبوا إلى قريش ثم غطفان يحرضونهم على حرب النبى صلى الله عليه وسلم، فتحزبوا فى عشرة آلاف مقاتل وذهبوا لحرب الرسول صلى الله عليه وسلم فى معركة الخندق أو الأحزاب .

- « **إذ جاءتكم جنود** » : هم جنود الأحزاب من قريش وغطفان ويهود .

- « **فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها** » :

الريح : ريح الصبا وكانت باردة ، وقلعت الأوتاد والأطناب وسفت التراب فى عيونهم ، وهى الريح التى قال فيها النبى صلى الله عليه وسلم : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » رواه أحمد والبخارى ومسلم بأسانيدهم عن ابن عباس رضى الله عنهما .

والجنود التى لم يروها هى : الملائكة الذين أرسلوا الريح وألقوا التخاذل فى الأعداء وملؤوا أنفسهم بالرعب .

- « **وكان الله بما تعملون بصيرا** » وذلك إشارة إلى أن الله تعالى نصر المؤمنين لعلمه بما قاموا به من جهد فى حفر الخندق ، وما صبروا عليه من متاعب فى هذا العمل .

- ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم** ﴾

الأعداء الذين جاءوا المسلمين من فوقهم أى فوق الوادى وهو أعلاه من قبل المشرق هم :

عوف بن مالك فى بنى نصر ،

وعيينة بن حصن فى أهل نجد ،

وطليحة بن خويلد الأسدى فى بنى سعد .

والذين جاءوهم من أسفل منهم : أى من بطن الوادى من قبل المغرب هم :

أبو سفيان بن حرب على أهل مكة ،

ويزيد بن جحش على قريش ،

وجاء أبو الأعور السلمى ، ومعه حيى بن أخطب من يهود بنى النضير ومعهم عامر بن الطفيل من وجه الخندق .

- ﴿ **وإذ زاغت الأبصار** ﴾ أى مالت فلم تلتفت إلا إلى عدوها دهشا من فرط الهول .

- ﴿ **وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ أى زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهى الحلاقيم .

- ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ قال الحسن :

ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون ،

وظن المؤمنون أنهم ينصرون .

وقيل : هو خطاب للمنافقين أى : قلتم أيها المنافقون : هلك محمد وأصحابه .

- ﴿ **هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديد** ﴾

« **هنالك** » : أى عند ذلك الوقت « **ابتلى المؤمنون** » أى إختبر الله المؤمنين ليتبين المخلص من المنافق .

« **وزلزلوا زلزالا شديدا** » : أى خافوا وتحركوا عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق يتحصنون به .

- ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا** ﴾

« **المنافقون** » هم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر .

« **والذين فى قلوبهم مرض** » أى شك وارتياب فى الدين وفى الرسول صلى الله عليه وسلم .

« **ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا** » أى باطلا ، وذلك : أن بعضهم كان يقول يوم الخندق عن النبى صلى الله عليه وسلم : كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ، ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز ؟ وإنما قالوا ذلك لما فشا فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله صلى الله عليه وسلم عندما ضرب الصخرة ، فبشر المسلمين بكنوز كسرى وقيصر فقد روى النسائى بسنده عن البراء رضى الله عنه قال : لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفر الخندق ، عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى ثوبه وأخذ المعول ، وقال : باسم

الله، فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ، ثم قال : الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر إلى قصورها الحمراء الآن من مكانى هذا ، قال : ثم ضرب أخرى وقال : باسم الله ، فكسر ثلثا آخر ثم قال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض ، ثم ضرب الثالثة وقال : باسم الله ، فقطع الحجر وقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر باب صنعاء ، فأنزل الله تعالى قوله : « **وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا** » .

– ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا (١٣)** ﴾ [**الأحزاب** : ١٣] ، والمقصود بهذه الطائفة من قالوا لأهل يثرب وهى المدينة المنورة – وقد سماها الرسول صلى الله عليه وسلم طيبة ، وطابة – والقائلون هم اليهود ، قالوا لعبد الله بن أبى بن سلول وللمنافقين : ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان وأصحابه ، فارجعوا إلى المدينة فإنا مع القوم ، فأنتم آمنون بنا لو رجعتم .

– ﴿ **وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣)** ﴾ [**الأحزاب** : ١٣] .

وهؤلاء هم طائفة أخرى استأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم قائلين : إن بيوتنا عورة ليست بحصينة مما يلى العدو ، وهم فى ذلك القول كاذبون إذ لم تكن بيوتهم عورة .

– « **إن يريدون إلا فرارا** » أى هربا من الحرب والقتل ، وقد هموا أن يتركوا مراكزهم يوم الخندق ، قال الضحاك : رجع ثمانون رجلا بغير إذنه صلى الله عليه وسلم .

– ﴿ **وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (١٤)** ﴾

[**الأحزاب** : ١٤]

« **أقطارها** » – أى جوانبها والضمير للمدينة المنورة ، قال القرطبى : « وقد جاء فى الحديث أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعذبون فى الله ، ويسألون الشرك ، فكلهم أعطى ما سألوه إلا بلالا » رضى الله عنه .

– « **الفتنة** » هنا لها معنيان كما قال العلماء :

أحدهما : لو سئلوا القتال فى عصبية لأسرعوا إليها ،

والآخر : لو سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين .

- « وما تلبثوا بها إلا يسيرا » أى ما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلا ، ولأجابوا بالشرك مسرعين ، وذلك لضعف نياتهم ولفرط نفاقهم ، فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر.

- ﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا** ﴾ والكلام هنا عن قوم غابوا عن معركة بدر ، وقالوا : لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن .

أو عن بنى حارثة الذين هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم ما نزل، عاهدوا الله تعالى ألا يعودوا لمثلهما ، فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم .

- « **وكان عهد الله مسئولا** » أى يسألهم عنه يوم القيامة .

- ﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذًا لا تمتعون إلا قليلا** ﴾ .

أى أن من حضر أجله مات أو قتل ، فلا ينفعه الفرار ، إذ لا فرار من الأجل .

« **وإذا لا تمتعون إلا قليلا** » أى فى الدنيا بعد فراركم إلى أن تنقضى آجالكم وكل ما هو آت قريب .

- ﴿ **قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧)** ﴾ [الأحزاب : ١٧] .

« **يعصمكم من الله** » أى يمنعكم منه ومما قدره لكم .

« **إن أراد بكم سوءا** » أى هلاكا .

« **أو أراد بكم رحمة** » أى خيرا ونصرا وعافية .

« **ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا** » وليا أى : قريبا ، ونصيرا : ناصرا ومعينا، أى لا يجدون هذا ولا ذاك .

- ﴿ **قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ (١٨)** ﴾ [**الأحزاب** : ١٨] قد : تفيد هنا التحقيق ، فى مقابل ظن المنافقين أن الله لا يعلم نفاقهم .

وبعض الناس الجهلة - من غير المنافقين - قد يظنون هذا الظن ، وقد ورد ذلك فى الحديث الشريف ، فقد روى البخارى بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : اجتمع عند البيت قرشيان وثقفى ، أو ثقفيان وقرشى ، كثيرة شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟

قال الآخر : يسمع إذا جهرنا ، ولا يسمع إذا أخفينا .

وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢)** ﴾ [**فصلت** : ٢٢] .

وقد يكون المقصود بالمعوقين الذين يعترضون الناس ويصدونهم عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وأيا ما كان المعنى فإنهم المنافقون : عبد الله بن أبى بن سلول وصحبه .

- ﴿ **وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا (١٨)** ﴾ [**الأحزاب** : ١٨]

هؤلاء هم المنافقون ، قالوا ذلك للمسلمين حين قالوا : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس . أى قلة - فهلم إلينا : أى تعالوا إلينا .

أو هم اليهود من بنى قريظة حين قالوا للمنافقين : هلم إلينا وفارقوا محمدا وأصحابه فإنه هالك وهالكون .

-﴿ **أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ... (١٩)** ﴾ [**الأحزاب** : ١٩] الآية .

« **أشحة** » أى بخلاء عليكم بمشاركتكم فى حفر الخندق ، وبخلاء بالنفقة فى سبيل الله ، وبخلاء بالقتال معكم .

وقيل : بخلاء بالنفقة على فقراء المسلمين .

﴿ **فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (١٩)** ﴾ [**الأحزاب** : ١٩]

أى جبناء ينظرون فى كل اتجاه كالمغشى عليه ، من شدة خوفهم وفرط فزعهم .

« **الخوف** » من القتال ، أو من النبى صلى الله عليه وسلم .

﴿ **فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ (١٩)** ﴾ [**الأحزاب** : ١٩] أى بسطوا ألسنتهم فيكم ، قال علماء التفسير : هم عند الغنيمة أشح قوم ، وأبسطهم - أى أطولهم - لسانا ، وهم فى وقت البأس أجبن قوم وأخوفهم .

﴿ **أشحة علي الخير** ﴾ أى على الغنيمة أو المال أن ينفقوه فى سبيل الله تعالى .

﴿أولئك لم يؤمنوا﴾ أى لم يؤمنوا حقيقة أو بقلوبهم، وإن كان فى ظاهرهم أنهم مؤمنون.

﴿فأحبط الله أعمالهم﴾ أى لم يثبهم عليها لأنهم لم يقصدوا بأعمالهم وجه الله، وإنما قصدوا سمعة ورياء، ولا عجب في ذلك فهم منافقون.

﴿كان ذلك على الله يسيرا﴾ أى نفاقهم هيّن على الله تعالى، أو إحباط أعمالهم هيّن عليه تعالى.

﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا (٢٠)﴾ [الأحزاب: ٢٠] أى أنهم لجبنهم يتصورون أن الأحزاب لم ينصرفوا علي الرغم من انصرافهم، وما ذاك إلا لفرط الخوف والجبن.

﴿وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ (٢٠)﴾ [الأحزاب: ٢٠] والمعني أنه إذا عاد الأحزاب وَدَّ هؤلاء الجبناء لو كانوا بعيدا عن المعركة، هناك في البادية خوفا من القتل.

﴿يسألون عن أنبائكم﴾ أى عن أخبار النبى ﷺ وصحبه قائلين: أما هلك محمد وأصحابه؟

أما غَلَبَ أبو سفيان وأحزابه؟

أى أنهم يتمنون هزيمة المسلمين، ويستعجلون تلك الهزيمة، كراهية منهم للإسلام والمسلمين.

﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا﴾

والقتال القليل معناه قتال غير مكلف للنفس إذ هو اكتفاء بالرمى بالنبل والحجارة، رياءً وسمعة، ولو كان ذلك لله لكان قليله كثيراً.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

١ – يتعلم المسلمون من الآيات الثلاثة الأولى وهى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم...** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ كثيراً من الدروس، ومن أهمها ما نذكره فيما يلي :

أ – أن نعم الله تعالى محيطة بالمؤمنين في الدنيا، وأن إحاطتهم بهذه النعم تصرف عنهم الشر وكل ما يسيء إليهم.

وأنه على الرغم من كثرة هذه النعم وإحاطتها بالإنسان، فإنه قد ينساها فيحتاج دائما إلي أن يذكرَّ بها ﴿ **اذكروا نعمة الله عليكم** ﴾.

وعلى الرغم من أن المخاطبين بهذه الآية الذين نودى عليهم هم الصحابة رضوان الله عليهم الذين شملتهم هذه النعم فكان منها صرف الأحزاب عنهم بالريح والجنود، إلا أن كل مؤمن حسن الإيمان يمكن أن تشمله نعمة أو نعم من الله تصرف عنه الشر والسوء في الدنيا، والآخرة.

ب – وأن نعم الله تعالى قد تكون منظورة يراها الإنسان، وقد تكون غير منظورة يحسّ الإنسان أثرها، وتأتيه من حيث لا يتوقع كالريح التى سخرها الله على الأحزاب فاقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم وأصابت عيونهم وملأت قلوبهم رعبا فانسحبوا من المعركة منهزمين.

جـ – وأن المؤمنين لابد لهم أن يأخذوا بالأسباب على الرغم من أن الله تعالي قد يمدهم بنعمه، وأنه سبحانه يثنى ويكافئ كل من أخذ بالأسباب، ﴿ **وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ فقد كان أخذهم بالأسباب هو عملهم في حفر الخندق، وبذلوا فيه من الجهود ما علمه الله تعالي وكافأعليه في الدنيا بالنصر، فضلا عما يدخره لهم في الآخرة من عظيم الأجر.

ء – وأن أعداء الله وأعداء الحق مهما تحالفوا، وغالئوا على المسلمين وجاءوهم مهاجمين من كل مكان من فوقهم ومن أسفل، ومهما خاف المسلمون من هذه التحزبات وخيِّل إليهم أنهم أعجز من أن يواجهوا أعداءهم، ومهما زلزلوا من الخوف، فإن

الله تعالى لا يتخلى عنهم ما داموا مؤمنين حسنى الظن بالله، آخذين بكل سبب يستطيعونه، فقد وعد الله تعالى بنصر المؤمنين، ووعده الحق. فى قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)** ﴾ [الروم: ٤٧].

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا** ﴾ ما يلى:

أ – أن صف المؤمنين قد لا يخلو من منافقين يظهرون الولاء، ويخفون العداء، وآخرين من المرتابين المتشككين الذين لا يوقنون بوعد الله وتأييده ونصره للمؤمنين، وأن على المسلمين أن يكونوا من هؤلاء وأولئك على حذر.

ب – وأن المحنة وتكالب الأعداء على المؤمنين، وتباهى هؤلاء الأعداء بكثرتهم وقوتهم، مع قلة المؤمنين وضعفهم، كل ذلك مما يساعد على إظهار المنافقين والذين فى قلوبهم مرض، وعندئذ قد يقولون: ﴿ **ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا** ﴾.

وما ينبغى أن ينزعج من ذلك المؤمنون، ولا يجوز لهم أن يضيقوا بالمحنة، فإن من فوائدها أن تكشف عن هؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض، ولعل ذلك يؤيد المقولة التى يرددها المؤمنون عند كل محنة وهى: «مع كل محنة منحة من الله فترقبوها» فإن ذلك قد حدث كثيراً، وما يحتاج إلا إلى تدبر للاهتداء إلى المنحة في المحنة.

جـ – وأن فى كشف المحنة للمنافقين والذين فى قلوبهم مرض ما يُنقى صف المؤمنين من هؤلاء الذين لا يثقون في وعد الله ويرون فيه غرراً وغرورا، وفي هذا الكشف أبلغ درس يتلقاه المسلمون من المحنة، بل هو من أهم دروسها، ليزدادوا بذلك إيمانا.

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا...** ﴾ الآيات الكريمة إلى قوله تعالى: ﴿ **ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا** ﴾ ما يلى:

أ – أن المنافقين طوائف وأنواع، فمنهم من لا يثق بوعد الله – كما أوضحنا آنفا – ومنهم من يثبط المؤمنين عن الاستمرار فى العمل مع الصف المؤمن، فقد ثبطوا المؤمنين عن الاستمرار في عسكر الرسول ﷺ، وشجعوا من استطاعوا منهم على العودة إلى منازلهم.

ب - وأن بعض المنافقين يختلقون التعلات والأعذار ليستأذنوا في الذهاب عن أرض المعركة بحجج كاذبة كحماية نسائهم وذراريهم، وزعمهم أن بيوتهم عورة، والحق أنهم بهذا يفرون من أرض المعركة.

جـ - وأن من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض مَن إذا سئلوا الفتنة عن الدين والعودة إلى الكفر أجابوا من دعاهم إلى ذلك، بل أجابوا مسرعين لأنهم يطوون قلوبهم على النفاق وما أقرب النفاق من الكفر!!!

ء - وأن هؤلاء المنافقين، لا وعد لهم ولا كلمة، فهم يعاهدون الله تعالي على ألا يفروا أو ينهزموا، فإذا مستهم الحرب بأدنى أضرارها خاسوا بعهودهم وولوا هاربين طمعا في النجاة من القتل.

وهيهات أن ينفعهم نكثهم بعهودهم فلن يعصمهم من الله أحد إذا كانوا من الهالكين أو الذين سوف يصيبهم نقص فى الأموال أو جدب أو مرض، إنهم لن يجدوا لهم من دون الله وليا ولا نصيرا.

وهذا هو شأن الجبناء دائما، فكيف إذا جمعوا إلى الجبن نفاقا، ومرضا في القلوب؟

٤ - ويتعلم المسلمون من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا...** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ **ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا** ﴾ ما يلى:

أ - أن الله تعالي لا تخفى عليه خافية، وأنه سبحانه بكل تأكيد يعلم ما تخفى الصدور.

وممن يعلم الله أحوالهم مهما حاولوا إخفاءها، أولئك المعوقين لركب الإيمان علي السير قدما في طريقه، والذين يصدون الناس عن الله وعن الحق الذى جاء به الخاتم محمد ﷺ، وهؤلاء جميعا منافقون يعلم الله تبارك وتعالي عنهم كل شيء، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبى بن سلول وصحبه، فقد كان من تعويقهم لموكب الإيمان أن ثبطوا بعضهم وبعض المؤمنين في غزوة الأحزاب عن الاستمرار في صف الرسول ﷺ.

ب - وأن هؤلاء المعوقين أو المثبطين جبناء لا يخوضون حربًا، وأعداء يحاولون صرف الناس عن النبي ﷺ، فقد كان دأبهم أن يقولوا لإخوانهم فى الكفر والنفاق: هلمَّ

إلينا، أى انحازوا إلينا فنحن في مأمن واتركوا محمدا وأصحابه لأعدائهم من الأحزاب فإنهم هالكون.

وكذلك فعلت يهود إذ ثبَّطَت المنافقين عن المضي مع محمد ﷺ وأصحابه.

جـ – وأن هؤلاء المعوقين والمثبطين واليهود ليس من شأنهم ولا فى طاقتهم أن يخوضوا حربا لجبنهم المتأصل في نفوسهم، وهم كذلك ليس فى طبعهم أن يدعموا حربا بأموالهم وعتادهم لبخلهم المتأصل فيهم، بل يحبون دائما أن يأخذوا ما ليس لهم بحق، فإن لم يحصلوا علي ما يريدون أسرعوا بإطلاق ألسنتهم بترديد الشائعات وإلصاق التهم بالمؤمنين.

هذه بعض صفاتهم التي كشفت عنها هذه الآيات الكريمة.

ء – وأن هؤلاء المعوقين والمثبطين واليهود لا ينبغى أن يخافهم المؤمنون مهما عملوا، وإنما يجب أن يحذروهم وألا يثقوا فيهم ولا في معسول كلامهم، وعلي المؤمنين أن يثقوا تماما فى أن الله تعالى لهؤلاء المعوقين بالمرصاد، فهم وقد جمعوا إلي الجبن البخل وبذاءة اللسان والطمع عند المغنم وكل تلك صفات لغير المؤمنين قد تكفل الله تعالي بإحباط أعمالهم لأنهم مع فقدهم الإيمان لا يقصدون بعمل من أعمالهم وجه الله، فلن يثابوا عليه ولن يتقبل منهم.

ومع كل ذلك الإحباط لأعمالهم، فإن الله تعالي يبطل كيدهم ويجعل تعويقهم وتثبيطهم كأن لم يكن، وكان ذلك الإحباط لأعمالهم والإبطال لكيدهم على الله تعالى يسيرا، فليطمئن المؤمنون إلي ذلك في كل عصر يوجد فيه معوقون ومثبطون.

هـ – وأن من الناس عموما جبناء يخافون من كل شيء ومن أى شيء، ويتصورون دائما أن الأعداء محيطين بهم، فهم في هلع يتمنون معه أن يكونوا أبعد ما يكونون عن الحرب والقتل والكيد، والمواجهة.

وهؤلاء يتجاهلون ما أوجب الله عليهم من الشجاعة والكرم والعفة والدفاع عن الدين وعن الحق، بل الدفاع عن الإنسانية كلها بمواجهة أعداء الحق والوقوف في وجه كيدهم وعدائهم.

و – وأن من الناس من يحبون أن يتسقطوا أخبار المؤمنين في معاركهم مع الكفار والمنافقين واليهود، يتسقطونها من بعيد إيثارا للسلامة، وهربا من تحمل الأعباء، كأنهم قد ضمنوا لأنفسهم بذلك السلامة أو لأموالهم وجهودهم الوفرة.

هؤلاء جبلوا علي الجبن والبخل وهما من الصفات التى علمنا رسول الله ﷺ أن نَتَعوَّذ بالله منهما، كما أنهم سلبيون يؤثرون الدعة والخمول، ليست لهم مطامح في نصر الحق وسير موكب الدعوة إلي غايته.

وكل تلك صفات يحركها النفاق، وقد كشفت عنها هذه الآيات الكريمة ليكون المؤمنون منها على حذر.

ز – وأن هؤلاء المنافقين قد بدا من صفاتهم في معركة الأحزاب ما يلي:

- أنهم لجبنهم يتصورون الأحزاب لم ينصرفوا على الرغم من أنصرافهم مهزومين مذعورين، فهم في خوف دائم، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا...».
- وأنهم عند مجئ الأحزاب كانوا يودون لو كان بعيداً في البادية حتى لا يواجهوا الأحزاب ﴿**وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب**﴾.
- وأنهم يحاولون دائما أن يتسمعوا الأخبار وهم فى مأمن من العدو فإن كانت الجولة للمسلمين زعموا أنهم كانوا معهم في الحرب، وإن كانت عليهم فرحوا بهلاك المؤمنين، كما وصفهم الله تعالي في قوله: ﴿**الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١)**﴾ [النساء: ١٤١].

وقد قالوا في غزوة الخندق: أما هلك محمد وأصحابه؟ أما غلب أبو سفيان وأحزابه؟

تلك من صفاتهم وهى أسوء الصفات، فليكن المسلمون منها علي حذر، وليكونوا منهم على حذر.

١ – يتعلم المسلمون الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود....** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ **وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ ما يلى:

أ – أن الدعاة إلى الله والعاملين من أجل هذا الدين معرضون دائما لأن يجيئهم الأعداء من حيث لا يحتسبون، ومن حيث يتوقعون، فتلك سنة الله تعالي فى الصراع بين الحق والباطل في كل العصور يفهم هذا من قوله تعالى: ﴿ **إذا جاءتكم جنود...** ﴾ حيث طالبهم بتذكر نعمة الله عليهم حين أرسل الريح والجنود علي جنود الأعداء إذ جاءوا للعدوان علي المؤمنين.

ب – وأن نعم الله على دعاته كثيرة، ومنها أن يعينهم علي هؤلاء الأعداء الذين تحزبوا ضدهم بما شاء من الأسباب الريح والجنود من الملائكة وغير ذلك من الأسباب المنظورة أو غير المنظورة، لأن تلك أيضا هى سنة الله تعالي في نصر المؤمنين عندما يدهمهم خطر، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)** ﴾ [**يونس**: ١٠٣]، ومن قوله تعالى: ﴿ **فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)** ﴾ [**الروم**: ٤٧].

جـ – وأن واجب الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن ينصروا الله باتباع أمره واجتناب ما نهى عنه لينصرهم الله ويثبت أقدامهم في كل معركة يخوضونها.

ونصر الله لعباده يحتاج منهم إلى إيمان وصبر واحتساب، وآيات القرآن الكريم الدالة على وعد الله للمؤمنين بالنصر كثيرة، نذكر منها ما يلى:

- قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)** ﴾ [**محمد**: ٧].
- وقوله تعالى: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)** ﴾ [**الحج**: ٤٠].
- وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١)** ﴾ [**غافر**: ٥١].

ء – وأن الدعاة إلى الله والعاملين من أجل الإسلام ومنهجه ونظامه عليهم أن يوقنوا

بمعية الله تعالي لهم ونصره وتأييده إياهم كلما ضاقت عليهم الأمور، أو تكاثر من حولهم الأعداء، عندئذ يجيء أمر الله بسبب مَّا فينجيهم مما يعانون، ويؤمنهم مما يخافون، ويصرف عنهم الأعداء بما شاء من ريح أو جنود، ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ** (٣١) ﴾ [المدثر: ٣١].

تلك سنة الله تعالي فى الدعاة إليه من أنبياء ومرسلين ودعاة صالحين، وآيات القرآن الكريم الدالة على ذلك كثيرة نذكر منها ما يلى:

- قال الله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** (٥٨) ﴾ [هود: ٥٨].
- وقال جل شأنه: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** (٦٦) ﴾ [هود: ٦٦].
- وقال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** (٩٤) ﴾ [هود: ٩٤].
- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** (١٨) ﴾ [فصلت: ١٨].

وليس على الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية عندما يتكاثر حولهم الأعداء، ويتحزبون ضد الحق الذى يدعو إليه الدعاة إلى الله، ليس عليهم إلا أن يستمروا على إيمانهم، وعلي ثقتهم فى أن الله تعالى سينصرهم على هؤلاء الأعداء اليوم أو غداً، لأن سنة الله تعالي لا تتخلف أبداً.

ولابد لى هنا من إشارة إلى ما أسميه: «دستور نصر الله لعباده المؤمنين» مستهديا فى ذلك بآيات القرآن الكريم، وببعض الأحاديث النبوية الشريفة، سائلا الله تعالي التوفيق والسداد.

من دعائم هذا الدستور وأسسه تلك الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى نورد منها ما يلى:

- قال الله تعالى: ﴿ **وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** (٧٦) **وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** (٧٧) ﴾

[الأنبياء: ٧٦، ٧٧].

● وقال جل وعلا: ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)** ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

● وقال سبحانه فى قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه: ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يانار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** ﴾.

– ومن الأحاديث النبوية الموضحة لأسس هذا الدستور الذى ينصر الله بمقتضاه المؤمنين الصابرين المحتسبين ما يلى:

● روى الطبرانى بسنده – في الأوسط – عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله استقبل بى الشام وَوَلّىَّ ظهرى اليمن، وقال لى: يا محمد. إنى جعلت ما تجاهك غنيمة ورزقا، وما خلف ظهرك مَدَدًا، ولا يزال الإسلام يزيد، وينقص الشرك وأهله حتى تسير المرأتان لا تخشيان إلا جورا، والذى نفسي بيده، لا تذهب الأيام والليالى حتي يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم».

● وروى أحمد بسنده عن أبي بن كعب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَشِّر هذه الأمة بالسناء، والرفعة، والدين، والنصر، والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة من نصيب».

ورواه مسلم وابن حبَّان والبيهقى.

● وروى البخارى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم...** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ قال: قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم...** ﴾.

قال العلماء في قوله تعالى: ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله** ﴾:

أعطاهم الله من الجزاء أربعة مَعَان:

النعمة: وهي الحالة الحسنة،

والفضل: وهو الزيادة، وكل عطية لا تلزم المعطى،

ولم يمسسهم سوء: أى لم يصبهم ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية، ومن الأحوال النفسية والبدنية.

ورضوان الله: أى الرضا الكثير وهو يشمل:

رضا العبد عن ربه أى لا يكره ما يجرى عليه من قضاء الله وقدره.

ورضا الله عن عبده بحيث يراه مؤتمرا بأمره منتهيا عما نهاه عنه.

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**إذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديد**﴾ يتعلمون ما يلى:

أ - أن أعداء الله وأعداء الحق قد يبلغون من الكثرة ما يجعلهم يحيطون بالمؤمنين من كل جانب، وقد يشنون عليهم حربا من أجهزة الإعلام والمتاجرين بأقلامهم الذين يبيعونها للحكام طمعا فى أعراض الدنيا من جاه ومنصب ومنافع، أو يتقون بها ظلم الظالمين وعسفهم وما يواجهون به معارضيهم من سجن وتعذيب قد يصل إلى حد الأبادة وعندئذ أى عند تكاثر الأعداء ونفاق أجهزة الإعلام ونشاط الآلة المصادرة للحقوق والحريات عند الظالمين من الحكام، عندئذ لا يجد المؤمنون ودعاة الحق أمامهم إلا الصبر والتحمل، وعندئذ قد تزيغ أبصار بعضهم وقد تبلغ قلوبهم الحناجر، وقد تكثر الظنون، حتى تصل ببعضهم إلي الظن ببطء النصر، وإن كان بعضهم يستفيد من هذا التضييق اليقين بالنصر والتأكد من كونه واقعا لا محالة.

وفي كل ذلك ابتلاء وقلق للمؤمنين، ومدٌ وإمهال للظالمين، حتى إذا أخذهم لم يفلت منهم أحدا، وتلك سنة الله تعالي فى الصراع بين الحق والباطل.

ب - وأن المحنة والبلاء لا يجوز أن تصرف المؤمنين عن موكبهم ولا الدعاة والحركيين عن عملهم وإصرارهم على المضىّ فيه، وإنما يحتسبون عند الله أجرهم ويؤدون

الذى عليهم مهما أحيط بهم.

● وللدعاة فى هذا الصبر والاحتساب أسوة فى رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، فقد بايعوا بيعة الرضوان تحت الشجرة - وهم قلة وما خرجوا الحرب ولا عملوا أسلحة الحرب، وإنما خرجوا معتمرين - ولكنهم بايعوا على الموت في سبيل الله فرضى الله عنهم وأرضاهم، كما يوضح ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** (١٨) ﴾ [**الفتح: ١٢**].

جـ - وأن الدعاة إلي الله والعاملين فى الحركة الإسلامية يجب أن تكون لهم معايير خاصة بهم، ينظرون من خلالها للناس والأحداث نظرة المؤمنين الذين يجيدون معرفة ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، غير منخدعين بمعايير الناس وقيمهم التى يؤثرون بها الدنيا على الآخرة، ومما يعزز فيهم هذه المعايير التدبر والتأمل في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** (١٠) **تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** (١١) **يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (١٢) **وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** (١٣) ﴾ [**الصف: ١٠ - ١٣**].

ء - وأن يوقن الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أنهم لن ينالوا عند الله تعالي الجزاء الحسن والعطاء الجزيل، ولن يحظوا بجنته إلا إذا تدبروا فى سير أسلافهم من الأنبياء والمرسلين والدعاة الذين مستهم البأساء والضراء، وصبروا واحتملوا فى سبيل الله ما احتملوا، حتى تَوَهَّم بعض الدعاة منهم أن نصر الله قد تأخر عليهم وأنهم قد بلغ بهم الأمر غايته، كما صورت ذلك الآية الكريمة: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** (٢١٤) ﴾ [**البقرة: ٢١٤**].

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تبارك وتعالى: ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا...** ﴾ الايات الكريمة إلى قوله تعالى:

﴿ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ ما يلى:

أ – أن بعض الذين في قلوبهم مرض أى شك وارتياب فى الدين، ولديهم إيثار لما عند الناس على ما عند الله، هؤلاء يشككون في وعد الله ورسوله للمؤمنين بالنصر والتمكين لهذا الدين، بل يتصورون أن وعد الله قد يتخلف!!!

● هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض من الدين ومن الحق هم طوائف من الناس قلما يخلو منهم مجتمع بشرى فى أى عصر من العصور، ولهم صفات يعرفون بها بين الناس، من أبرزها:

– أنهم يؤثرون الشهوات بل يميلون بها ميلا عظيما.

– ويكرهون أداء الواجبات والتكاليف، ويتحايلون على التخلص منها.

– ويرون في الدين قيودا وحواجز تحول بينهم وبين شهواتهم.

– ويفضلون دائما الباطل علي الحق.

● وهؤلاء الذين فى قلوبهم مرض أنواع:

– منهم الملحدون الذين لا يعرفون الله تعالي ولا يعترفون به، ويخبطون في الخلق والخالق بما لا يقبله العقلاء من الناس فضلا عمَّن تعصمهم الفطرة عن الخوض فى الضلال.

– ومنهم الماديون الذين يرون الإنسان مجموعة من الغرائز والرغبات الجسدية التى يجب أن تعبر عن حاجاتها تلك بأى أسلوب.

– ومنهم الذين يرون الدين رجعية وجمود وقيودا وغيبيات تحول بين الناس وبين الحرية في ممارسة ما يريدون بغض النظر عن أن يكون لائقا بالإنسان والإنسانية، إذ كثيراً ما تتعارض هذه الحريات فتؤدي إلى صراعات.

– ومنهم المخدوعون عن الحق بالباطل في مجالات الحياة الاجتماعية فى السياسة والاقتصاد والآداب الاجتماعية والقيم الخلقية والتعامل مع الناس والأحداث والأشياء.

– ومنهم الأشرار الحاقدون الذين لا يحبون أحد من الناس، بل لا يحبون أنفسهم عند التحقيق، إذ يرفضون الخير وفعله ولا يرون أحداً مستحقا له، وهؤلاء هم المعوقون عن الحق ومن الهداية، وهم بهذا جنود إبليس وأعوانه.

عند التأمل تجد هؤلاء كثرة فى المجتمع الذى يتحدى الدعاة إلي الله، ويمالئ الحاكم الظالم، ولهؤلاء وأمثالهم مع الأنبياء والمرسلين والدعاة مواقف وقصص مليئة بالتحدى

والظلم على مَرّ التاريخ.

● وعلى الرغم من تعدد أنواع هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض وكثرة أنواعهم، فإن على الدعاة ألا ييأسوا منهم أو من أن يهديهم الله تعالى، لأن أبرز ما في دستور الدعاة الذي تعلموه من القرآن الكريم هو الصبر والدأب والرجاء، وترك اليأس إطلاقًا، لأنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون.

● ومن أجل موقف الدعاة إلى الله من هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض ورجائهم الله فيهم، يتعجب بعض الناس من الدعاة ويتهمونهم بالخوف أو الجبن من هؤلاء الأشرار، وما علم هؤلاء المتعجبون أن الدعاة إلى الله رحمة وهدى للناس، وليسوا عقابا لهم ولا حربا عليهم، وللدعاة في موقفهم هذا أسوة حسنة بخاتم الأنبياء وإمام الدعاة محمد ﷺ، كما أوضحنا غير مرة في موقفه من هؤلاء المنافقين.

ب – وأن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض هم على وجه الحقيقة أعداء الله وأعداء الحق وأعداء الإيمان وأعداء الإسلام، وأعداء الإحسان، وأعداء المعروف وأعداء الخير وأعداء الاستقامة وذلك معناه أنهم أعداء الإنسان، أى أعداء أنفسهم قبل أن يكونوا أعداء لغيرهم.

● وما داموا كذلك فهم أعداء الدعاة إلى الله وأعداء العاملين من أجل أن يمكّن دينُ الله فى الناس وفي الأرض.

● ونقل هؤلاء الذين في قلوبهم مرض من العداء لله والحق، إلي موالاة الله والحق هي مهمة الدعاة إلى الله في كل عصر وفي كل مكان.

جـ – وأن هؤلاء المنافقين لهم أوصاف معروفة – ذكرنا بعضها آنفا – ولكن الآية الكريمة أبرزت من هذه الصفات صفة التخذيل والتعويق عن مضي المؤمنين فى موكب الدعوة، فهم يزينون الصوارف عن الدعوة إلي الله، ويبررون الانصراف عن الدعوة بأمور بعضها يخدع قصار النظر من الناس، ومن هذه الأمور ما نذكر بعضه فيما يلى:

– إظهار الاشفاق على الدعاة من الجهد الذي يبذلون والمال الذى ينفقون والوقت الذى يعطون للدعوة والمدعويين!!!.

وتخويف الدعاة من بطش الظالمين وتحدى الحكام وأتباعهم، وتعريضهم الدعاة لكثير من أسباب المحنة والفتنة والسجن والتعذيب ومصادرة الأموال والأملاك، فضلا عن مصادرة الحقوق والحريات!!!

– وتيئيس المؤمنين من نصر الله تعالي لهم، بل تهوين شأن النصر، ومحاولة التأكيد على أن قوة الأعداء لا تقهر، وأنها قوة متحصنة بنظام عالمى يعادى الإسلام من أعماقه، ويؤكد في كل يوم انحيازه إلي أعداء المسلمين في مختلف بقاع الأرض: في فلسطين، وفى إيران، وفى السودان، وفي المغرب العربى، وفى ألبانيا، وفي البوسنة والهرسك، وفي الشيشان، وفي الجمهوريات المسلمة مما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي، وفي كشمير، وفي الفلبين وغيرهما من الأماكن.

– وترغيب الناس في عدم الثبات على الإسلام وعقيدته وذلك بأقوال وأعمال وأساليب معروفة مثل:

- تزيين النظريات والمبادئ المعادية للإسلام.
- والإغراء برفاهية العيش فى ظل هذه المبادئ المعادية.
- والمساندة لأى نظام معاد للإسلام، ومحاربة كل نظام يستمد مبادئه من الإسلام.
- وتدبير الثورات والانقلابات العسكرية لإرهاب المسلمين وعملهم على الأخذ بمبادئ معادية للإسلام.
- واتهام الإسلام والمسلمين بالجمود والرجعية ومعاداة التطور، والقسوة في تطبيق الحدود علي المجرمين المنحرفين عن المجتمع وقيمه ونظمه.
- وإغراء بعض الحكام بضرب الحركات الإسلامية، ومصادرة حقها في التعبير عن نفسها دون سائر التجمعات حزبية أو غير حزبية.
- وشن حملات التشويه علي كل ما هو إسلامي وإشاعة المفتريات والأباطيل عنه بوساطة الآلة الإعلامية الضخمة التى يملكها أعداء الإسلام في الغرب والشرق.
- وواجب الدعاة إلى الله نحو هؤلاء المنافقين أن يكونوا منهم ومن نفاقهم على حذر، وألا يستجيبوا لمعسول كلامهم، فكل منافق عليم اللسان، وبحسبه فى ذرابة لسانه أنه يخفي الشر ويظهر الخير، ويتلون كما تتلون الحرباء، ويعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ

منك كما يروغ الثعلب.

● وأصدق وصف وأدقه فى المنافقين هو ما جاء فى القرآن فى سورة كاملة سميت «المنافقون» وفي مجموعات من الأبحاث الكريمة فى سورة التوبة وغير من سور القرآن الكريم.

ومما جاء في وصفهم فى سورة المنافقين وتحذير المسلمين منهم قول الله تعالى فيهم: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)** ﴾ [المنافقون: ٤].

ء – وأن من الناس ناس يبحثون لأنفسهم عن أعذار يتهربون بها من أداء واجباتهم نحو دين الله ودعوته والحق الذى يجب أن يسود الناس، هؤلاء كانوا على عهد رسول الله ﷺ – وفي غزوة الخندق – يقولون: إن بيوتنا عورة وهم فى ذلك كاذبون إذ ما هى بعورة كما زعموا، وكما كشفتهم آيات السورة الكريمة.

● وأحفاد هؤلاء وأنسالهم، أو السائرون على دربهم اليوم – متهربين من واجبهم عن الدين والدعوة إلى الله – يقولون: بيوتنا عورة بلغة أخرى وصياغة مختلفة، فيقول قائلهم اليوم: المصالح الشخصية، زيادة الدخل بعمل إضافى، القدرة على مواجهة متطلبات الحياة، تأمين المستقبل للأولاد، تعليم الأولاد في مدارس خاصة... إلى غير ذلك من تَعِلات يبررون بها قعودهم عن المشاركة في واجب الدعوة والحركة، وهى نفس المقولات التى قالها الذين رفضوا أن يشاركوا رسول الله ﷺ فى حفر الخندق!!!

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة!

● وقد يعتكف أحدهم عن المشاركة فى العمل من أجل الإسلام خوف الظلم والبطش والتعذيب الذى قد يتعرض له على أيدى الطغاة، متناسيا قضاء الله وقدره، وأن ما أخطأ لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، إنها وسوسات الشياطين أعاذنا الله منها وأعاذ عباده وأولياءه.

هـ – وأن الخندق فى جوهره وحقيقته هو أخذ بالأسباب التى أوجب الإسلام الأخذ بها، وإن العمل فيه إعداد للعدو بما يناسبه وما يبطل كيده ويضيع هدفه.

● والمشاركة فى حفر الخندق طاعة لرسول الله ﷺ ومشاركة للمسلمين فى العمل علي دفع الخطر عنهم، وذلك ببذل الوقت والجهد والمال من أجل مواجهة عدو يحشد للمسلمين

ويؤلب عليهم، وهو نوع من التضحية بالراحة والمال والوقت من أجل صالح الإسلام والمسلمين.

- وفي كل عصر من عصور المسلمين إلى أن تقوم الساعة يحتاج المسلمون إلى بذل الجهد والوقت والمال والتضحية بالراحة، للإعداد لأعداء الله المتربصين بالإسلام والمسلمين.

- إن حفر الخندق يجب أن يكون فى مشاعر المسلمين رمزًا لوجوب البذل والتضحية فى سبيل الله تعالى ومن أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، بإبطال مكر الأعداء وردهم على أعقابهم مهزومين، ولن تكون الريح والجنود من الله تعالى إلا لجنوده المؤمنين المخلصين الذين أبصر الله تعالي ما يعملون من أجل دينه.

- ومن الحقائق التى يجب أن تفهم من الخندق وإعداده والاستعداد بكل ممكن لمواجهة أعداء الدين ما نسجل بعضه فيما يلي :

– أن العاملين في الإعداد والاستعداد مأمورون بذلك ولا يملكون انفكاكا من هذا الأمر.

– وأنهم مأجورون بإذن الله علي صغير ما بذلوا وكبيره، لأن علي الطاعة أجراً ومثوبة.

– وأن النصر قد يبطئ عليهم فيلقون هزيمة فى جولة أو جولتين أمام أعدائهم ولكنهم في نهاية الأمر منصورون بإذن الله تعالي وبرحمته لهم.

و – وأن من الناس من إذا عركتهم المحنة زين لهم الشيطان التراجع عن الحق الذى يدينون به ويدعون إليه، مفتونين عن دينهم ببطش الظالمين متجاهلين أمر الله، وما طالب من ثبات على الحق وتضحية من أجله.

- هؤلاء هم أشار إليهم قول الله تعالى : ﴿ **ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها، وما تلبثوا بها إلا يسيرا** ﴾.

- وهؤلاء يحتاجون من الدعاة إلى صبر طويل وصبر جميل ومحاولات عديدة لتثبيت إيمانهم، وزيادة يقينهم بأن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلي ربهم يتوكلون، لأن تلك وظيفة الدعاة إلى الله فى كل حين، وما ينبغى أن يمل الدعاة ذلك أو يفقدوا الأمل في هداية الناس.

ز – وأن من الناس من يتوهمون أن انسحابهم وفرارهم من معركة الحق مع الباطل، يكفل لهم السلامة ويجنبهم البذل والتضحية، وهم في ذلك جِدُّ واهمين، لأن

أحداً أو موقفا لا يمكن أن يُنَجِّي انسانا عن قدره، ﴿ **قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧)** ﴾ [**الأحزاب**: ١٦، ١٧] ولأن ما في يد الإنسان من حول أو طول إنما هو نعمة من الله يجب أن تشكر، وشكرها هو توجيهها إلي حيث أمر الله تعالى، ومن توهم أن المال أو الجاه يمكن أن يكون وليا له من دون الله فقد أخطأ، لأن الله تعالى يقول عن هؤلاء المتوهمين لذلك: ﴿ **ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً** ﴾.

● وعلى الدعاة إلي الله أن يصلحوا من شأن هؤلاء الناس حتى تستقيم عقولهم وتطمئن قلوبهم إلى ما أمر الله به، وما قدره عليهم وقضى به، إذ ما أسعد من بذل ماله أو جهده أو وقته أو روحه في سبيل الله تعالى، فقد اشترى الله ذلك من أصحابه بالجنة ووعد الله بذلك فى التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله؟ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)** ﴾ [**التوبة**: ١١١].

٤ – ويتعلم الدعاة إلي الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **قد يعلم الله المعوقين منكم، والقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا...** ﴾ الآيات الكريمة إلي قوله تعالي: ﴿ ...**ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا** ﴾ ما يلى:

أ – أن المعوقين لغيرهم الذين يصدون الناس عن اتباع الحق، أو عن المُضيّ في طريقه موجودون فى كل زمان، وأن من هؤلاء المعوقين وعلى رأسهم دائما اليهود، فهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأن لهؤلاء المعوقين صفات يجب أن يعرفها الدعاة ويتنبهوا لأصحابها، من هذه الصفات ما يلى:

– أنهم مثبطون لسواهم عن أداء الواجب.

– وأنهم لا يشاركون فى الحرب إلا مشاركة قليلة،

– وأنهم جبناء عند الشدة كالذى يغشى عليه من الخوف،

– وأنهم بخلاء بالمال والجهد، جبناء يودون لو كانوا بعيدين عن الأعداء ما وسعهم،

– وأنهم يتسقطون أخبار المسلمين من بعد فإن كانت الدائرة لهم تعاطفوا مع المسلمين وإن كانت عليهم أطلقوا فيهم ألسنتهم الحداد.

ب – وأن هؤلاء المعوقين أعداء حقيقيون وإن حاولوا الظهور في غير تلك الصورة، وأنهم يتمنون الشر للإسلام والمسلمين، أنهم من أجل ذلك قد أحبط الله أعمالهم.

جـ – وأن علي الدعاة أن يتعاملوا مع هؤلاء المعوقين المثبطين في ظل هذه الحقائق التي تتصل بهم، وأن يحاولوا ما وسعهم أن يخرجوهم من دائرة العداء للإسلام والمسلمين إلي دائرة الحياد، فإن استطاعوا أن ينقلوهم إلي دائرة الولاء لله ولرسوله ﷺ فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من الدعاة.

ء – وليطمئن الدعاة إلي الله إلي حقيقة أكدها القرآن الكريم، وهي أن المعوقين المثبطين من الكفار واليهود ومن إليهم سيحبط الله تعالى أعمالهم اليوم أو غداً، ولن يدعهم يسيئون للإسلام والمسلمين إلا إلي وقت يختاره سبحانه، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾.

٥ - الآيات من الحادية والعشرين إلى السابعة والعشرين

بيان موقف المؤمنين من الأحزاب ، وحديث عن بني قريظة

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧) ﴾ [الأحزاب : ٢١ - ٢٧] .

● تتحدث هذه الآيات الكريمة عن وجوب الأُسوَة برسول الله ﷺ في أخلاقه وأعماله كلها، ومنها:

- صبره ومصابرته: في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، صبره الجميل في الحياة وفي الدين وفي التعامل مع الناس والأحداث.

- ومرابطته: للنفس والبدن في سبيل الله تعالى أي الزامهما أمر الله ونهيه في كل حال، وذلك هو المعنى الواسع للمرابطة، ويدخل فيها كل معنى من معاني الرباط ابتداء من انتظار الصلاة بعد الصلاة ومرورا بالمرابطة الجهادية في ثغور المسلمين وحدود بلادهم.

- ورحمته ورأفته بالمؤمنين.

- وعفته وشجاعته وكرمه،

- وثقته في الله وفي تأييده ونصره.

إلى غير ذلك من الصفات التي سنوضحها في هذه السورة الكريمة،

● وتصف هذه الآيات الكريمة المؤمنين بصدق ما عاهدوا الله عليه من ميثاق، حتى قضي

بعضهم نحبه في سبيل الله، وبقى بعضهم ينتظر أن يموت في سبيل الله تعالى.

● وتخبر الآيات الكريمة عن الأحزاب الذين هزمهم الله تعالى بالريح والجنود، وكف المؤمنين قتالهم.

● وتخبر الآيات الكريمة عن مصير بني قريظة الذين خانوا وغدروا فكان جزاؤهم القتل، وقد امتن الله على المؤمنين بأن نصره عليهم، بعد أن شاركوا في تأليب الأعداء وحشدهم ضد المسلمين.

● وقد اشتملت الآيات على عدد من الأخبار، وعلى شرط وجزاء، وأكدت عددا من الحقائق الكبرى في صفات الله تعالى وأفعاله، مما سنوضحه بإذن الله تعالى ونحن نلقى الضوء علي تفسير هذه الآيات الكريمة.

– ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾.

الأُسوة: اسم لما يقتدي به، ويُعمَل مثله.

«وكان»: تعني وجد أي كان وما يزال لكم في رسول الله هذه الأسوة.

وأسوة المسلمين بالنبي ﷺ تعني: اتباعه في أعماله التي لم يطالب بها الأمة على وجه التشريع، أي في الثبات في الحرب، والصبر على متاعبها، ومقاساة الشدائد عموما.

وهذه الآية الكريمة عامّة وإن كانت نزلت في سبب خاص جَريًا على القاعدة الأصولية التي تقول: العبرة في آيات القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومثل هذه الآية في عموم ما تدل عليه قوله تعالي: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧]. وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

– ﴿ **لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾ أي من يرجو ثواب الله تعالي ويخاف عقابه.

– ﴿ **وذكر الله كثيرا** ﴾ أي ذكر الله في جميع أحواله، حيث لا تتم الأسوة برسول الله ﷺ إلا بذلك.

– ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله** ﴾.

الذى وعدهم الله به هو: ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)**﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقد نزلت هذه الآية من سورة البقرة قبل وقعة الأحزاب بعام، كما روى ذلك عدد من العلماء عن ابن عباس رضى الله عنهما.

والمعنى أنهم قابلوا هذه الشدة وهى تجمُّع الأحزاب ضدهم، وغدر اليهود بهم، قابلوا ذلك بالصبر والعمل الشاق في حفر الخندق، والثبات على الإيمان، والاطمئنان إلى صدق ما وعد الله به.

وروى ابن كثير عن عبد الله بن عمرو المزنى عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ عام ذُكرت الأحزاب فقال: «أخبرنى جبريل عليه السلام أنّ أمتى ظاهرة عليها - يعنى قصور الحيرة ومدائن كسرى - فأبشروا بالنصر» فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله، موعد صادق، إذ وعدنا بالنصر بعد الحصر، فطلعت الأحزاب، فقال المؤمنون ﴿**هذا ما وعدنا الله ورسوله**﴾ ذكر ذلك الماوردى.

- ﴿**وما زادهم إلا إيمانا وتسليما**﴾ أى ما زادهم ما رأوه من حصر الأحزاب لهم، إلا إيمانا بالله وتسليما لأمره.

قال القرطبى: «لما اشتد الأمر على المسلمين، وطال المقام في الخندق قام عليه الصلاة والسلام على التل الذى عليه مسجد الفتح في بعض الليالى، وتوقع ما وعده الله من النصر، وقال: «من يذهب فيأتينا بخبرهم وله الجنة»؟ فلم يجبه أحد، فنظر إلى جانبه وقال: «من هذا»؟فقال: حذيفة.

قال ألم تسمع كلامى منذ الليلة «قال حذيفة: فقلت يا رسول الله منعنى أن أجيبك الضُّر والقُرّ، قال: «انطلق حتى تدخل في القوم فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلىّ، انطلق ولا تحدث شيئاً حتى تأتينى».

فانطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول الله ﷺ يده يقول: «يا نصير المكروبين، ويا مجيب المضطرين اكشف همّى وغمّى وكربى، فقد ترى حالى وحال أصحابى».

فنزل جبريل وقال: إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك «فخر رسول الله ﷺ على

ركبتيه، وبسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول: «شكرا شكرا كما رحمتني ورحمت أصحابى» وأخبره جبريل أن الله تعالي مرسل عليهم ريحا، فبشر أصحابك بذلك.

قال حذيفة: فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء، فما تركت لهم ناراً إلا أطفأتها ولا بناء إلا طرحته، وجعلوا يتترسون من الحصباء.

وقام أبو سفيان إلى راحلته، وصاح في قريش: النجاء النجاء!!! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس، وتفرقت الأحزاب، وأصبح رسول الله ﷺ فعاد إلى المدينة، وبه من الشعث ما شاء الله، فجاءته فاطمة رضى الله عنها بغسول فكانت تغسل رأسه، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: وَضَعتَ السلاح ولم تضعه أهل السماء، مازلت أتبعهم حتي جاوزت بهم الروحاء، ثم قال: انهض إلى بنى قريظة.

وقال أبو سفيان: مازلت أسمع قعقعة السلاح حتى جاوزت الروحاء»(١).

– ﴿ **وما زادهم إلا إيمانا وتسليما** ﴾.

أى ما زادتهم الشدة وحصار الأعداء لهم إلا قوة إيمان بالله وحسن تسليم بقضائه.

– ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾.

والمعنى: أن من هؤلاء المؤمنين رجال عاهدوا الله علي الثبات فى القتال مع الرسول، فصدقوا فى عهدهم ووفوا فمنهم من نال شرف الاستشهاد فى سبيل الله، ومنهم من بقى حيا ينتظر أن ينال هذا الشرف. وما بدلوا شيئا من العهد الذى عاهدوا الله عليه ولا غيروا فيه.

● وبين العلماء خلاف في الوقت الذى نزلت فيه هذه الآية:

– فقدقال بعض العلماء:

إنها نزلت بعد غزوة أحد – أى قبل غزوة الأحزاب – ومن هؤلاء:

الإمام البخاري والإمام مسلم والترمذى.

فقد رووا بأسانيدهم عن أنس رضى الله عنه – واللفظ الذى نذكره الآن للترمذى – قال: سمعتُ عمى أنس بن النضر – سُمِّيتُ به – ولم يشهد بدرا مع رسول الله ﷺ، فكبُر عليه

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/١٥٧ ط دار الكتاب العربى القاهرة: ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م.

فقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه، أما والله لئن أراني الله مشهد مع رسول الله ﷺ فيما بعد، ليرين الله ما أصنع، قال : فهاب أن يقول غيرها .

فشهدمع رسول الله ﷺ يوم أحد من العام القابل، فاستقبله سعد بن مالك فقال : يا أبا عمرو إلي أين؟

قال : واهاً لريح الجنة، أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوُجد في جسده بضع وثمانون، ما بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت عمتي الربِّيع بنت النضر، فما عرفت أخي إلا ببنانه .

ونزلت هذه الآية : ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ .

– ومعنى ذلك أن وضع هذه الآية الكريمة في مكانها هذا من سورة الأحزاب إنما كان بتوقيف من رسول الله ﷺ .

– ومن العلماء من يرى أن هذه الآية نزلت بعد غزوة الأحزاب وأن الثناء فيها على الذين ثبتوا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فشاركوا فى العمل فى الخندق، وتحملوا المشقة والخوف بل الزلزلة .

– وأيًّا ما كان وقت نزول هذه الآية الكريمة فإن معناها ومضمونها لا يتأثر بوقت نزولها، فهي تعنى الثناء على جميع المؤمنين المخلصين والإشادة بثباتهم، وثقتهم بالله تعالى بل يقينهم بنصر الله وصدق ما وعد، مما جعلهم يستعدون للقاء عدو يفوقهم عدَداً وعُدداً، وعزمهم على بذل أنفسهم فى سبيل الله تعالى .

- ووصف المؤمنين بكلمة « رجال » زيادة فى الثناء عليهم، لأن كلمة « الرَّجُل » مشتقةمن الرِّجل وهي قوة اعتماد الإنسان .
- وقضى نحبه : أى مات فى سبيل الله، والنحب النذروما يلتزم به الإنسان من عهد، وكانوا قد عاهدوا الله على الموت فى سبيله .
- ﴿ **وما بدلوا تبديلا** ﴾ أى أنهم ثبتوا، وهذا تعريض بالمنافقين فهم لم يثبتوا على الرغم من أنهم عاهدوا الله لا يولون الأدبار، عندما ظنوا أن الغلبة قد تكون للمشركين .

وذلك شأن المنافقين دائما في كل زمان ومكان، ولأجل ذلك عرضت بهم الآية وهى تثنى

على من صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

- ﴿ **ليجزي الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما** ﴾.

والمعنى: أن الله تعالي قد أمر بالجهاد والبذل والتضحية فى سبيله ليجزى الصادقين يوم القيامة بصدقهم في جهادهم وبذلهم وتضحيتهم.

وشرع ذلك الجهاد والبذل والتضحية، ليعذب المنافقين عندما يمتنعون عن الجهاد والبذل والتضحية في سبيل الله، يعذبهم في الآخرة إن شاء، أي لا يوفقون إلي التوبة.

وإن شاء سبحانه وتعالى لم يعذبهم فيتوبون فيتوب الله عليهم قبل أن يموتوا.

● أى أن المؤمنين صدقوا عهدهم مع الله، بينما بدّل المنافقون ما عاهدوا الله عليه، فجزى الله المؤمنين خيرا عن صدقهم، وجزى المنافقين عذابا بما بدلوا وغيروا.

- ﴿ **إن الله كان غفورا رحيما** ﴾

وهذا تعليل للجزاء والتعذيب كليهما، أى أنه سبحانه غفور للمذنب إذا أناب إليه، رحيم بالمحسن يجازيه على قدرنصبه وتعبه.

وكلمة «كان» في قوله تعالى: ﴿ **كان الله غفورا رحيما** ﴾ بمعنى كان وما يزال وسوف يظل، وكان إذا استعملت مع لفظ الجلالة تفيد الأزلية والاستمرار، كما يرى ذلك العلماء.

- ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا** ﴾.

● الذين كفروا الذين رُدُّوا بغيظهم لم ينالوا ما أرادوا هم:

أبو سفيان بن حرب وأهل مكة وأحابيشها.

وعيينة بن حصن وأهل نجد وغطفان.

وبنو قريظة وحيبى بن أخطب وهم من يهود.

- ﴿ **بغيظهم** ﴾ لأن قلوبهم كانت ممتلئة غيظاً من الإسلام والمسلمين.

- ﴿ **ولم ينالوا خيرا** ﴾ أى نصراً أو غنيمة.

– ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ أى جنب المؤمنين مشقة قتال الأحزاب بما سلط عليهم من ريح وجنود، وبما هدى الله إليه نعيم بن مسعود رضي الله عنه إلى الإسلام دون أن يشعر به قومه فاستطاع النصح للمسلمين، والكيد للكافرين – على نحو ما أوضحنا ونحن نذكر قصة الأحزاب – فكان ذلك من أسباب تخاذلهم وعزمهم على الرحيل بعد أن عاينوا أثر الريح والجنود.

– ﴿ **وكان الله قويا عزيزا** ﴾

أى قويا على تنفيذ ما يريد، يتخذ له من الأسباب ما يعرفه الناس ويحسونه، وما لم يعرفوه، وما لا يحسون به.

وعزيز لا يغلبه غالب مهما كان.

– ﴿ **وأنزل الذين ظاهروهم من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا** ﴾.

﴿ **الذين ظاهروهم** ﴾ أى الذين عاونوا الأحزاب من أهل الكتاب وهم يهود بنى قريظة ومن انضم إليهم من يهود بنى النضير كحيبى بن أخطب وغيره.

– ﴿ **من صياصيهم** ﴾ أى قلاعهم وحصونهم، حيث أنزلهم الله تعالى منها منهزمين نازلين على حكم رسول الله ﷺ فيهم.

– ﴿ **وقذف فى قلوبهم الرعب** ﴾ فلم يفكروا فى المقاومة أو الحرب وإنما استسلموا، وهزموا.

– ﴿ **فريقا تقتلون** ﴾ وهم الرجال والقادرون على الحرب.

– ﴿ **وتأسرون فريقا** ﴾ وهم النساء والذرارى.

– ﴿ **وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم، وأرضا لم تطأوها، وكان الله على كل شيء قديرا** ﴾.

﴿ **أورثكم أرضهم وديارهم** ﴾ أى أجليتموهم عنها وفتحها الله عليكم وصارت لكم.

﴿ **وأموالهم** ﴾ كلها حيث لم يحرزوا من أموالهم شيئا وإنما كانت للمسلمين.

﴿ **وأرضا لم تطأوها** ﴾ أى لم تطأها أقدامكم من قبل، وهى كل أرض تفتح على المسلمين إلى يوم القيامة.

ومن العلماء من قال: إنها أرض حُنَين.

ومنهم من قال: إنها مكة،

ومنهم من قال: إنها خيبر.

ومنهم من قال: إنها فارس والروم.

والأصوب أنها عامة في كل أرض.

﴿وكان الله علي كل شيء قديرا﴾ أى قديرا على تنفيذ ما أراد بعباده من نعمة أو نقمة، ومن نصر أو هزيمة.

وهذه الآية الكريمة فى بنى قريظة:

وقد كان من خبرهم:

«أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ في صورة دحية بن خليفة الكلبى على بغلة عليها قطيفة ديباج فقال له: يا محمد: إن كنتم وضعتم سلاحكم فما وضعت الملائكة سلاحها، إن الله يأمرك أن تخرج إلى بنى قريظة، وإنى متقدم منهم فمزلزل بهم حصونهم.

فأمر رسول الله ﷺ مناديًا، فنادي: ألا لا يُصلينّ أحد العصر إلا فى بنى قريظة.

فتخوف ناسٌ فوت الوقت فصلوا دون بنى قريظة،

وقال آخرون لا نصلي العصر إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت.

قال: فما عنف واحد من الفريقين.

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة أعطى الراية على بن أبى طالب رضى الله عنه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم.

ونهض عليّ وطائفة معه حتي أتوا بنى قريظة، ونازلوهم، فسمعوا سَبًّ للرسول ﷺ، فانصرف على رضي الله عنه إلي رسول الله ﷺ، فقال: يارسول الله، لا تبلغ إليهم، وعرّض له، فقال له: أظنك سمعت منهم شتمى، لو رأونى لكفوا عن ذلك.

ونهض رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه أمسكوا فقال لهم: «نقضتم العهد يا إخوة القرود أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته».

فقالوا: ما كنت جاهلا يا محمد فلا تجهل علينا.

ونزل رسول الله ﷺ فحاصرهم عشرين ليلة.

- وعرض عليهم سيدهم كعب بن أسعد القرظى ثلاث خصال، ليختاروا أيها شاءوا:

وإمَّا أن يسلموا ويتبعوا محمدا على ما جاء به فيسلموا، قال: وتحرزون أموالكم ونساءكم وأبناءكم، فوالله إنكم لتعلمون أنه الذى تجدونه مكتوبا فى كتابكم.

- وإمَّا أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يتقدموا فيقاتلون حتى يموتوا عن آخرهم.
- وإمّا أن يبيتوا المسلمين ليلة السبت في حين طمأنيتهم فيقتلوهم قتلا.

فقالوا له:

- أمّا الإسلام فلا نسلم ولا نخالف حكم التوراة.

- وأما قتل أبنائنا ونسائنا فما جزاؤهم المساكين منا أن نقتلهم.

- ونحن لا نتعدّى في السبت.

ثم بعثوا إلى أبى لبابة الأنصارى - وكانت قريظة حلفاء عمرو بن عوف وسائر الأوس، فأتاهم فجمعوا له أبناءهم ونساءهم ورجالهم، وقالوا له: يا أبا لبابة: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ فقال: نعم - وأشار بيده إلى حلقه - إنه الذبح إن فعلتم، ثم ندم أبو لبابة فى الحين، وعلم أنه خان الله ورسوله، وأنه أتى أمراً لا يستره الله على نبيه ﷺ(١).

- فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس إلى رسول الله ﷺ، فقالوا:

يا رسول الله: قد علمت أنهم حلفاؤنا، وقد أسعفت عبد الله بن أُبى بن سلول فى بنى النضير حُلفاء الخزرج، فلا يكن حظنا أوكس وأنقص عندك من حظ غيرنا، فهم موالينا.

فقال لهم رسول الله ﷺ :

«يا معشر الأوس، ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟

---

(١) وكان من خبر أبى لبابة بعد ذلك أن انطلق إلى المدينة ولم يرجع إلى النبى ﷺ، فربط نفسه فى سارية بالمسجد، وأقسم ألا يبرح حتى يتوب الله عليه، فكانت امرأته تحله لوقت كل صلاة، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ قال: «أما إنه لو أتانى لاستغفرت له، وأما إذ فعل ما فعل فلا أطلقه حتى يطلقه الله تعالى، فأنزل الله تعالى في أمر أبى لبابة: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ [التوبة : ١٢]. فلما نزل فيه القرآن أمر رسول الله ﷺ بإطلاقه.

قالوا : بلى .

قال : فذلك إلى سعد بن معاذ – وكان رسول الله ﷺ قد ضرب له خيمة فى المسجد ليعوده من قريب فى مرضه من جرحه الذى أصابه فى الخندق .

فحكم فيهم سعد رضى الله عنه بأن تقتل المقاتلة، وتسبى الذرية والنساء، وتقسم أموالهم .

فقال رسول الله ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة – أى سماوات– .

وهكذا انتهي أمر بنى قريظة، وكان فتح ديارهم فى آخر ذى القعدة وأول ذى الحجة من السنة الخامسة من الهجرة .

● وفى قصة بنى قريظة وبنى النضير وغيرهم من يهود، ما يؤكد لنا أنهم أهل غدر وخيانة، وأنهم أشد الناس كراهية للإسلام والمسلمين . وأنهم يضمرون الشر لنا اليوم وغداً وفي كل حين، ولعل ذلك يجعل الذين يهرولون فى القرب من اليهود واستقبال رؤسائهم والتودد إليهم وإلى حاميتهم وراعيتهم أمريكا، لعل ذلك يجعلهم يفيقون على الحقائق التاريخية لليهود .

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

١ – يتعلم المسلمون من قول الله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ أمورا كثيرة من أهمها ما نشير إليه فيما يلى :

أ – أن اتخاذ النبى ﷺ أسوة واجب شرعى يقتضيه الإيمان بالله واليوم الآخر، وأن ذلك هو الأوفق للإنسان، والأصلح له فى دينه ودنياه، وأنه بغير هذه الأسوة سوف يضيع فى زحمة الحياة، وسوف يضل عن غاية الحياة وهدفها .

ب – وأن الأسوة برسول الله ﷺ واجبة على جهة الفرض فى كل ما يتصل بأمور الدين من عقيدة وعبادة وخلق وتعامل مع الناس والأحداث .

ولكنّ هذه الأسوة به ﷺ فى الأمور الدنيوية مستحبة إذ هى من أسباب الكمال

البشرى الذى يستطيعه الإنسان، وتفصيل الواجب المفروض والمستحب المندوب يحتاج كل منهما إلى دليل من آيات الكتاب الكريم وأحاديث الرسول الكريم وسيرته.

جـ - وأن المؤمن إنما يكمل إيمانه إذا كان يرجو الله واليوم الآخر ومن الذاكرين الله كثيراً، وأن يتخذ رسول الله ﷺ أسوة له، فذلك هو الفلاح فى الدنيا والآخرة.

ء - وأن اتخاذ الرسول ﷺ أسوة يعني بالإضافة إلى ما أشرنا إليه آنفا، استحضار ذات الله تعالى وصفاته في قلب المؤمن وعقله، ليكون من وراء ذلك انضباط لجوارحه وسلوكه، وما يأتى من أمر وما يدع.

● كل ذلك يتعلمه المسلمون من هذه الآية الكريمة، لأنها توحى به وتشير إليه وتدل عليه.

٢ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، ومازادهم إلا إيمانا وتسليما** ﴾ ما يلى:

أ - أن وعد الله تعالى لا يتخلف أبداً، وقد وعدهم سبحانه وتعالى بإنهم سوف يصبرون على الشدائد، فيثيبهم أحسن الثواب، وتجمُّع الأحزاب ضدهم هو الشدائد، وقد صبروا عليها في حفر الخندق وفي تحمل ما تحملوا من متاعب، فأيقنوا عند رؤية الأحزاب أن ما وعدهم الله حقا، وتقبلوا هذا الموعود بقبول حسن دون ضيق بما سوف يبذلونه من جهد لمواجهة هؤلاء الأحزاب، بل زادهم ذلك إيمانا إلى إيمانا، وتسليما بما قضى الله به، وذلك شأن المؤمن في مواجهة أي شدة أو محنة.

ب - وأن وعد الله المؤمنين بأنهم سوف يُبتَلون بالأعداء هو من سنته سبحانه وتعالى التي قررها سبحانه فى آيات قرآنية كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿ **الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)** ﴾ [**العنكبوت**: ١ - ٣]. وقوله تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)** ﴾

[**آل عمران**: ١٤٢].

جـ – وأن رسول الله ﷺ تحدث عن فتن ومحن من أجل التمسك بالدين والدعوة إليه، وعد فيها بأن من يصبر على تلك المحن والفتن فإن له من ثواب الله وحسن جزائه ماله ، ومن هذه الأحاديث النبوية :

● ما رواه البخارى وأحمد وأبو داود والنسائى بأسانيدهم عن خبَّاب بن الأَرَتّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كان الرجل قبلكم يؤخذ فيحفر له فى الأرض، فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

● وما رواه ابن عدى فى الكامل بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى ينزل المعونة على قدر المؤونة، وينزل الصبر على قدر البلاء » .

● وما رواه أحمد والحاكم بسنديهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا » .

هذه وعود الله ورسوله للمؤمنين فلما رأوا الأحزاب علموا صدق هذه الوعود فصدقوا فى الجهاد وصبروا فزادهم ذلك إيمانا وتسليما، وكان النصر الذى وعدوا به .

د – وأن درسا عظيما قد أفاده المؤمنون من هذه الآية الكريمة، وهو أن إيمانهم بالله ورسوله قد زاد بطاعتهم لله ورسوله، وثقتهم فى صدق ما وعد الله ورسوله، ومن المعروف فى شريعة الإسلام أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى، ونقص الإيمان هنا هو زعزعة هذه الثقة وعدم اليقين بهذا الوعد .

هـ – وأن الثقة بوعد الله ورسوله يجب ألا تهتز ولا تتزعزع، حتى إذا كان الموقف الذى يحيط بالمؤمن يتضمن مشقة له أو عنتاً، كما هو الشأن فى تكالب الأحزاب على المؤمنين فى غزوة الخندق، لأن الحق الذى لا مرية فيه أن البلاء يجلو المؤمن، ويرفع قدره عند الله إذا صبر واحتسب، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** (٣١) ﴾ [محمد : ٣١]، وقد كان ذلك الجهاد والصبر من المؤمنين، فكان أن نصرهم الله تعالى على عدوهم وأرسل عليهم ريحا وجنودا، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا مما كانوا يطمعون فيه .

و – وأن من أدب المسلم مع ربه، ومع منهج الله تعالى الذى جاء به محمد ﷺ، أن يستسلم المؤمن لأمر الله ونهيه وأن يوقن من أنه تعالى له حكمة بالغة فى أن يصاب المؤمن بضر، لأن العبرة ليست بالضرر أو الخوف أو القلق، وإنما هى بمدى ما يعود على المؤمن من ذلك من خير إذا هو صبر واحتسب ما يلقى عند الله، وقال عندما تشتد عليه الأمور: حسبى الله ونعم الوكيل.

إن هذا الاستسلام لأمر الله وقضائه هو قمة الراحة النفسية والعقلية والاجتماعية للإنسان، لأن الله تعالى يريد للمؤمن الخير وإن ابتلاه بضر أو عدو، أو امتحنه فى نفسه أو أهله أو ماله، ولو أن المؤمن يعقد عزمه على اجتياز البلاء بالصبر والرضا فإنه عندئذ فى أكرم المنازل عند الله تعالى، ولقد كان أمر المؤمنين كذلك فى غزوة الأحزاب، فكان نصر الله، وكانت هزيمة الأحزاب.

٣ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾ ما يلى:

أ – أن صدق العهد مع الله تعالى هو الأصل الذى يقوم عليه الإيمان، وأن هذا الإيمان يترجم عنه العمل الصالح الموافق لمنهج الله تعالى، وأن هذا الصدق لابد من الاستمرار عليه مهما كانت التضحية من أجل الالتزام به والاستمرار فيه، فإن المحصلة النهائية لهذا وذاك فى صالح الإنسان مع خالقه سبحانه وتعالى.

ب – وأن العهد مع الله تعالى هو التعهد على الاستمرار فى قتال الأعداء والدفاع عن الحق والالتزام بما أمر الله تعالى به والانتهاء عما نهى عنه، وهذا العهد لا يكون إلا من المؤمنين إذ لا عهد لمن لا إيمان له.

جـ – وأن هؤلاء المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ووفوا بما ألزموا أنفسهم به صنفان:

- صنف ضحى بحياته فى سبيل صدق العهد والوفاء به.
- وصنف ينتظر أن يضحى بحياته اليوم أو غدا فى هذه السبيل. وكلا الصنفين ما بدلوا عهد الله الذى قطعوه على أنفسهم ولا غيروا منه شيئا، بل نال بعضهم شرف الاستشهاد فى سبيل الله وبقى بعضهم حيّا ينتظر أن ينال هذا الشرف.
- وأن هذين الصنفين أقوياء ثابتون جديرون بوصف «الرجال» إذ الرجولة قوة وثبات.

د – وأن تاريخ المسلمين ملئ بهؤلاء الرجال الأقوياء الثابتون على الحق المضحون فى سبيل الله، وكان للصحابة رضوان الله عليهم فى ذلك قصب السبق، فمنهم الذين قضوا فى ذلك نحبهم وهم الذين استشهدوا فى معركة أحد، ومنهم الذين واصلوا السير فى موكب الحق من بدر إلى أحد إلى الأحزاب إلى غير ذلك من المعارك.

وفى كل معركة يخوضونها ينتظرون أن ينالوا شرف الاستشهاد فى سبيل الله تعالى.

٤ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **ليجزى الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما** ﴾ ما يلى:

أ – أن ما يقضى به الله تعالى من قضاء يجرى على المسلم، إنما هو ابتلاء من الله تعالى له، لينظر سبحانه ماذا يفعل من ابتلى؟ أيصبر أم يجزع؟ وهل يرضى أم يسخط؟ ولكل ثوابه أو عقابه، وذلك أن الصبر والرضا طاعة، وأن الجزع والسخط معصية.

وعندئذ تظهر حكمة الله لمن أراد أن يتدبر فى هذا الابتلاء وهى: أن يجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم.

ب – وأن جزاء الله تعالى للصادقين وللمنافقين قانون إلهى لا يتخلف، وأن هذا القانون ينبغى أن يحمل الناس على الطاعة ويردهم عن المعصية.

وأن تطبيق هذا القانون على من ابتلوا بالخير أو بالشر، إنما هو فتنة لهم، والفتنة تختبر إيمان صاحبها وتبلو يقينه، وتلك حقيقة لا ينكرها عاقل أو متدبر فى صنع الله تعالى، وأن هذه الحقيقة أو ذلك القانون إنما لإقناع الناس بأنهم أثيبوا أو عوقبوا نتيجة لما قاموا به من عمل، ولما كان لهم من موقف إزاء الابتلاء.

جـ – وأن باب التوبة والرجوع عن الخطأ والإنابة إلى الله مفتوح، وأنه سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)** ﴾ [النساء: ٢٦ – ٢٨].

وإنما كان ذلك من الله لأنه سبحانه ﴿ **كان غفورا رحيما** ﴾ أى هاتان الصفتان: المغفرة والرحمة ذاتيتان له سبحانه وتعالى لا تفارقان ذاته أبدا، كما تفارق من اتصف بها من مخلوقاته سبحانه وتعالى.

ومعنى ذلك أن المخطئ لا ينبغى أن ييأس من رحمة الله تعالى وإنما يجد فى التوبة عن الذنب والندم عليه والإصرار على ألا يعود إليه، مجالا للوصول إلى مغفرة الله تعالى لذنبه وحصوله على رحمته سبحانه وتعالى.

٥ – ويتعلمون من قوله تبارك وتعالى: ﴿ **وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا** ﴾ ما يلى:

أ – أن من سنة الله تعالى الجارية فى أعداء دينه أعداء الحق والخير والهدى، أن يردهم على أعقابهم خاسرين فى نهاية المطاف أو فى آخر جولة الباطل على الحق، مهما تجرموا وتحزبوا وأخذوا من أسباب القوة ما أخذوا، وذلك كله بشرط واحد هو: أن يكون أنصار الحق مؤمنين صالحين متأهلين لأن يرد الله عنهم كيد أعدائهم آخذين من الأسباب بما يستطيعون.

- وفى هذه المعركة كان الأخذ بالأسباب من الجانبين:

– فقد كانت أسباب الكافرين التجميع للأحزاب وإعداد المال والسلاح، والتحالف مع يهود.

– وكانت أسباب المؤمنين هى حفر الخندق وبذل هذا المجهود فيه، والحذروالتوقى.

- ولما أخذ المؤمنون بالأسباب وكان إيمانهم على هذه الدرجة من الإخلاص جاءت إليهم معونة الله فى شكل ريح وجنود لم يروها، فكانت هزيمة الأحزاب ونصر الله للمؤمنين عليهم.

ب – وأن الله تعالى قد يكفى المؤمنين القتال كله، ومع ذلك ينصرهم على أعدائهم دون قتال –كما حدث فى حشود الأحزاب– وذلك معناه أن الله تعالى يحب أولياءه المدافعين عن دينه المتمسكين بالحق الذى أمروا أن يدعوا إليه.

وتلك سنة الله تعالى مع أوليائه فى كل زمان ومكان، فما لهؤلاء الأولياء أن يقلقوا أو ينزعجوا، وحسبهم أمنا واطمئنانا أن الله معهم.

جـ – وأن أعداء الله أعداء الحق مهما أخذوا بأسباب القوة وحشدوا من أنصار الباطل، فإن الله تعالى كان وما زال وسيظل كما قال عن نفسه ﴿ وكان الله قويًا عزيزا ﴾ لا تدانى قوته قوة ولا ينال من عزته مغالب.

والقوة والعزة كالمغفرة والرحمة صفتان وآيتان لله تعالى كما قلنا آنفا.

● وأحب أن أوضح أنه كلما وردت صفة من صفات الله تعالى ومعها لفظ « كان » فى القرآن الكريم، كان معنى ذلك أنها صفة ذاتية له سبحانه لا تفارقه أبدا، ومن أمثلة ذلك ما يلى:

قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ﴾ [النساء: ١١].

وقوله جل شانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) ﴾ [النساء: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) ﴾ [النساء: ٣٤].

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾ [النساء: ٥٨].

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) ﴾ [النساء: ٨٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) ﴾ [النساء: ١٣١].

وقد ورد ذلك التركيب اللفظى وكان الله .... فى القرآن الكريم أكثر من سبعين مرة منها ثمانيا وثلاثين فى سورة النساء وحدها.

٦ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧] ما يلى:

أ – أن الله تبارك وتعالى انتقم من يهود بنى قريظة الذين غدروا برسول الله ﷺ ونقضوا ما كان بينه وبينهم من عهود، وكان انتقام الله تعالى منهم شديدا، أخذ الصورة التالية:

● أنزلهم صاغرين من حصونهم وقلاعهم، فلم تغن عنهم شيئا ولم تحقق الأمان والطمأنينة التى يأملون.

● وألقى فى قلوبهم الرعب والخوف من المسلمين، وحسبك بذلك سببا فى الهزيمة.

● وأنه سبحانه مَكَّن المسلمين منهم، فقتلوا رجالهم، وسبوا نساءهم وذراريهم.

● وأنه سبحانه أورث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم.

ب – وأن الله تعالى ينعم على المؤمنين بميراث أرض لم تطأها أقدامهم من قبل، كما هيأ للمسلمين فتح الطائف، وغيرها من الأرضين، أنه سبحانه قد يورث المؤمنين فى كل حين أرضا لم تطأها أقدامهم تمكينا لدينه وإعزازاً لأوليائه.

جـ – وأنه سبحانه وتعالى يفعل هذا وأكثر منه فى عصر النبوة وفي كل عصر، لأن كل ذلك يسير عليه، إذ هو سبحانه وتعالى: «**كان علي كل شيء قديراً**» فهو صاحب القدرة المطلقة التى لاتحدها حدود، إذ هى من صفاته الذاتية التى لا تفارقه أبداً سبحانه وتعالى.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

١ – يتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**﴾ ما يلى:

أ – أن خير ما يعين الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن تكون لهم في رسول الله أسوة حسنة فيما يلى:

● في الدعـوة إلي الله، إذ هو إمـام الدعـاة ومـعلمـهـم وقـدوتهم وهو الذى وضع الأسس الصحيحة للدعوة إلى الله، في القول والعمل، والصمت، والترك، والتعامل مع المؤمنين والمنافقين والمترددين والضالين.

ولو سأل الداعية إلى الله تعالي نفسه في أى موقف يتعرض له في مجالات الدعوة والحركة قائلا في نفسه: ماذا كان يفعل الرسول ﷺ في مثل هذا الموقف؟

ثم احتذى واقتدى لكان له النجاح والفلاح، والأسوة الحسنة التى تجنبه الخطأ والتجاوز.

● وفي الاختلاط بالناس والحركة فيهم، وتقديم الخير لهم، وتحبيبهم في فعل الخير، وتعليمهم التعاون علي البر والتقوى، وتنفيرهم من التعاون علي الإثم والعدوان، فهو ﷺ أسوة فى ذلك كله، والاقتداء به في ذلك هو النجاح والفلاح.

٣ – وفي الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقد كان رسول الله ﷺ لا يرى إلا آمرا بمعروف أو ناهيا عن منكر، أو مفصلا لأنواع المعروف ومجالات عمله، أو منبها على أنواع المنكر وناهيا عن الوقوع فيها.

وسيرته ﷺ شاهدة على ذلك، وكلماته الشريفة مؤيدة له، استجابة لأمر الله تعالى إذ يقول: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)** ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ومن أحاديثه ﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يلى:

روى الترمذى بسنده عن حذيفة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

وروى أبو داود بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو علي حاله، فلايمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ** ﴾. إلى قوله: ﴿ **فَاسِقُونَ (٨١)** ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٨١] ثم قال: كلاً والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون على المنكر، ولتأخذن علي يد الظالم ولتأطرنه علي الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم».

● كان ﷺ قدوة في كل ذلك، بل في ما جاء به الإسلام من خير، وقد جاء الإسلام بكل خير.

والمؤمنون مطالبون بأن يأخذوا منه ﷺ الأسوة الحسنة فى كل أمرهم.

ب – وأن هذه الأسوة الحسنة بالرسول ﷺ لا تكون علي وجهها الصحيح إلا إذا كان الداعية إلي الله قد عزَّز هذه الأسوة بتوفر صفات بعينها في نفسه، وتلك الصفات هى كما دلت على ذلك الآية الكريمة:

• رجاؤه الله تعالى، بمعنى الطمع في ثوابه والخوف من عقابه وحياة العابد بين الرجاء والخوف هي أسلم حياة وأرضاها لله تعالى.

• ورجاؤه اليوم الآخر بمعنى الإيمان به وبما سوف يكون فيه، والحرص علي الحصول علي ما فيه من نعيم ورضا عن الله تعالى،والحرص علي تجنب ما فيه من عقاب وعذاب لمن خالفوا أمر الله تعالى.

• وذكره الله كثيراً، بمعنى دوام ذكره سبحانه وتعالى، وهذا الذكر أنواع نذكر منها ما يلي:

- ذكره الله تعالى بالقلب والفكر، وذلك هو التدبر والتأمل في ملكوت الله تعالى، وهذا من شأنه أن يوقظ القلب وينقّيه من الأغيار، ويحيي العقل ويشحذه ويصفيه من الشطحات.

- وذكره الله تعالي باللسان، أي أن يلهج اللسان بالحمد والتسبيح والتهليل، وهذا من أثقل ما يوضع في ميزان المؤمن من حسنات.

- وذكره الله تعالى بعمل الجوارح، بمعني إلزام الجوارح اتباع كل ما أمر الله به واجتناب كل ما نهى الله عنه، فهي بذلك جوارح ذاكرة مطيعة للخالق جل وعلا.

ومن لم يحمل جوارحه علي ذلك في الدنيا وسمح لها أن تنغمس في الشهوات وفيما حرم الله، شهدت هذه الجوارح ضده يوم القيامة، كما يفهم ذلك من قول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [فصلت: ١٩ - ٢٣]

• وواجب الدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية أن يتدبروا قول الله تعالى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .... ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال المفسرون المعنى: اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب.

وأقول: ويمكن أن يكون المعنى: اذكروني في نيَّاتكم وأقوالكم وأعمالكم، أذكركم في

العون والتوفيق في الدنيا والآخرة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. أي ذكر الله لعباده أكبر من ذكر العباد لله تعالى، وفي هذا حثّ على الإكثارمن ذكر الله تعالى.

● والذكر حضور الشيء في القلب، كما هو القول باللسان، فهو ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان.

● ولاينسى الإنسان ذكر الله إلا الشيطان، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** (١٩) ﴾ [المجادلة: ١٩].

● ولا ينبغي لأحد أو لشيء مهما كان غاليا أن يلهي عن ذكر الله، لأن من لَهى عن ذكر الله فقد أثم وقد خسر، وقد حذر الله تعالى عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** (٩) ﴾ [المنافقون: ٩].

● ولا يحتاج الدعاة والحركيون إلى شيء يعينهم على المضي في طريقهم كما يحتاجون إلى ذكر الله تعالى بالقلب واللسان.

٢ - ويتعلم الدعاة والعاملون من أجل الإسلام من قول الله تعالى: ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما** ﴾ ما يلي:

أ - أن حدثًا من الأحداث مهما كان خطره عندما يمر بحياة الداعية لا ينبغي أن يواجه الداعية بالاندهاش والاستغراب فضلا عن الضيق والتذمر، فضلا عن اليأس، بل الواجب أن يقابل ذلك بالثقة والاطمئنان إلى عون الله تعالى وتأييده.

● وقد كان حدث الأحزاب والخندق من أقسى الأحداث وأشقها على الصحابة رضوان الله عليهم، ومع ذلك حكى عنهم القرآن الكريم أنهم قالوا في مواجهة هذا الحدث: ﴿ **هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما** ﴾.

● وهكذا ينبغي أن يكون موقف الدعاة إلى الله من الأحداث التي يمرون بها مهما تكن شاقة ومكلفة من جهد ومال ووقت... ﴿ **هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله،**

وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ .

- وأن ما يلقه الدعاة والحركيون من عنت ومشقة وكيد وتحدٍّ يصل كثيرا إلى حد الموت بعد التشريد أو السجن والتعذيب، وأن مايعانيه الدعاة من أعداء الإسلام: اليهود والصليبيون والملحدون والنظام العالمي الجديد – الذى يعنى تحكم الولايات المتحدة الأمريكية فى العالم كله وفرض سيطرتها عليه – ما يعانيه الدعاة من كل هؤلاء الأعداء من شر وأذى وكيد وحرب، ومن يعاونون هذا النظام من حكام وأنظمة تستمد كيانها واستمرارها في الحكم من هذا النظام، كل ذلك ما ينبغي أن يفت في عضد الدعاة ولا يجوز أن يحولهم عن المضى في طريق الدعوة، فضلا عن أن يصرفهم عن العمل والجهاد، مؤثرين السلامة والعافية، وإنما يكون لهم في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فى الصبر والتحمل، وأن يتذكروا قول الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة: ٢١٤] . وقوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] .

جـ – وأن الثقة في نصر الله للمؤمنين أكيدة، يزيد من تأكيدها وعد الله المؤمنين بها وقوله تعالى: ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ .

- وكلما زاد إيمان المؤمن بالطاعات زاد يقينه فى الثقة بالله وكلما تفاقمت المحن والفتن، ما زادهم ذلك إلا إيمانا وتسليما بهذه الثقة بالله وهذا التسليم لكل ما تجرى به المقادير.

- وأن هذه الثقة فى الله تعالى هى التى تعين على المضى فى طريق الحق مهما امتلأت طريقه بالعقبات ومهما زادت فيه المشقات، وبغيرها تجد المتقاعسين؛ بل المتراجعين، بل الذين يتحولون عن الهدف مؤثرين السلامةوإن جعلتهم في صفوف الأعداء.

- هذه الثقة فى الله هى التفسير الصحيح فى مجالى الدعوة والحركة لقول الله تعالى على لسان المؤمنين: ﴿ وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ .

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ ما يلى:

أ – أن الذين عاهدوا الله عهدا ملزمون بالوفاء به مهما كلفهم هذا الوفاء، حتى لو

كانت التكلفة أنفسهم ذواتها.

● والدعاة إلي الله والعاملون في الحركة الإسلامية، قد عاهدوا الله تعالى بوصفهم مؤمنين آتاهم الله العلم وأورثهم الكتاب. عاهدوا الله تعالى أن يتخذو االدعوة إلى الله سبيلا، لأن هذه السبيل هى سبيل رسول الله ﷺ والذين اتبعوه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى على لسان رسول الله ﷺ: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)**﴾ [**يوسف**: ١٠٨].

● وأن هؤلاء الدعاة والحركيين في هذه السبيل ما بين رجلين: رجل قضى نحبه فى سبيل الله، ورجل ينتظر قضاء نحبه في سبيل الله.

وكلاهما يفعل ذلك ابتغاء مرضاه الله تعالى، وكل منهما سوف يحظى برضا الله تعالى إن شاء سبحانه.

ب – وعلي الدعاة إلى الله والحركيين أن يذكروا أنفسهم الوفاء بعهد الله تعالى، وأن يعلموا الناس وجوب الوفاء بعهد الله تعالى، وهذا العهد قديم عاهد الناس عليه الله أن يعبدوه سبحانه وحده لا شريك له وأن يعترفوا له بالربوبية، وأن يقيموا منهجه في حياتهم.

● أما المسلمون فقد عاهدوا الله تعالي على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما يجرى به القضاء، والالتزام تفصيلا بما أنزل على محمد ﷺ وهو الحق من ربهم.

● وأما الدعاة إلى الله والعاملون من أجل الإسلام فقد عاهدوا الله تعالى – بالإضافة إلى ما عاهده عليه المسلمون – على ما يلى:

– على العمل الجادّ المتواصل فى مجالي الدعوة والحركة حتى تكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

– وعلي الجهاد والتضحية ببذل المال والوقت والنفس فى سبيل نصر الحق وإعلاء منهج الله والتمكين له فى الأرض وفي الناس.

● وكل هؤلاء عليهم أن يصدقوا ما عاهدوا الله عليه، بالغة ما بلغت الأعباء والمشقات.

جـ – وأن الثبات على الحق هو الأصل الذى لا محيد عنه لكل مؤمن، ولكل من استحق وصف الرجولة التى امتدح الله تعالى أصحابها، وأن مقتضى هذه الرجولة، كما يفهم ذلك من الآية الكريمة: ﴿**من المؤمنين رجال....**﴾ الآ ية أمور:

الأول : أن يقضى هذا المؤمن نحبه في سبيل الله تعالى .

والثانى : أن ينتظر قضاء نحبه في سبيل الله لوفاته أن يستشهد فى سبيل الله .

والأخير : أن يثبت على الحق ولا يبدل شيئا منه، ولا أن يبدل نفسه ﴿ **ومنا بدلوا تبديلا** ﴾ .

● ومن لم يقض نحبه فى سبيل الله أو ينتظر قضاء نحبه مع الجهاد والتضحية، فليس من المؤمنين الذين نتحدث عنهم، وهو بكل تأكيد ليس من الرجال الأقوياء الثابتين.

٤ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى : ﴿ **ليجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، إن الله كان غفورا رحيما** ﴾ ما يلى :

أ - أن التكاليف التى كلف الله تعالى بها عباده، ومنها أو في ذروة سنامها الجهاد فى سبيل الله، إنما شرعها وكلف بها ليختبر بها عباده فى الطاعة والمعصية، فيعرف كل ما عمل، ثم يجزى سبحانه الصادقين بصدقهم أحسن الجزاء، ويعذب المنافقين - وهم عصاة - إن شاء أو يتوب عليهم.

● وتلك علة من عِلَلَ التكاليف الشرعية وأسبابها، والأمة الإسلامية بما أنزل الله تعالى عليها من شريعة هداها إلى الطريق الأقوم، وجعلها أمة عُدولا خيارا بهذه الشريعة، لتكون مقررة للحق بالنسبةلما سبقها من الشرائع، وليكون الرسول ﷺ مهيمنا عليها يسدد خطاها فى طريق الحق بما يسنه لها في حياته، وبمنهجه بعد وفاته.

● والعمل فى مجالى الدعوة والحركة جهاد، بل من أهم أنواع الجهاد وأعلاها رتبة، لما يتصدى له من قول كلمة الحق عند السلطان الجائر، ومن أجل هذا كان ثواب المجاهدين عظيما لأن الأجر على قدر المشقة، والجهاد أكثر الأعمال مشقة على النفس وحسبه أن فيه التضحية بالنفس، وأهل الجهاد هم أهل البلاء دون شك، وقد روى الترمذى بسنده عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يوم أهل العافيةيوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض » والجهاد والمجاهدة في اللغة هو استفراغ الجهد والوسع، وفي الشريعة استفراغ الجهد والوسع لمدافعة العدو الظاهر، ومجاهدة النفس والشيطان، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ** ﴾ [**الحج** : ٧٨] .

وروي أبو داود بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » وكل ذلك من البلاء والمشقة التى يفرضها المؤمن

على نفسه لأن الله تعالى أمر بها.

فمن أدَّى واجب العمل في مجالي الدعوة والحركة كان له عند الله أحسن الجزاء، ومن قصر أو تخلى كان لهما العقاب، لأن قانون الثواب والعقاب قانون إلهى عادل فيه من التربية للإنسان ما فيه.

- ومشيئة الله تبارك وتعالى فوق كل اعتبار، فهو سبحانه يعذب المنافقين وأمثالهم إن شاء، ويتوب عليهم إن شاء، فمشيئته سبحانه وتعالى مطلقة لا يحدها شيء.

- وما ينبغي لأحدمن الدعاة أن ييأس من مدعو فيسرع بتصنيفه في المحرومين من مغفرة الله تعالي ورحمته، ومن فعل ذلك فقد نسى طلاقة المشيئة الإلهية، وعرض نفسه أمام الله للمؤاخذة والعقاب وقد روى الإمام مسلم بسنده عن جندب البجلى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: إن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، قال الله: مَن ذا الذى يتألى علىَّ ألا أغفر لفلان؟ فإنى قد غفرت لفلان، وأحبطتُ عملك».

- فليحاذر الدعاة أن يقع بعضهم - لفرط حماسه أو لعظم الذنب الذى ارتكبه المنافق - أن يقع فى هذا المأزق.

ب - وأن الله تعالي يُعلِّم العاملين فى الدعوةوالحركة - عندما يقرر نظام الثواب والعقاب - يعلمهم أنّ المحسن في عمله والمتجاوب مع ما تتطلبه منه الدعوة والحركة، وإن كان يثاب عند الله في الآخرة حسب نيته وإخلاصه، إلا أن له ثوابا فى الدنيا كذلك حين يقدم كلمة طيبة أو خدمة مطلوبة لأحد المدعويين، فينال ثوابا دنيويا هو حب الناس له ورضاهم عنه وإقبالهم عليه وعلى ما يدعو إليه.

- ومن كان كذلك من العاملين من أجل الإسلام فهومن الموفقين فى عملهم من أجل الإسلام، وهو الذي يأتى علي يديه الفتح والنصر المبين، وهو الذى تُسَدُّ به الثغور، وتتقى به المكاره، والعمل من أجل الإسلام فى حاجة ماسة ومستمرة إلى هذا النوع من الرجال الصابرين المحتسبين الذين - لإخلاصهم وتجردهم - يحظون بثواب الدنيا نجاحًا وفلاحا، وثواب الآخرة جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

جـ - وأن مغفرة الله تعالى ورحمته في عمومها وشمولها ينالهما مَن شاء الله تعالي أن يغفر له ذنبه أو يرحمه فيجازيه بأحسن مما يستحق.

- والدعاة والمدعوون قد تنالهم مغفرة الله لذنوبهم وتجاوزه عما قصروا فيه، وقد تشملهم

الرحمة فينالون أكثر وأحسن مما يستحقون، ويترتب على هذه القاعدة أمور، منها:

– أن من قصَّر من الدعاة أو توانى أو آثر الدعة والراحة –وكل ذلك وارد علي الدعاة – أو شغلته أعراض الحياة الدنيا من مال وأهل وولد – وهذا وارد أكثر من سابقه – فإن الله تعالى قد يغفر له ذنبه إذا تاب وأناب، وقد يرحمه لأن رحمته تعالى قد وسعت كل شيء.

● ومن المعروف أن مغفرة الله تعالى لعباده هى أن يصونهم عن العذاب، وأن رحمته لهم هى إحسان إليهم وإنعام عليهم وتفضل، وكل من المغفرة والرحمة له تعلق مباشر قوي بمشيئة الله تعالى، تلك المشيئة التى لا حدود لها ولا قيود على طلاقتها.

● وفي تلك المغفرة وهذه الرحمة ما يحمل الدعاة إلى الله حملاً علي أن يصبروا على من قصَّر أو توانى فى اللحاق بموكب الدعوة وآثر أن يكون شاردا عن هذا الموكب السعيد برضا ربه سبحانه وتعالي. متوهما أن في هذا الشرود حرية قول أو عمل. متوجسا أن فى المضي مع موكب الدعوة بعض المخاوف والمحاذير!!!

● إن على الدعاة أن يصبروا على أولئك المقصرين ذلك الصبر الجميل، وأن يكونوا عونا لهم – بما يقدمون إليهم من خير – ضدَّ وسوسات الشياطين من الإنس أو الجن الذين يزينون لهم الشرود عن الموكب، ويخوفونهم من وعثاء الطريق وشراسة أعداء الحق، فقد نَبَّه القرآن الكريم إلي ذلك التخويف الذى يُمارسه الشيطان علي الناس، في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (١٧٥) ﴾ [**آل عمران**: ١٧٥].

فأكَّد القرآن أن الله تعالي يكفى عباده كل ما يهمهم، مهما فعل المخوفون والمرجفون والمثبطون، والمبالغون في ضخامة القوة التى لأعداء الحق ووحشية هؤلاء الأعداء، وأوضح أن هذا التخويف ضلال منهم ومن أتباعهم، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** (٣٦) ﴾ [**الزمر**: ٣٦].

● وأعود فأذكر بأن رسول ﷺ صبر على من هم أسوأ من أولئك وتحمل منهم ما لم يتحمله أحد، وما ضاق بهم ولا بشرهم ومكرهم، وكيف يضيق بذلك والله تعالي يقول له: ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** (١٢٧) ﴾ [**النحل**: ١٢٧].

٥ – ويتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا** ﴾ ما يلي:

أ – أن أعداء الدعوة والكائدين لها ولدعاتها، لابد أن يردهم الله عن الدعوة والدعاة مهما جمعوا من أعداء ومهما كان لهم من قوة ونفوذ، بل يردهم والغيظ يملأ قلوبهم لفشلهم وخيبتهم في الكيد والحرب لدعوة الله ودعاته في التوقيت الذى يختاره الله تعالى ويرى فيه صلاح الدعوة والدعاة، ليكون ذلك من تمام النعمة على الدعوة والدعاة.

● وليس للدعاة أن يستعجلوا ردّ الله لهؤلاء الكافرين وأمثالهم وحرمانهم من أى خير كانوا يقدرون في البطش بالدعوة والدعاة، وذلك أن الله تعالى سيسلط عليهم من يشاء من جنوده لتكون حسرتهم على فشلهم في الدنيا وخسارتهم في الآخرة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا** (٨٤) ﴾ [مريم: ٨٤].

ب – ويتعلمون من الآية الكريمة أن ردّ الله أعداء دعوته بهذا الفشل وتلك الخيبة، لا يخضع لمعايير القوة التى يعرفها الناس، أو تدخل فى توقعاتهم، بل قدتكون بما لم يألفه الناس ولم يعرفوه من أنواع القوة وجنودها التى لا يعلمها إلا الله، ففي هذه لمعركة، معركة الأحزاب كانت وسائل ردّ الأعداء هى الريح والجنود، وهي رمز إلى أن لله جنودا يسلطها على من يشاء من أعدائه لا تخطر على قلب بشر.

جـ – وأن هؤلاء الأعداء عندما يردّهم الله بغيظهم عن دعوته ودعاته يكونون على حالتين كل منهما أسوأ من أختها:

● حال الغيظ والغضب والحنق الذى يعبر عن خيبتهم في تحقيق مبتغاهم، حيث يرغبون فى استئصال الدعوة والدعاة.

● وحال أنهم لم ينالوا خيرا من حربهم للدعوة والدعاة، وإنما كان نصيبهم الشر والإحساس بالخيبة والفضل.

ء – وأن ردّ الله تعالى لهؤلاء الأعداء قد يكون بغير جهدمن الدعاة يساوي هذا الذى حدث للأعداء، وإنما هو نعمة من الله على دعاته إذ يكفيهم مئونة القتال ﴿ ... **وكفى الله المؤمنين القتال** ... ﴾ وهذا يُعد من المبشرات للدعاة ليزيد يقينهم بأن الله تعالى لا يمكن أن يتخلى عن أوليائه.

● وعلى الدعاة إلي الله ألا يصيبهم يأس أو إحساس بالعجز عندما يرون أعداء الله وقد زادوا عدداً، وتفوقوا عُددا، وأحاطوا بالدعوة والدعاة من كل جانب، وتحالفوا من أجل ضرب الدعوة مع القوى العالمية المعادية للإسلام، والأنظمة العالمية الجديدة التى تضمر الحقد والشر للإسلام والمسلمين، عندما يرى الدعاة إلى الله ذلك فليوقنوا أن الله تعالى قادر على أن يردهم بأهون الأسباب مغيظين محنقين ﴿ **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)** ﴾ [**الروم**: ٤، ٥].

● وعلى الدعاة مع ذاك اليقين بنصر الله لأوليائه أن يستبشروا دائما بأن الله معهم ومؤيدهم، بل قادر على أن يوفر عليهم جهدهم وجهادهم فى قتال أعداءهم، ولكن ليس لهم هم أن يبخلوا بهذا الجهد أو الجهاد، أو تفتر لهم همة إذ العمل فى سبيل الله تعالى واجب مستمر، كما قال تعالى: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)** ﴾ [**التوبة**: ١٠٥].

● فإذا وفَّر الله تعالى جهد الدعاة وجهادهم في ردّ الأعداء عنهم، فعليهم أن يبذلوا هذا الجهد والجهاد في مزيد من الدعوة والحركة والعمل علي أن تكون كلمة الله هى العليا، أى أن يُمكن لدين الله ومنهجه، في عباده وفي الأرض جميعا.

● وإذا كانت معركة الأحزاب – الخندق – قد نصر الله فيها حزبه وكفى المؤمنين القتال، فإنه سبحانه يعلم ويرى ما يكيد به أحزاب اليوم للإسلام والمسلمين من تضييق وشر، حتي حظروا على معظم بلاد المسلمين أن يعبروا عن إسلامهم أو عروبتهم بأي عمل سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى!!! وهو سبحانه قادر على أن يردّ أحزاب اليوم بغيظهم وينصر المؤمنين عليهم نصرا مؤزرا، لأن تلك هى سنة الله تعالى فى نصر أوليائه وهزيمة أعدائه.

● وعندما يتم نصر الله لأوليائه وردّه لأعداء الحق مغيظين، بما شاء من قوة وجنود لم يتوقعها أحد، فإن ذلك لا ينبغى أن يستغرب أو يصيب بالدهشة أحدا، لأن الله تعالي بعد أن أخبر بردّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، أخبر أنه سبحانه وتعالى قوى عزيز ﴿ **وكان الله قويا عزيزا** ﴾.

٦ – ويتعلم الدعاة والعاملون في الحقل الإسلامى من قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)** ﴾ [**الأحزاب**: ٢٦، ٢٧] ما يلى:

أ – أن الله تعالى يبشر الدعاة إليه، بأنه سبحانه لا يكتفي برد أعداء دعوته مغيظين لم ينالوا خيرا، بل يزيد على ذلك – مما فيه شفاء لصدور المؤمنين – أن يقهر من أعانوا أعداء الله وأن ينزل بهم الهزائم، حتى لو كانوا من أهل الكتاب – إذ أهل الكتاب أولى ألا يعادوا المسلمين فضلا من أن يؤلبوا عليهم الأعداء ويمالئوا ضدهم الكفار والمشركين –.

ومن أجل تنكر أهل الكتاب للحق وهم أولي من أن يستجيبوا له كان عذابهم أشد في الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فكانت تلك الهزيمة وهذا الانكسار وذلك الرعب، وما تبع هذا من قتل الرجال وسبى النساء والذرية وغير ذلك مما سوف نذكره بعد قليل.

ب – وقهر الله تعالي لليهود الذين ظاهروا الكفر على الإيمان وأيدوا الباطل علي الحق، وحرضوا الأعداء، هنا القهر أخذ عدة صور – كما أوحت بذلك الآية الكريمة – وهى:

● أنزلهم صاغرين من حصونهم وقلاعهم التي كانوا يتصورون أنها سوف تحول بينهم وبين المسلمين، وأنها تحميهم من انتقام الله تعالى، وسواء أكانت هذه الحصون قلاعا – كما كانت الحال فى يهود بنى قريظة – أم كانت الحصون جيوشاً جرارة، وآلة عسكرية رهيبة، وعلماء تقنية ومنظمات دولية هدفها عداء الإسلام والمسلمين، أو نظاما عالميا جديدا ينصر اليهود على المسلمين ويؤيد الباطل علي الحق، ويبطش بالمسلمين في كل مكان: فى الشيشان وكشمير والفلبين والبوسنة والهرسك، وفي كثير من أقطار العالم العربى بممالأة الحكام على الظلم وعلى انتهاك حقوق الإنسان.

● وقذف في قلوبهم الرعب – وهي حرب نفسية تدمر الجهاز العصبى – حيث خافوا المسلمين وهابوهم، فلم يجرؤوا على قتالهم والخروج إليهم من هذه الحصون التى ظنوا أنها مانعتهم من الله.

وهكذا يكون شأن أعداء الله دائما، مادام المسلمون على مستوى الإيمان الصحيح والعمل الصالح وإيثار ما عند الله علي ما عند الناس، ومن ثم يكون نصر الله للمؤمنين على الكافرين.

● وكانت نتيجة نصر الله للمؤمنين وخذلانه لليهود، أن أصبح اليهود ما بين قتيل وأسير،

حيث قتل المقاتلة وسبيت النساء والذرية، وصودرت الأموال جزاء غدرهم برسول الله والمؤمنين ونقضهم لعهودهم مع المسلمين.

● ولا تزال هذه طريقة اليهود حتى اليوم، فهم ينقضون في كل يوم عهدا ويخيسون بميثاق، ويأتون من أساليب الغدر والخيانة بما هو جدير بهم وبتاريخهم ومعروف عنهم ومأثور.

جـ – وفى الآية ما يوحي بوعد من الله للمؤمنين بأنه سوف يورثهم أرضا جديدة بعد أن أورثهم أرض بنى قريظة وديارهم وأموالهم.

● وهذه الأرض الجديدة لم تكن وطئتها أقدام المسلمين من قبل، وقد تحقق وعد الله تعالى على عهد رسول الله ﷺ في فتح خيبر وفتح مكة وحنين والطائف.

وفي عهد الخلفاء الراشدين توالت الفتوح وأورث الله المسلمين أرضًا لم يطأوها فى الشام وما والاه من دولة الروم، وفي العراق وفارس وما والاهما من دولة الفرس، وفي اليمن وفى مصر وشمالى إفريقية وغيرها من البلاد التى بلغت في نصف قرن من الزمان ما يقرب من نصف العالم.

● وهذا الوعد قائم اليوم وفي كل يوم إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها، بشرط أن يكون المسلمون على مستوى ما طلب الله تعالى منهم وما كلفهم به وما ندبهم إليه.

● ووعد الله تعالي ما بقيت السموات والأرض، والدعاة إلى الله أكثر علما بهذه الحقائق التاريخية، وأكثر يقينا بصدق ما يعد الله تعالي به عباده المؤمنين، مصداقا لقوله تعالى:
﴿ **وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٦) ﴾ [الروم: ٦].

ء – ويتعلم الدعاة إلي الله من هذه الآية أن قدرة الله لا يعجزها شيء وأنها لا تقاس بها قدرة خلقه، وأن قدرة الإنسان تمكنه من فعل شيء مَّا، وأما قدرة الله فتعني نفى العجز عنه سبحانه وتعالى أى القدرة المطلقة، وكلمة قدير تعنى: أنه فاعل لما يشاء على قدر ما تقتضيه الحكمة لا زائدا عليه ولا ناقصا عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى[1].

● وقد هزم الله تعالى الأحزاب واليهود –وما تجمع ضد المسلمين حشد كهذا من قبل –ونصر

---

(١) مما يثير الدهشة والأسف أن بعض بلدان المسلمين تمنح لقب «قدير» للفنان، جاهلة أو متجاهلة أن هذا الوصف لا يوصف به إلا الله تعالى، وأعجب العجب أن يحدث هذا فى مصر بلد الأزهر معقل الإسلام ولغة القرآن!!! وأولى أن يقولوا: فنان مقتدر أى مكتسب للقدرة.

المؤمنين- على الرغم من قلة عددهم وعددهم فكان نصرا مخالفا لما ألفه الناس فى حساباتهم لموازين القوى بشرية أو علمية أو فنية أو تقنية، إذ كانت موازين القوى تقضى بنصر الكفر على الإيمان، ولكن الله تعالى فعل العكس فنصر المؤمنين ﴿ **وكان الله على كل شئ قديرا** ﴾.

● ألا ما أحوج المسلمين إلى استيعاب هذا الدرس، لتزرع فى نفوسهم الثقة فى وعد الله تعالى، ويدعوا القلق والتوجس من الأعداء، والشعور بالعجز عن مواجهتهم، وذلك أنهم لا يواجهونهم بجهدهم وجهادهم فقط، وإنما يواجهونهم ومعهم قدرة الله ووعده، ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي** (٢١) ﴾ [المجادلة: ٢١].

و: ﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ** ..... (١٦٠) ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

و: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** (٥٦) ﴾ [المائدة: ٥٦]، وصدق الله وعده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

٦ - الآيات الكريمة من الثامنة والعشرين إلى الرابعة والثلاثين

تكاليف موجهة إلى زوجات النبى ﷺ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾

[**الأحزاب** : ٢٨ - ٣٤] .

- تتحدث هذه الآيات الكريمة عن مطالب وتكاليف يجب أن يخبر بها النبى ﷺ زوجاته بها، فيخيرهن بين الرغبة فى الحياة الدنيا وزينتها، وتسريح النبى ﷺ إياهن سراحا جميلا، وبين إيثار الله ورسوله والدار الآخرة مع ثواب الله وحسن جزائه.

ثم تتحدث عن مضاعفة العذاب لزوجات الرسول ﷺ إن أتين بفاحشة مبينة لمكانتهن من الرسول ﷺ.

وتتحدث عن واجبات وتكاليف لابد أن يقمن بها، وعن آداب اجتماعية يجب عليهن التحلى بها.

وعن أوامر متجهة إليهن من الله تعالى، ونواهٍ يجب الالتزام بالانتهاء عنها.

مما سنوضحه عند شرح هذه الآيات الكريمة وتفسيرها.

- وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على نداءين:

أحدهما: موجه إلى الرسول ﷺ.

والآخر: موجه إلى نساء النبى ﷺ.

كما اشتملت الآيات على عدد من الأوامر وعدد من النواهي، وعلى أكثر من شرط وجزاء، مما سنوضحه فيما يلى، والله المستعان.

– ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك .... ﴾ الآية.

وهذا هو النداء الثانى للنبى ﷺ، وقد أُمر فيه بأمور تتعلق بزوجاته رضى الله عنهن.

ونداء النبى ﷺ تنبيه على أن ما سيذكر بعد النداء له مزيد اختصاص به ﷺ، وهو تحديد سيرة أزواجه معه، مما يجب أن يناسب مرتبة النبوة.

● قال ابن عطية فى رواية له عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما: لما فُتحت على المسلمين أرض قريظة وغنموا أموالهم، وكانت أرض بنى النضير قبل ذلك فيئا للنبى ﷺ، خشيتْ أزواج النبى ﷺ أن مثلَه مَثَل أحد من الرجال، إذا وسع عليهم فى الرزق توسعوا فيه هم وعيالهم، فلم يكن أزواج رسول الله ﷺ يسألنه توسعة قبل أن يفئ الله عليه من أرض النضير، وقبل أن يكون له الخمس من الغنائم، فلما رأين النبى ﷺ جعل لنفسه ولأزواجه أقواتهم من مال الله، ورأين وفرة ما أفاء الله عليه من المال حسبن أنه يوسع عليهن فى الإنفاق، فصار بعضهن يستكثرنه من النفقة، كما دل عليه قول عمر رضى الله عنه لحفصة ابنته رضى الله عنها: لا تستكثرى النبى ولا تراجعية فى شئ وسلينى ما بدا لك.

ولكن الله تعالى أقام رسوله ﷺ مقامًا عظيما فلا يتعلق قلبه بمتاع الدنيا إلا بما يقتضيه قوام الحياة، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: «مالى وللدنيا!!! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» وقد رواه أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم بأسانيدهم عن ابن مسعود رضى الله عنه.

● وقد روى أن بعض زوجات النبى ﷺ سألنه أشياء من زينة الدنيا، فأوحى الله إلى رسوله بهذه الآيات المتتابعات ليخيرهن بين الدنيا والآخرة.

● والأزواج المعنيات فى هذه الآيات هى أزواج النبى ﷺ التسع اللاتى توفى عنهن وهن:

عائشة بنت أبى بكر الصديق، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة بنت أبى سفيان، وأم سلمة بنت أمية المخزومية، وجويرية بنت الحارث الخزاعية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وسودة بنت زمعة القرشية، وزينب بنت جحش الأسدية، وصفية بنت حيى النضيرية.

أما زينب بنت خزيمة الهلالية، الملقبة أم المساكين فكانت قد توفيت قبل نزول هذه الآيات الكريمة.

وأما من تزوجهم ولم يدخل بهن فمنهن:

فاطمة بنت الضحاك الكلابية، التى استعاذت منه فطلقها، وكانت تقول: أنا الشقية.

وأسماء بنت النعمان بن الجون.

وقتيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس، وكان قد زوجه إياها أخوها الأشعث، وقبل أن يحملها إلى رسول الله ﷺ علم بوفاته ﷺ، فارتد وارتدت منه.

وأم شريك الأزدية واسمها غزية بنت جابر بن حكيم.

وخوله بنت الهذيل بن هبيرة.

وشراف بنت خليفة أخت دِحّية.

وليلى بنت الخطيم أخت قيس بن الخطيم.

وعمرة بنت معاوية الكندية.

وابنة جندب بن ضمرة الجندعية.

● وفى تخييره ﷺ إياهن بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة، روى البخارى بسنده، وروى مسلم بسنده واللفظ لمسلم، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم.

قال: فأذن لأبى بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبى ﷺ جالسا وحوله نساؤه، واجما ساكنا.

- قال: فقال: عمر: والله لأقولن شيئًا أُضحك رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله لو رأيت خارجة (يعنى زوجته) سألتنى النفقة فوجأت(١) عنقها، فضحك رسول الله ﷺ وقال: هُنَّ حولى -كما ترى- يسألننى النفقة.

فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها.

---

(١) وجأت: دفعت بيدى.

وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها.

كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده.

ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية:

﴿**يأيها النبى قل لأزواجك....**﴾ الآية، حتى بلغ: ﴿**للمحسنات منكن أجرا عظيما**﴾
قال:

فبدأ بعائشة فقال: «يا عائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك».

قالت: وما هو يا رسول الله؟

فتلا عليها الآية.

قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوى؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت.

قال: لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثنى ميسرا».

وفعل أزواج النبى ﷺ ما فعلت عائشة، رضى الله عنهن جميعا.

● وتخيير النبى ﷺ لزوجاته: هو تخييرهن بين البقاء على الزوجية أو الطلاق.

فاخترن البقاء.

قالته عائشة رضى الله عنها.

وذكره مجاهد وعكرمة والشعبى وغيرهم.

● وقيل: خيَّرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكهن، ولم يخيرهن فى الطلاق.

● ونسب هذا القول إلى على رضى الله عنه فيما رواه عنه أحمد بن حنبل بسنده، وذكر هذا الرأى الحسن وقتادة.

- ﴿**إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً**﴾ هذه الآية الكريمة تضمنت شرطًا وجزاء وتفصيله فيما يلى:

● إنْ: أداة الشرط.

● وقيل: خيَّرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكهن، ولم يخيرهن فى الطلاق.

● ونسب هذا القول إلى على رضى الله عنه فيما رواه عنه أحمد بن حنبل بسنده، وذكر هذا الرأى الحسن وقتادة.

- ﴿ **إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً** ﴾ هذه الآية الكريمة تضمنت شرطًا وجزاء وتفصيله فيما يلى:

● إنْ: أداة الشرط.

● وكنتن تردن االحياة الدنيا وزينتها: كنتن فعل الشرط.

● وفتعالين أمتعكن: جواب الشرط وجزاؤه.

● والتمتع: أن يعطى الزوج امرأته حين يطلقها عطية، جبرًا لخاطرها، لما يعرض لها بعد الفراق من الانكسار.

● والسراح: الطلاق، وهى من أسماء الطلاق وصيغه.

● والسراح الجميل: هو الطلاق دون غضب ولا كراهية.

- ﴿ **وإن كنتن تردن الله ورسوله فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا** ﴾ أسلوب شرط وجزاء أيضًا.

● إنْ: أداة الشرط.

● وكنتن تردن..: فعل الشرط.

● فإن الله أعد للمحسنات...: جواب الشرط وجزاؤه.

● والمعنى: إن كنتن تردن ما يرضى الله ورسوله وخير الدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا.

- ﴿ **يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾.

● هذا نداء لنساء النبى ﷺ، وخطاب لهن من الله تعالى بعد أن اخترن الله ورسوله، يخبرهن فيه أنهن أصبحن على عهدٍ مع الله تعالى أن يؤتيهن أجرًا عظيمًا.

● من يأت منكن بفاحشة: أى معصية، وكلما وردت كلمة فاحشة نكرةً فى القرآن الكريم

فهى تعنى: المعصية، فإن وردت معرَّفة فإنها تعنى: الزنا.

● مبينة: أى واضحة تبين نفسها، وقد أعاذ الله زوجات النبى ﷺ ورضى عنهن، من ذلك.

– ﴿ يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾[1]: أى تعذَّب أكثر من غيرها من المسلمات لشرف منزلتهن، وفضل درجتهن وتقدمهن على سائر النساء.

● والمعنى: – كما يعرف ذلك من فقه الشريعة الإسلامية –: أنه كلما عظمت الحرمات فهتكت تضاعفت العقوبات، كما نلحظ ذلك فى إقامة الحد على الحرّ أو العبد، وعلى الثيب أو البكر.

ولما كان أزواج النبى ﷺ فى مهبط الوحى، وفى المكان الذى يتنزل فيه أمر الله ونهيه، قوى الأمر عليهن ولزمَهُن – بسبب مكانتهن – أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأجر، ويضاعف لهن العذاب عند الخطأ.

– ﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ معناها: أن الله تعالى يحقق وعيده، ولا يمنعه من ذلك أن المعذَّب زوجة نبى أو نحوها، كما لم تشفع نبوة الزوج من تعذيب زوجتى نوح ولوط، كما جاء ذلك فى القرآن الكريم: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) ﴾ [التحريم: 11].

– ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحًا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقًا كريمًا ﴾.

● القنوت: الطاعة لله تعالى، والقنوت للرسول ﷺ الدوام على طاعته واجتلاب رضاه.

● نؤتها أجرها مرتين: أى نضاعفه لها، وهو وعد فى مقابل الوعيد بمضاعفة العذاب عند ارتكاب المعصية كما فى الآية الكريمة السابقة.

● ومضاعفة الأجر لهن على الطاعات تكريم لقدرهن.

● وهذه المضاعفة فى الحالين من خصائص أزواج النبى ﷺ لعِظَم مكانتهن، ودرجة أزواج

---

(1) قيل: إن الضعفين هما: المثلان أو المرتان.

وقال أبو عبيدة ضعف الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة، وقال بذلك أبو عمرو. وهو رأى مرجوح ضعَّفه الطبرى وغيره من العلماء.

والأولى ما ذكرناه فى الشرح والله أعلم.

النبى ﷺ لا شك عظيمة لقربهن من النبوة.

● ﴿**وأعتدنا**﴾: أى أعددنا – وقرب التاء من الدال جعلها تاء لا دالا لأن التاء أخف من الدال.

● ﴿**رزقًا كريمًا**﴾ هو رزق الجنة، ووصف بالكريم لأنه أفضل جنس الرزق وأدومه وأكرمه.

– ﴿**يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض...**﴾.

● أعيد النداء على زوجات النبى ﷺ للاهتمام بما يطلب منهن، أو بما يُخْبَرْنَ به من خبر.

● ﴿**لستن كأحد من النساء**﴾ أى أنتن أفضل من غيركن من النساء، لما لكن من صلة بالرسول ﷺ، وهذا التفضيل لهن تفضيل على وجه الإجمال، ولا يمنع ذلك عقلاً من أن تكون إحداهن أفضل من سواها منهن.

● ﴿**إن اتقيتن**﴾ أى خفتن الله تعالى، فهذه الفضيلة أنتُن لها أهل، ولكن بشرط تقوى الله تعالى.

● وهذه الآية الكريمة تضمنت أسلوب شرط:

● أداته: إنْ.

● وفعله: اتقيتن.

● وجوابه أو جزاؤه: فلا تخضعن.

● والخضوع بالقول: تليين الكلام وإخراجه مخرجًا ناعمًا رقيقًا.

● وفعل الشرط: اتقيتن مستعمل للدلالة على الدوام، أى دمتن على التقوى. والمراد: ليكن قولكن جزلا وكلامكن فصلا.

● وحاشا لزوجات النبى ﷺ أن يفعلن شيئًا من ذلك. ولكن الله تعالى يوجههن إلى أدق الأخلاق وأكمل الصفات، مما قد تحدث الغفلة عن مراعاته.

– ﴿**فيطمع الذى فى قلبه مرض**﴾ من المنافقين وأمثالهم ممن كانوا فى أول الإسلام من الأعراب الذين لم تترشح فيهم أخلاق الإسلام، أو من أولئك الذين يغلب عليهم سوء الظن، فيرمون المحصنات الغافلات المؤمنات.

● وكلمة: «فيطمع» جاءت فى جواب النهى أى لا تخضعن فى القول فيطمع.

- ﴿**وقلن قولاً معروفًا**﴾ وهو القول الذى يألفه الناس بحسب عرفهم، ومن القول المعروف ألا يُسْمِعن أحداً لفظًا نابيًا فضلا عن أن يكون بذيئًا.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى ذلك: أمرهن الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والقول المعروف هو الصواب الذى لا تنكره الشريعة ولا ترفضه العقول الصحيحة.

﴿**وقرن فى بيوتكن**﴾ هذا أمر لزوجات النبى ﷺ خصهنّ الله تعالى به دون النساء المسلمات، فهو حكم لهن وحدهن، ويعنى وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيراً لهن، وتقوية لحرمتهن، ومعنى ذلك أن يكون قرارهن فى بيوتهن عبادة، إذ هو استجابة لأمر الله، وكل استجابة لأمر من أوامر الله تعالى أو استجابة لنهى من نواهيه سبحانه عبادة لله تعالى.

قال العلماء فى التعليق على هذا الأمر: إن القرار فى البيت واجب على زوجات الرسول ﷺ، وهو كمال بالنسبة لسائر المسلمات.

● وبعض أهل الأهواء من المؤرخين وغيرهم أخذوا على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها خروجها إلى البصرة فى موقعة الجمل، زاعمين أن ذلك الخروج مخالف للأمر بالقرار فى البيوت، وهذا من أخطاء أهل الأهواء وتجنياتهم، لأن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها إنما خرجت مجتهدة متأولة لهذه الآية الكريمة، لأنها رأت أن خروجها فيه مصلحة للمسلمين، لأنهم سيكفون عن القتال إذا علموا أنها بينهم، فيتجهون إلى الصلح والتفاهم.

ويعزز هذا الاجتهاد والتأول للآية الكريمة أنه كان قد خرج معها طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام وهما من العشرة المبشرين بالجنة.

﴿**ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾.

التبرج: إظهار المرأة محاسن ذاتها وثيابها وحليها بمرأى من الرجال، أو هو: إظهار ما ستره أحسن وأكرم للمرأة.

وحاشا لواحدة من زوجات النبى ﷺ أن تكون فعلت ذلك، ولكنه نهى يعنى المداومة على الامتناع عن التبرج حتى ولو لم يقع.

وفى هذا النهى عن التبرج تعريض بنهى غيرهن من المسلمات عن التبرج، وقد كان فى المدينة المنورة آنذاك نساء المنافقين اللاتى كنَّ على بقيَّة من سيرتهن فى الجاهلية، وكان فى الجاهلية تبرج للنساء أو لبعض النساء.

و ﴿ **الجاهلية الأولى** ﴾ هى الزمن الذى كان عليه العرب قبل الإسلام، ووصفها بالجاهلية الأولى لا يعنى أن هناك جاهلية ثانية أو ثالثة، وإنما يعنى أنها أُولى بالنسبة للإسلام لأنه جاء بعدها.

● وبعض المفسرين يقولون: إن الجاهلية الأول هى: زمن إبراهيم أو إدريس أو موسى أو عيسى عليهم السلام، وينسبون إلى المرأة فى هذه الأعصر صفات من التبرج تصل إلى عرضها نفسها على الرجال، وهذا تعسف فى التفسير الذى لا سند له من كتاب أو سنة، وهو غير لائق بالمرأة عموماً، وإن كان يجوز أن يصدر من بعضهن.

● وبعض المفسرين يقولون: ستكون جاهلية أخرى – بعد الجاهلية الأولى – وهى الزمن الذى تعطل فيه أحكام الإسلام، وهم أيضاً فى هذا الرأى من المتكلفين، والله تعالى أعلم.

– ﴿ **وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله....** ﴾ .

﴿ **أقمن الصلاة** ﴾ أى داومن على أداء هذه العبادة، فهى من التكاليف الهامة إذ هى عماد الدين أو عموده، وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهى التى تجعل المصلى واقفًا بين يدى الله عز وجل يدعو ويحمد ويثنى على الله تعالى بما هو أهله، ويسبح ويكون أقرب ما يكون إلى ربه وهو ساجد.

● ويفهم من أمر الله تعالى لزوجات النبى ﷺ بأن يقمن الصلاة، فساد رأى مَنْ قال من المتصوفة أو من الضالين الغافلين: إنهم قد رُفع عنهم التكليف فلا يقيمون الصلاة وغيرها من العبادات، كما يحكى عن بعضهم أنه كان لا يصلى الفرائض زاعمًا أنه مستغرق فى معرفة الله وحبه والفناء فيه!!!

● وكيف يسوغ هذا فى عقل عاقل والله تعالى أمر أكرم خلقه المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بإقامة الصلاة؟ فى قوله تعالى: ﴿ **أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)** ﴾ [**الإسراء** : ٧٨].

﴿ **وآتين الزكاة** ﴾ أى داومن على أداء هذه العبادة المالية التى تذكر مقرونة بالصلاة فى كثير من آيات القرآن الكريم. وفى كثير من أحاديث النبى ﷺ.

● والصلاة والزكاة هما أصل الطاعات، والركيزة التى تنطلق منها أفعال الخير جميعًا، وتنحسر أعمال الشر جميعًا، وحسب الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وحسب الزكاة أنها تربو عند الله تعالى، وتؤمن المجتمع من العذر والحاجة والجريمة.

﴿ **وأطعن الله ورسوله** ﴾ هذا أمر عام بامتثال كل أمر شرعى واجتناب كل نهى شرعى كذلك.

● والمعنى: داومن على طاعة الله ورسوله على كل حال وفى كل وقت.

- ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾.

﴿ **الرجس** ﴾ فى الأصل هو القذر الذى يلوث الأبدان، واستعير هنا ليدل على الذنوب والنقائص الدينية التى تجعل عِرْض الإنسان مرذولاً فى الدنيا والآخرة.

والله تعالى يريد أن يذهب هذا الرجس عن زوجات النبى وأهل بيته ﷺ أجمعين.

● و ﴿ **أهل البيت** ﴾ هم:

زوجات النبى ﷺ لأن الخطاب موجه إليهن.

ومن العلماء من يقولون: أهل البيت هم زوجات النبى ﷺ، وفاطمة ابنته، وعلى زوجها، وولداهما: الحسن والحسين رضى الله عنهم، ويستدلون على ذلك بحديث رواه الإمام مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ غداة وعليه مرط مُرَحَّل[1]، فجاء الحَسَن فأدخله، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علىّ فأدخله - أى معه فى المرط - ثم قال: ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾.

ومعنى هذا الحديث الشريف: أن النبى ﷺ ألحق أهل الكساء بحكم هذه الآية وجعلهم أهل بيته ﷺ، فشمل تعبير «أهل البيت» زوجات النبى ﷺ وأولاده وعليًا رضى الله عنه لمعاشرته بنت النبى ﷺ، وشمل كل من ألحقه النبى بأهل البيت كسلمان الفارسى رضى الله عنه، فقد روى مسلم بسنده عن يزيد بن حبان قال:

انطلقتُ أنا وحُصَيْن بن سبُرة وعمر بن سلمة إلى زيد بن أرقم رضى الله عنه، فلما جلسنا إليه قال له حصين:

لقد لقيتَ يازيد خيرًا كثيرًا: رأيت رسول الله ﷺ، وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه،

(١) المِرْط: كساء من خز أو صوف أو كتّان يؤتزر به، وتتلفع به المرأة، ومرحّل: موشى أو مُزيّن.

وصليت خلفه، لقد لقيتَ يا زيد خيراً كثيراً.

حدِّثْنا يا زيد ما سمعتَ من رسول الله ﷺ، قال: يا ابن أخى، والله لقد كبرتُ سِنِىّ وقدم عهدى، ونسيتُ بعض الذى كنت أعِى من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا وما لا فلا تكلفوا فيه، ثم قال رضى الله عنه:

قام فينا رسول الله ﷺ يومًا خطيبًا – بماء يُدْعى خُمًّا بين مكة والمدينة – فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكرَّ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب. وأنا تارك فيكم ثقلين:

أولهما: كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به.

فحثَّ على كتاب الله عز وجل ورغَّبَ فيه.

«وأهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى» ثلاثًا.

فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه أهل بيته؟.

قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته مَنْ حُرِمَ الصدقة بعده، قال: ومَنْ هم؟

قال: هم آل علىّ وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس رضى الله عنهم، قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة بعده؟ قال: نعم.

● ومن العلماء مَنْ قال: إن أهل بيت النبى ﷺ هم: فاطمة وزوجها وابناها رضى الله عنهم. ثم قالوا: إن أزواج النبى ﷺ لَسْنَ من أهل البيت!!

وهذا رأى خاطئ مصادم للقرآن الكريم، ومخالف لما قال به كثير من الصحابة فى معنى هذه الآية.

وما أظن هذا الرأى إلا مدسوسًا يقوم على الهوى والتعصب وحسبنا ما قاله الصحابة رضى الله عنهم.

﴿ **ويطهركم تطهيرا** ﴾ أى يذهب عنكم الذنوب، ويخلع عليكم أثواب الكرامة.

– ﴿ **واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيراً** ﴾ .

﴿ **اذكرن** ﴾ يمكن أن تكون من الذِّكر بمعنى التذكر أى لا تنسين ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله وكلام النبى ﷺ، ولا تغفلن عن العمل به.

ويمكن أن يكون من الذِّكر بمعنى إجراء الكلام على اللسان، أى بلِّغْنَ الناس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرته وعمله فى بيته وفى حياته، مع عملكن بما فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

﴿**ما يتلى فى بيوتكن**﴾ أى ما يتلوه الرسول ﷺ فى بيوتهن من القرآن الكريم عند نزوله، أو عند قراءته لهن.

- و ﴿**آيات الله**﴾ هى القرآن الكريم.
- و ﴿**الحكمة**﴾ هى أقوال النبى ﷺ. أو هى: القصص والمواعظ والأحكام الشرعية التى يقولها النبى ﷺ.

﴿**إن الله كان لطيفًا خبيرًا**﴾.

﴿**لطيفًا**﴾ فى إسداء النصح بالأمر والنهى بما يصلح الإنسان فى معاشه ومعاده.

و ﴿**خبيرًا**﴾ أى عالمًا بأخبار أعمالكم، أو عالمًا ببواطن أعمالكم وأموركم كلها. والمعنى أنه حين يأمر أو ينهى إنما يأمر وينهى بما فيه صالح الدنيا والآخرة لأنه خبير بما يصلح الإنسان.

- وفى ختام هذه الآية الكريمة نقول:

إن من نعمة الله على نساء النبى ﷺ أنْ يَسَّر لهن معاشرة الرسول ﷺ وأكرمهن بأن جعلهن من أهل بيته أو أهل بيته، وهيأهن لسماع القرآن الكريم وفهمه والعمل بما فيه، ومتعهن بمشاهدة الهدى النبوى فى كل أمور الحياة، داخل بيوت النبى وفى أسفاره وفى كل أحواله.

- وذلك يوجب على نساء النبى أن يبلغن عن رسول الله ﷺ كتاب ربه، وكلامه ﷺ وأفعاله.

وقد استمر الصحابة رضى الله عنهم وكثير من التابعين من بعدهم يرجعون إلى أمهات المؤمنين فى كثير من أحكام النساء وأحكام الرجل مع أهله.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

١ - يتعلم المسلمون من قول الله تعالى : ﴿ **إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً، وإن كنتن تردن الله وسوله فإن الله أعَدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً** ﴾ ما يلى :

أ - أن إيثار الآخرة وما فيها من أجر وثواب، على الدنيا وما فيها من متع محدودة، غير دائمة، هو الأفضل والأجدر بالمؤمن، إذ من المُسَلَّم به عند المؤمنين أنَّ ﴿ **وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الشورى : ٣٦].

وهذا الدرس العظيم يتعلمه المسلمون من توجيه الرسول ﷺ لزوجاته رضى الله عنهن، كما يفهم ذلك من قوله تعالى ﴿ **وإن كنتن تردن الله وسوله فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً** ﴾ هذا هو ما عند الله ﷻ، وليس شئ أفضل أو أحسن مما عند الله.

● إن كل مسلم ومسلمة إذا آثر ما عند الله كان له عند الله أجرٌ عظيمٌ.

ب - وأن الإقبال على الدنيا وما فيها مشروع وحلال، ما دام طيبًا وفى إطار ما أحل الله تعالى، بل إن الامتناع عن طيبات ما أحل الله لعباده خطأ وضياع ومخالفة لمنهج الله تعالى، بل هو تعدٍ على المنهج لأنه تحريم لما أحل الله.

● وأن الذين يتنزهون عما أحل الله فيحرمون على أنفسهم ما أحل الله متنطعون إن أردنا وصفهم بأخف الصفات، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)** ﴾ [الأعراف : ٣١ - ٣٣].

● وهذه الآيات الثلاثة من سورة الأعراف فيها إجابة عن كل تساؤل فى التمتع بكل ما فى الحياة الدنيا من زينة وطعام وشراب وسائر أنواع الرزق الطيب والمتع الحلال، فيها تعريف

بكل ما حرم الله على عباده مِنَ الفواحش الظاهرة أو الباطنة، ومِنَ البغى : وهو تجاوز الحق إلى الباطل ، والإثم : هو كل فعل يعوق صاحبه عن الثواب، ومِنَ الشرك بالله، ومن التقوّل على الله أى الكذب عليه سبحانه، أو القول عنه بغير علم والشرك به.

● وهذه الآيات الثلاثة تتضمن برنامجاً متكاملاً فى فقه الحلال والحرام، لمن أراد التدبر والنظر فى كلام الله تعالى، فقد أوضحت المعالم الأساسية للحلال والحرام.

وهذا الإيجاز فى الكلمات مع دلالتها على كثير مما أحل الله وعلى كثير مما حرم الله هو من إعجاز القرآن الكريم.

● والدرس المستفاد من توجيه الرسول ﷺ، لزوجاته رضى الله عنهن هو أن التمتع بطيبات الحياة الدنيا لا حرج فيه، ولكن بيت النبوة يجب أن لا يقبل أحد فيه على الدنيا بأكثر مما بين الرسول ﷺ فى قوله ﷺ : «مالى وللدنيا!!! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» الذى ذكرناه آنفاً.

جـ- وأن فى حياة زوجات النبى أمهات المؤمنين رضى الله عنهن التى اختارها الرسول ﷺ لهن درس عظيم لكل امرأة مؤمنة تحاول أن تبالغ فى النفقة على نفسها أو بيتها أو أولادها، فتطالب زوجها بما لا يستطيع من النفقة، فتصيبه بالهم والغم، أوتطالبه بذلك وهو مستطيع فيستجيب لها فيقعان فى الإسراف الذى نهى الله عنه، أولا يستجيب لها فيكون النزاع والخصام، وقلق الأسرة واضطراب أحوالها، وإعطاء الأبناء أسوأ صور الحياة الزوجية الساخطة على منهج الله ونظامه.

● نعم... إن لزوجات الرسول ﷺ مقام جليل ومكانة سامية وأخلاق رفيعة، وكل ذلك قد لا تستطيعه سائر المسلمات، ولكن التشبه بهن فى هذه الفضائل مطلب يقرب المسلمة من ربها، ويهيئ لها عند الله تعالى أجراً حسناً.

● والقاعدة الجليلة الحكيمة فى الإنفاق على الأسرة، قد تضمنها قوله تعالى : ﴿ **لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** ﴾ [**الطلاق** : ٧].

وهذه القاعدة الحكيمة فى الإنفاق تقوم على أسس اجتماعية راشدة من أهمها ما يلى :

● أن الإنفاق مرتبط بسعة الرزق بشرط عدم الإسراف. وأن امتناع الزوج عن الإنفاق أو

تقتيره فيه لا يجوز لأن فيه مخالفة لمنهج الله تعالى.

- وأن من كان رزقه ضيقًا فليس مطالبًا بأكثر مما يستطيع لأن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا ما آتاها، وعلى أهله وذويه أن يصبروا على ذلك دون سخط.

- وأن الله تعالى يعد كل مضيق عليه فى الرزق أن يجعل له من بعد هذا العسر يسرا.

ولا تستقر الحياة الاجتماعية بأفضل من هذه الأسس.

٢ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، وكان ذلك على الله يسيرا، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحًا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقًا كريمًا**﴾ ما يلى:

أ – أن الله تعالى يحاسب خلقه جميعًا على مخالفتهم لأمره أو نهيه دون تفريق بينهم بين رئيس ومرءوس وكبير وصغير، وهذا هو العدل الذى يريد الله من خلقه أن يتعاملوا به، فإذا اختل هذا الميزان فسد المجتمع وساءت علاقات الناس بعضهم ببعض وحلَّ الخوف والقلق محل الأمْن والطمأنينة، ودليل ذلك أن زوجات الرسول ﷺ وهن فى أعلى مكانة بين الناس، يحاسبهن على الخطأ الذى قد يقعن فيه، بل يحاسبهن ويُعاقبن بضعف العقوبة التى تعاقب بها من ارتكبت نفس الخطأ من عموم المسلمات.

- وهذا العدل الإلهى يتضمن إقرارا وتأكيدا لمبدأ أن العقوبة على قدر مكانة صاحبها عند الله، كما أن المثوبة تخضع لنفس المقياس، لأن الله تعالى لا يحابى أحداً فى عقاب أو ثواب.

ب – وأن طاعة الله ورسوله، والعمل الصالح إذا صدرت من زوجات النبى ﷺ كوفئن عليه بأجر مضاعف «مرتين» تكريمًا لمكانتهن من رسول الله ﷺ، وليس فى ذلك محاباة وإنما هو عدل كذلك، لاجتهادهن ومداومتهن على الطاعة والعمل الصالح لمكانتهن من النبوة.

- وأن المسلمات جميعًا يتعلمن من هذا القانون متى يثاب الإنسان ومتى يعاقب، وأن المكانة الاجتماعية أو العملية أو الأدبية ينظر إليها فى قانون الثواب والعقاب، بحيث لا تخل بالعدل والمساواة فى الثواب والعقاب.

جـ – وأن ثواب الدنيا أو العقاب فيها، لا يلغى ثواب الآخرة ولا عقابها لأن الله تعالى

يضيف إلى ثواب الدنيا إعداد الرزق الكريم في الآخرة، ومن كرمه ورحمته بعباده أنه قد يغفر الذنوب، ويتقبل توبة من تاب، فيلغي عقاب الآخرة لو شاء.

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفًا، وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا، واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيراً**﴾ يتعلمون من هذه الآيات ما يلي:

أ – أن لين القول من النساء عندما يتحدثن إلى الرجال مرفوض لما قد يثيره في قلوب الأشرار والمنافقين، وأمثالهم ممن لا يخشون الله تعالى، فتحدثهم أنفسهم بالشر أو بالباطل، ومن أجل هذا كان لحديث النساء إلى الرجال في شريعة الإسلام أدب خاص، يجب أن تلتزم النساء عموماً، بل وزوجات النبي ﷺ على وجه الخصوص.

● وفي هذا الأدب في الحديث ما ينقي المجتمع من الشر والفساد ومن أولئك الضعاف التي تحدثهم أنفسهم بالشر لما في قلوبهم من مرض.

ب – وأن الأصل أن تقر المرأة المسلمة في بيتها إلا أن تدعوها حاجة إلى الخروج منه لبعض الضرورات أو الحاجات، وإنما كان ذلك هو الأصل لأن البيت سكن للزوج وللأسرة كلها، وكيف يكون سكنًا وصاحبته مغادرة له؟

● وهنا قد يتصايح من يزعمون أنهم أنصار المرأة والدعاة إلى أن تعمل المرأة وتتساوى بالرجل في العمل، وما دروا أنهم بتلك الدعوة يعادون المرأة ويحملونها ما لا تطيق من الأعباء، إذ يجمعون عبء العمل خارج البيت إلى أعبائها داخل البيت وهي أعباء كثيرة: الزوجية وتهيئة البيت والحمل والولادة والرضاعة والحضانة والتربية!! فأين أنصار المرأة أولئك الذين يريدون أن تقوم بكل هذه الأعباء؟

● على أن الخروج من البيت مشروط بعدم التبرج – أي إظهار ما ستره أحسن لها من جسمها أو زينتها أو ثيابها – لأن ذلك التبرج من شأن أولئك اللاتي لا أخلاق لهن، ممن كُنَّ يعشن في الجاهلية التي سبقت الإسلام.

وقد جاء الإسلام ليقاوم هذه الآفات الأخلاقية من تبرج ونحوه مما لا يليق بالمرأة المكرمة في الإسلام بالزوجية والأمومة ووجوب برها ورعايتها أما وزوجة وبنتًا وأختًا وعمة وخالة...

- ونسبة التبرج إلى الجاهلية يؤكد أنه مرفوض بكل حال وأن كل من يزعم غير ذلك متذرعًا بتحرير المرأة من قيود الملابس الضافية الساترة غير الواصفة، وغير الشفافة، أو بإعطائها الحرية الشخصية فى أن تلبس ما تشاء.. كل أولئك واهمون يحبون - على وجه الحقيقة - أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا بما يهيئون بهذا التبرج من فساد خلقى يؤدى إلى أسوأ النتائج فى المجتمع، أو ينتزع منه الفضيلة والعفة.

جـ- وأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله هى السبب الرئيس فى أن ينصلح الخلق ويستقيم السلوك، وبالتالى ينصلح المجتمع كله.

- وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإن كانتا داخلتين فى طاعة الله وسوله إلا أن تخصيصهما بالذكر يؤكد مزيد العناية بهما، لما للصلاة من أثر فى نهيها عن الفحشاء والمنكر، ولما للزكاة من أثر فى غرس المحبة والوئام فى نفوس الناس وسد حاجة المحتاجين فى المجتمع.
- إن المصلى يؤدى حق الله فى أمانة وإخلاص، فهو جدير بأن يؤدى حق الآخرين من أهل وأقارب وجيران، وبهذا ينعم المجتمع بالاستقرار الاجتماعى والاقتصادى والنفسى والأمنى.
- وإن المزكى يعرف كيف يؤدى ما فرض الله عليه من مال هو حق لأصحابه من مستحقى الزكاة، وهو بذلك جدير بأن يعرف حق المجتمع عليه فى ماله وما يملك، وحسب المزكى أن يطهر ماله بهذه الزكاة.

د - وأن الالتزام بطاعة الله ورسوله يطهر الملتزم بذلك من الآثام والخطايا، وتقربه من ربه، ويعرضه لرحمة الله تعالى ومغفرته ولهذه الطاعة مفهوم يجب أن يعرف على النحو التالى :

- طاعة الله ورسوله تعنى الالتزام بما أمر به واجتناب ما نهى عنه، وأى إخلال بشئ من ذلك هو إخلال بالطاعة.
- وطاعة الله ورسوله هى السبب فى النجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة، لأنها مفتاح رضا الله تعالى.
- وللطاعة عز وجاه يشعر به المطيع ولا يشعر به سواه، كما أن للمعصية ذلاً وانكساراً يجلل العاصين ويهوى بهم بل بإنسانيتهم من حيث لا يشعرون.
- وللطاعة لذة معنوية وربما مادية عند المطيعين وهم منشغلون بها، وربما ظن بعض الغافلين أن الطائع ينشغل عن ملذات الدنيا ومتعها، والحق أنه يشعر بلذة أكبر ومتعة أعمق.

● وطاعة الله ورسوله تولد فى النفس أنسًا بالله، وبهدى رسوله ﷺ، وإحساسًا عميقًا بحب الله للمطيع وعونه له وتوفيقه إياه، فمن أطاع الرسول ﷺ أحبه الله. ومن أحبه الله ملك بذلك الحب أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة.

● وقديمًا قال أسلافنا رحمهم الله تعالى: إن المطيعين يشعرون بجاه وعزة ومتعة ولذة، لو عرفها العصاة المتجبرون لقاتلوهم عليها بحد السيف.

هـ- وأن ذكر كتاب الله تعالى، وذكر سنة رسول الله ﷺ، بمعنى تذكرهما، وتذكر ما يدعوان إليه، والالتزام به، يطبع المطيع على الشعور بالرضا والأمن والطمأنينة.

● والذكر بمعنى التلاوة لكتاب الله تعالى هو عبادة لله تعالى، وقراءة أحاديث الرسول ﷺ والتدبر فيها وفى مقاصدها دروس عظيمة النفع وعبادة تقرب إلى الله تعالى، وترقق القلب وتجعله يستحضر المعانى الجليلة ويمتلئ بالطمأنينة والأمن، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨].

● وتوجيه الأمر لزوجات الرسول ﷺ بذكر ما يُتْلى فى بيوتهن من آيات القرآن وكلمات السنة النبوية، يدل على أن هذا الذكر يصقل العقل ويجلو القلب، ويزيد من الإحساس بالرضا والأمن والطمأنينة.

● وعلى المسلمين والمسلمات فى كل حين وكل مكان التأسى بهذا الهدى النابع من القرآن الكريم والنسة النبوية المطهرة.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

وهى مواقف كثيرة تستنبط من هذه الآيات الكريمة نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيمًا** ﴾ ما يلى:

أ - أن هذا الدرس العظيم مباشر فى حال الداعيات إلى الله من النساء، فهن يتعلمن منه أن النساء حتى وإن كن فى بيت النبوة، قد يطالبن أزواجهن بالتوسع فى النفقة، فيكلفن أزواجهن مالا يطيقون!!

وقد ورد ذلك فى الحديث الذى رواه مسلم بسنده عن جابر رضى الله عندما استأذن أبو بكر وعمر على رسوله ﷺ .. «فقال كل منهما لابنته: تسألن رسول الله ماليس عنده، فقالتا: والله ما نسأل رسول الله شيئًا أبدًا ليس عنده».

- والأدب الذى يستفاد من هذه الواقعة هى أن الزوجة لا يليق بها أن تسأل زوجها التوسع فى النفقة حتى تصل به إلى ما فوق طاقته.

وأن الزوج ليس له أن يقتر على أهل بيته وهو يستطيع التوسعة فى غير إسراف.

- وأن الداعية إلى الله وهى تتعامل مع المدعوات من النساء عليها أن تضع هذه الواقعة النبوية فى اعتبارها، فتوجه النساء إلى وجوب القصد والاعتدال فى الإنفاق وفيما تطلبه من زوجها.

- وأن المرأة المسلمة تتقرب إلى الله بهذا المقصد والاعتدال فى المعيشة، كما تتقرب إليه بسائر الطاعات، وذلك فى ميزان حسناتها، عند الله، وفى مكان التقدير من زوجها، مما يزيد من توثيق العلاقة بينهما، والابتعاد عن المنغصات للحياة الزوجية، إذ ليس أقسى على الزوج من أن تطالبه زوجته بنفقة لا يستطيعها، وكان أمله أن تقدر ظروفه وأن تطلب ما هو متاح.

- وأن الزوجة التى تتأدب بهذا الأدب فى التعامل مع نفسها وبيتها وأسرتها وزوجها، تتجنب وتجنب زوجها عناء أن يستدين ليستجيب لهذه المطالب، أو يحاول الحصول على المال من أى وجه فيقع فى الحرام، وينفق على بيته من الحرام، ويطعم أولاده من حرام، فيقع وتقع معه أسرته كلها فى مشكلات وصعوبات ومتاعب أكثر بكثير من مشكلة الرغبة فى النفقة التى لا تتحقق.

فإذا التزمت الزوجة ذلك فإنها فى طاعة الله تعالى، وهى فى ذات الوقت تحسن التصرف، وتصبر على ما لا تستطيع الحصول عليه، ولتحذر الزوجة وهى تطالب بالتوسع فى النفقة أن تنظر إلى ما تنفق سواها من الناس، فإنها أرزاق مقسومة من يوم كان الإنسان جنينًا فى بطن أمه ثم نفخت فيه الروح، فعند ذلك الزمن الباكر من حياة الإنسان يأمر الله تعالى بكتب عمله ورزقه وأجله وشقى هو أو سعيد، ثم ينفخ الله تعالى فيه الروح.

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل

ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكًا، ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح...» الحديث.

- على أن التمتع بطيبات الحياة الدنيا وزينتها ينبغى أن يكون بغير إسراف أو اختيال، فقد روى النسائى بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا فى غير إسراف ولا مخيلة».

ب – وأن الإقبال على الله ورسوله والدار الآخرة – أى العمل بما يرضى الله ورسوله، وبما يضمن حسن الجزاء فى الآخرة – يضمن للمؤمن عند الله أعظم الأجر، كما يهيئه فى الدنيا للنجاح والتوفيق، وما أحوج الدعاة إلى هذا التوفيق فيما يقومون به من أعمال الدعوة والحركة، والعمل من أجل تمكين دين الله فى الأرض.

- إنهم بهذا الإقبال على الله ورسوله والدار الآخرة يستمدون من الله العون فيما يواجهون من العقبات والمتاعب والأوجاع التى يواجههم بها أعداء الله الذين يتربصون بالإسلام ودعاته الدوائر.

والدعاة إلى الله دائمًا فى حاجة إلى عون الله تعالى ومدده فى مواجهة احتياج المدعوين الكثيرة التى يرغبون فى أن يسددها لهم، ولا يعين الدعاة والحركيين على ذلك مثل الإقبال على الله ورسوله والدار الآخرة.

٢ – ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿**يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، وكان ذلك على الله يسيرا**﴾ ما يلى:

أ – أن قانون الثواب والعقاب قانون إلهى عظيم يشجع على العمل الصالح، وينفر من العمل السيئ، وأن المجتمع الإنسانى لا يستقيم أمره ولا ينصلح حاله إلا بتطبيق هذا القانون فى الدنيا، لأن الله تعالى فرضه وجعل الجزاء عليه فى الآخرة أصلا، وإن كان الجزاء الدنيوى وارد كذلك.

- أما نوع العقاب ووقته وكَمُّه وكيفه فقد تكفلت به أحكام الشريعة ابتداء من العقاب على الكلمة التى تؤذى الإنسان فى عرضه إلى شرب الخمر إلى السرقة إلى القتل إلى ارتكاب فاحشة الزنى ونحوها.

- ولو التزم الناس بتطبيق قانون الثواب والعقاب كما شرعه الله لاستراح الناس من معظم الجرائم ومن أكثر أنواع الظلم، وحافظوا بتطبيقه على حقوق الإنسان.

● وأن هذا القانون العظيم لا يفلت من العقاب فيه أحد الجانين مهما تكن مكانته، وحسبنا يقينا بصدق هذه القاعدة توجيه هذا القرآن الكريم إلى زوجات النبى ﷺ : « يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ».

● وهذا درس عظيم النفع للدعاة إلى الله عندما يجدون أنفسهم أمام أقوام من أدعياء المقام الرفيع الذى تعطل بسببه العقوبات، سواء أكان هؤلاء ممن أعمتهم السلطة والجاه، أو ممن أطغاهم المال، أو ممن يزعمون أنهم من أهل الاتحاد والحلول والجذب وسقوط التكاليف الشرعية، إن هؤلاء جميعًا مغالطون يسغفلون الناس ويميزون أنفسهم على غيرهم من الناس، لأن الله تعالى جعل الناس جميعًا سواء فى الثواب والعقاب، ولا فضل لأحد فيهم على أحد إلا بالتقوى، أى الطاعة لله ولرسوله والعمل الصالح.

● وإنه لدرس عظيم النفع للدعاة إلى الله أنفسهم، عندما تحدِّث أحدَهم نفسُه بأن له رصيداً ضخماً فى العمل فى مجالى الدعوة والحركة، وأن هذا الرصيد قد يسمح له بأن يتقاعد أو يقعد عن بذل ما يستطيع من جهد ووقت ومال.

● حسب هذا الداعية إلى الله أن يتذكر أن زوجات النبى ﷺ يطبق عليهن قانون العقاب.

● وللدعاة والحركيين والعاملين من أجل الإسلام درس عظيم النفع فى حياة الصديق أبى بكر رضى الله عنه، فقد كان رضى الله عنه لا يأمن مكر الله أبداً، مع أنه راسخ القدم فى الإيمان والعبادة والعمل الصالح والجهاد بالمال والوقت والجهد والجاه والنفس، ومع كل ذلك فقد كان يخاف أن يقع فى قول أو عمل أو يكف عن قول أو عمل يستحق عليه عقاب الله، ولقد تمثل ذلك فى قول مأثور عنه هو : « والله لو وضعت إحدى قدميّ فى الجنة ما أمنت مكر الله » وظل رضى الله عنه يعمل ويجاهد وهو مَنْ هو فى صحبته لرسول الله ﷺ وفى جهاده وصالح عمله حتى لقى الله.

● وقد روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ خاف أَدْلج[1]، ومَنْ أَدْلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة ».

● وإن الدعاة إلى الله ينبغى أن يبذلوا أقصى ما فى وسعهم من جهد فى كل مجال يستطيعون العمل فيه من مجالات العمل من أجل الإسلام، ثم عليهم أن يواصلوا العمل فى هذا المجال دون توقف، راجين رحمة الله تعالى، غير آمنين أن يقعوا فيما يوجب

---

(١) أدلج : أى سار فى أول الليل، أو سار الليل كله، والمعنى أنه احتاط لأمر نفسه قبل أن يواجهه الخطر.

عقابهم،، وذلك معناه أن يعيشوا حياتهم ويمارسوا عملهم بين الخوف من الله تعالى والرجاء فى رحمته ومغفرته سبحانه.

ب – ويتعلمون من هذه الآية الكريمة أن الوقوع فى الخطأ والإثم فى مجالات الدعوة والحركة والعمل من أجل الإسلام وارد على كل عامل، واحتمالاته عديدة لأن فروع العمل كثيرة، ومراحله عديدة، وخطوات كل مرحلة أكثر وأكبر وفى كل تقصير فى شئ من ذلك خطأ قد يصل إلى حد الإثم، بل إن التقصير فى استيعاب فقه الدعوة وفقه الدعاة وفقه المدعوين خطأ فقد يصل إلى درجة الإثم كذلك(١).

- إن كل هذه التفصيلات فى فروع الدعوة والعمل من أجل الإسلام، قد يتعرض الدعاة والحركيون – مهما أوتوا من الخبرة السابقة – للوقوع فى الخطأ، فيكونوا من ذلك على حذر، وليسددوا وليقاربوا ما وسعهم، وليخشوا أن يعتبروا أنفسهم – لطول خبرتهم وقديم سابقتهم – فوق مستوى التقصير أو الوقوع فى الخطأ.

- وليكن الدعاة إلى الله على حذر من زلة العالم، وتقصير العارف، واغترار المجتهد بعمله – لفرط ما اجتهد فيه – وليحذروا أن يرضى أحد منهم عن نفسه أو عمله مهما قدم ومهما جَدَّ وجاهد، فإن طريق الدعوة إلى الله بعيدة الغاية رفيعة القدر مكلفة وغالية لأنها تفضى إلى أغلى سلعة وهى الجنة.

- وليحرص الدعاة إلى الله والعاملون من أجل الإسلام على أن يحملوا معهم فى هذا الطريق الزاد الذى يستعينون به على المضى فى الطريق، وهو زاد ضخم ولكنه لابد منه، وقد نبه الله تعالى على هذا الزاد ووصفه بأنه خير زاد فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ١٩٧]. أى اجتهدوا فى فعل الخير وطلب الأجر من الله تعالى بالعمل الصالح مع إخلاص النية، وتزودوا لطريقكم هذا بالتقوى والائتمار بأمر الله واجتناب نهيه، فإن ذلك هو خير الزاد، واستشعروا دائماً خشية الله تعالى فى كل أمركم، أى لا تشوبوا أعمالكم ولا أقوالكم بدواعى الهوى.

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً**﴾ ما يلى:

(١) لمعرفة تفاصيل ما يخص الدعوة والدعاة والمدعوين: انظر لنا: فقه الدعوة إلى الله – نشر دار الوفاء بمصر ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م وهو كتاب موسع فى هذا الموضوع.

أ – أن طاعة الله تعالى فى كل ما أمر به وما نهى عنه، مع العمل الصالح، وفق شريعة الله ومنهجه، له عند الله أعظم الأجر وأحسنه، ويعد هذا الأجر بالنسبة لصاحبه يوم القيامة من الرزق الكريم أى الكبير الخالص الدائم.

- هذه حقيقة كبرى ومهمة، وهى من الحقائق التى جاء بها الإسلام الحنيف، وفى ضوء هذه الحقيقة ينبغى أن يتنبه الدعاة إلى ما يلى:
- إن شرط الأجر الحسن عند الله تعالى هو طاعة الله ورسوله وممارسة العمل الصالح وفق منهج الله تعالى.
- وأن شرط الحصول على الرزق الكريم عند الله تعالى يوم القيامة هو أيضًا طاعة الله ورسوله وممارسته العمل الصالح وفق منهج الله تعالى.

ب – وأن الدعاة إلى الله تعالى هم أولى الناس بطاعة الله ورسوله والعمل الصالح، إذ هم الدعاة إلى ذلك والمشجعون عليه، بل أولى الناس به وبالجذب إليه والحث عليه، مهما كان ذلك مكلفًا لهم ماداموا مستطيعين.

- والقنوت لله ورسوله فى الدعوة إلى الله يستوجب عملاً دائبًا، وصبرًا جميلاً، وحسن تقدير للعمل وللمدعوين، وحسن تقبل لتدرجهم فى مراحل الدعوة ودرجاتها، كما يتطلب حسن استيعاب لوسائل الدعوة من:

– حكمة تضع كل شئ فى موضعه الصحيح، وكل إنسان فى مكانه الملائم له، وكل جهد أو تضحية فى موقعه الصحيح.

– وموعظة حسنة تقوم على دعامتين:

– التذكير بالخير وتحبيب الناس فيه والتنفير من الشر وكف الناس عنه بكل وسيلة ممكنة.

– والجدال بالطريقة التى هى أحسن فى ذاتها وبالنسبة لكل من يدخلون معه فى جدال يستهدف توضيح الحق وإحقاقه وذلك لمواجهة أو مجادلة المترددين والمنكرين والمعاندين.

- وعندما يستجيب الدعاة إلى الله إلى هذه الطاعة لله ورسوله فإنهم يحظون بالأجر من الله تعالى على مستويين:

– فى الدنيا بالعون والتوفيق والتأييد والنصر، وذلك ما يحتاج إليه الدعاة وهم يسعون فى موكب الدعوة، وما يعترض هذا الموكب من عقبات، بل إن الحرمان من هذا النوع من

الأجر يؤدى إلى الفشل والإخفاق، وهذا الإخفاق أضر على الدعاة وعلى العمل نفسه من أى اعتبار آخر.

– وأجر فى الآخرة بما يدخر الله تعالى لأوليائه وناصريه من جنات النعيم، وذلك أكرم الأجر وأشرفه، ولذلك عبر عنه القرآن الكريم بالرزق الكريم.

والرزق الكريم هو رزق الجنة، وهو الوفير الكافى، وكريم بمعنى أنه أفضل جنسه.

● والحديث والوعد فى الآية الكريمة لنساء النبى ﷺ، ولكن العدة تنال كل من قنت لله ورسوله وعمل صالحًا، وإنما تخص نساء النبى ﷺ بأنهن يُؤجرن مرتين، كما كان عذاب من قصر منهن ضعفين من العذاب. وقد سبق أن أوضحنا غير مرة بأن العبرة فى آيات القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

● وأعتدنا – كما قلنا آنفًا – أعددنا – والمعنى والله أعلم أن الله تعالى أعد الرزق الكريم فى الجنة لمن يستحقه من عباده الصالحين قبل يوم القيامة كرمًا منه حتى يكون جاهزًا فى استقباله، وذلك تشويق للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن لهم فى الجنة منذ أن آمنوا وعملوا الصالحات مكانًا ومكانة، لأن الله تعالى قادر على أن يأجرهم بهذا الرزق الكريم بمجرد دخولهم الجنة، ولكنه التشويق لمن لا يزالون فى الدنيا والحث لهم على طاعة الله ورسوله والعمل الصالح.

٤ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفًا** ﴾ ما يلى:

أ – أن الكلام الليّن الخاضع، والصوت المرخَّم الصادر من النساء عند مخاطبتهن الرجال محظور شرعًا، لأن الله تعالى نهى عنه، وكذلك شأن الرجال وهم يحادثون النساء، فلا يجوز لهم أن يكون كلامهم إليهن من النوع الذى يثير الارتياب أو الشك فى سلامة النية، لأن لبعض الرجال كلاما فيه من الميوعة والتكلف ما يدل على قصد السوء.

● والقاعدة العامة التى تحكم لغة التخاطب بين الرجال والنساء من المسلمين والمسلمات، والتى وضعتها الشريعة لحماية المجتمع المسلم من الشر والخنى، ولمقاومة أسباب الزنى ودواعيه وهى قاعدة يلتزم بها الأتقياء من المؤمنين والمؤمنات هى: أنه لا يجوز لمؤمن ولا لمؤمنة أن يصنع شيئًا قولا أو فعلاً، عملاً أو تركًا يثير الارتياب والشك ويحرك حوله

الشبهات، لأن من اتقى الشبهات اتقى الحرام ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام.

- ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، وكل مؤمن أو مؤمنة مطالب باتقاء الشبهات.
- وأن القائلين بوجوب أن تتحدث المرأة إلى الرجل بصوت خشن أو أَجَشَّ أو يُنَفِّر، ليسوا على صواب لأن ذلك تكلف وتشبه بقبيح أصوات الرجال، ولا دليل لهم على ما قالوا من كتاب أو سنة ولا إجماع، والعبرة فى حديث المرأة إلى الرجل - كما أوضحنا - ألا يكون هناك خضوع فى القول يطمع الذى فى قلبه مرض، ولا حاجة لنا إلى غير القرآن الكريم.
- أقول هذا لأن كثيراً من ادعياء العلم يذهبون فى حديث المرأة إلى الرجل مذاهب لا سند لها فى أصول شريعتنا السمحة الغراء.
- وأوضح ما يمكن أن نصل إليه فى ذلك هو لا يخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض، وكل امرأة مسلمة تعرف متى يكون فى كلامها خضوع بالقول يطمع المريض خلقيًا ونفسيًا واجتماعيًا، وحسبنا هذا فى هذا المجال.

ب - وأن القول المعروف الذى أمرت زوجات النبى أن تقوله، هو القول الذى لا ينكره السامع على المتكلم فى لفظه أو معناه.

- وللعلماء فى تفسير القول المعروف فى هذه الآيات أقوال نذكر منها ما يلى:
- قال بعضهم: هو الصواب الذى لا تأباه الشريعة، ولا ترفضه العقول الصحيحة والفطر المستقيمة، أى لا يشتمل على لفظ نابٍ أو بذئ - كما أوضحنا ذلك عند تفسير الآية الكريمة...
- وقال بعضهم: هو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، وتلك مهمة الدعاة إلى الله والداعيات إلى الله، أى أن الآية تأمر بممارسة الدعوة إلى الله، وهذا أحسن أنواع القول المعروف، لأن من يدعو إلى الله يغترف من فيض القرآن الكريم، وبحر السنة النبوية المطهرة، ولا قول معروف يساوى هذا فضلاً عن أن يفضله.
- وقال بعضهم: القول المعروف أى الذى يتجنب كل ما يعيب الكلام، أى أن يحسن اختيار الكلمات والألفاظ، وقد علَّمنا ذلك رسول الله ﷺ، وذلك فى الحديث الشريف الذى رواه البخارى بسنده عن سهل بن حنيف رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقل أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لَقِسَتْ». ورواه مسلم أيضاً بسنده عن سهل

بن حنيف أيضًا.

● وكم من مدعو جذبته كلمة عذبة مختارة بعناية،وكن من مدعو صرفته عن الاستجابة للحق كلمة غليظة لم يحسن صاحبها أن يختارها!!!

٥ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة، وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله أن ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ ما يلى:

أ – أن الأصل فى المرأة المسلمة أن تقر فى بيتها، ما لم تكن لها حاجة تقتضى مغادرتها للبيت، فإن خرجت لهذه الحاجة فليس لها أن تظهر محاسن جسمها أو ثيابها أو زينتها، أو أن تظهر ما يكون ستره أفضل لها، فإن أظهرت شيئًا من ذلك فهذا هو التبرج المنهى عنه.

● وإنما نهيت المرأة عن التبرج لما فى ذلك من الدعوة إلى غض البصر ومنع أسباب الزنا ودواعيه.

● وكل تبرج من المرأة فإنه إشاعة لنوع من الفساد فى المجتمع وذلك أشبه بأخلاق من كنَّ فى الجاهلية الأولى قبل أن يمن الله تعالى على البشرية بدين الإسلام التام الكامل الخاتم الذى رضيه الله للبشرية كلها دينا ومنهجًا، حتى يقوم الناس لرب العالمين.

● ومقاومة الإسلام لتبرج المرأة جزء من إصلاح المرأة، وإصلاح المرأة هو إصلاح الأسرة لأن المرأة ركيزة الأسرة وقاعدتها التى يعود إليها سائر أفرادها للسكن والاستقرار بعد كفاح يوم أو أيام للحصول على ما تحتاج إليه الأسرة.

وإصلاح الأسرة إصلاح للمجتمع كله، ومنهج الإسلام فى الحياة يُعنى بوضع نظام دقيق وشامل لكل مرفق من مرافق الحياة والمرأة والأسرة أهم هذه المرافق.

● ويخطئ من يظن أن منهج الإسلام قد عنى بجانب من حياة الناس دون جانب أو أكثر من جانب، لأن ذلك يتناقض مع طبيعة هذا المنهج التى تتمثل فى تمام المنهج وكماله وقدرته على حل جميع المشكلات التى يعانى منها الناس، والمرأة والأسرة على رأس هذه القضايا التى اهتم المنهج الإسلامى بها ووضع لها من النظم والآداب ما يصلح به الحياة الإنسانية كلها.

ب – وأن ما طولبت به زوجات النبى ﷺ من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله هو الحوافظ التى تحفظ للمجتمع ولمن يعيش فيه حقوقه وتيسر عليه القيام بواجباته، وتهيئ له الحياة الإنسانية الكريمة اللائقة بتكريم الله تعالى للإنسان.

● وكل مسلم ومسلمة مطالب بما طولب به زوجات النبى ﷺ من إقامة الصلاة لينتهى أفراده عن الفحشاء والمنكر، وإيتاء الزكاة لدفع الحاجة عن المحتاجين، وطاعة الله ورسوله فى كل ما جاءت به الشريعة من أحكام وأخلاق وآداب، لينعم الناس بحياة آمنة مطمئنة يرفرف عليها العدل، وتنتشر فيها الحرية، ويحظى فيها الإنسان بكل حقوقه.

● وإذا كانت هذه الأوامر التى وجهت إلى زوجات الرسول ﷺ من القرار فى البيت وترك التبرج وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله تستهدف أن يذهب عنهن الرجس والإثم والمعصية ويطهرهن منها...فإن هذه الأوامر موجهة كذلك لكل مسلم ومسلمة فإذا التزموا بها ذهب عنهم الرجس والمعاصى وعاشوا الحياة الإنسانية الكريمة.

جـ – ويفهم الدعاة إلى الله من هذه الآية الكريمة أن الدعوة إلى الله فى محتواها العام بل فى تفصيلاتها الدقيقة قد لخصت فى هذه الآية الكريمة وقامت على الدعائم التالية :

● أن تستقر المرأة فى البيت لتبنى الأسرة بناء صيحًا.

● وأن يقيم الناس الصلاة لينتهوا بها عن الفحشاء والمنكر.

● وأن يؤتى الناس الزكاة ليتراحموا ويتعاونوا ويتكافلوا.

● وأن يطيعوا الله ورسوله فى الأمر والنهى، والالتزام بمنهج الإسلام فى كل شعبة من شعب الحياة.

● ذلك أهم ما يدعو إليه الدعاة إلى الله، وبه يستطيعون جمع الناس على الخير والحق والهدى، وأن يجدوا فى منهج الله حلا لكل مشكلة وإجابة عن كل سؤال، وبه يعيش الناس فى أمن وطمأنينة وسعادة، وتلك أهداف منهج الله فى كل زمان ومكان.

٦ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى : ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة، إن الله كان لطيفًا خبيراً** ﴾ ما يلى :

أ – أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما المرجعية الكاملة للإسلام، وأن كل

مسلم ومسلمة يجب أن يكون على تذكر لهما والتزام بما جاء فيهما.

- كما يجب أن تنشغل القلوب والعقول بهما وبما فيهما تدبراً وتأملاً وتأسيًا، وأن تنشغل الألسنة بهما تلاوة وعبادة ليعيش الإنسان فى ظل ما جاء فيهما حياة إنسانية كريمة.
- ومكانة السنة من القرآن الكريم مكانة تفصيل المجمل وتفسير الغامض وتوضيح المبهم – وإن كان القرآن الكريم لا غموض فيه ولا إبهام إلا على بعض المسلمين – أما جملته فإن الله تعالى يسره للذكر، ونادى بذلك قائلا سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ [**سورة القمر: الآيات: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠**].
- وقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن فحفظ لنا السنة النبوية كذلك، بدليل أنه ليس فى تاريخ الأنبياء والمرسلين من عرفت سيرته بهذا التفصيل سوى محمد ﷺ، وقد هيأ الله تعالى للسنة رجالا جمعوها ووثقوا كل كلمة فيها، فلقد أصبحت كتب فى السنة مثل البخارى ومسلم والترمذى و.... إلخ وغيرها من أصح الكتب وأدقها ومن أثبت ما سجل فى تاريخ الإنسانية(١).
- والقرآن الكريم تلاوته عبادة والتمسك بما فيه سعادة فى الدنيا والآخرة.
- والسنة النبوية المطهرة دستور الإسلام وفى معرفتها والعمل بما جاء فيها نجاح وفلاح وفوز فى الدارين.

ب – وأن الله تعالى قد طلب الذكر والتلاوة للقرآن الكريم والسنة النبوية من زوجات النبى ﷺ وهن فى بيت النبوة وعلى أوثق الصلة بمصدر الخير والهدى ﷺ، فما بال سائر المسلمين والمسلمات؟

جـ – وأن الله تعالى لطيف فى إسداء النصح لعباده فيما يأمرهم به وفيما ينهاهم عنه، وأنه تعالى خبير بما يصلح الناس فى الدنيا والآخرة.

- ومن أجل ذلك كله تكفل الله تعالى بحفظ القرآن بنفسه ولم يستحفظ عليه العلماء كما كان الشأن مع الكتب السماوية الأخرى: التوراة والإنجيل، فقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [**الحجر: ٩**].

وهذا كله هو معنى: ﴿**إن الله كان لطيفًا خبيراً**﴾.

---

(١) لمعرفة الجهود التى بذلت فى جمع السنة وتوثيقها انظر موجزاً سهلا لنا فى ذلك هو: التعريف بسنة الرسول ﷺ أو علم الحديث دراية نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة ط ٣ / ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

٧ - الآية الخامسة والثلاثون

بناء الشخصية المسلمة

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

- اشتملت هذه الآية الكريمة على صفات للمسلمين والمسلمات إذا توافرت فى أصحابها كان كل منهم لبنَةً صالحة فى بناء المجتمع المسلم، بل كان كل واحد أو واحدة ممن يتصف بهذه الصفات سياجًا متينًا للحياة الإسلامية الراشدة، تلك الحياة التى أوضح الإسلام أبعادها، وحدد أهم خصائصها.
- وهذه الآية الكريمة قد جمعت كل هذه الصفات التى لابد منها ليعيش الناس فى أمن وطمأنينة وكرامة وحرية ومحافظة على حقوق الإنسان على المجتمع.
- وقد تضمنت هذه الآية الكريمة خبراً مؤكداً بأنَّ محتواه أن مَنْ اتصف بهذه الصفات فقد أصبح من المسلمين الذين يرضى الله تعالى عنهم، ومن القادرين على الإسهام فى بناء مجتمع مسلم راشد فى الحياة الدنيا، وفى الآخرة.
- وهذا المسلم بهذه الصفات قد أعدَّ الله له مغفرة لذنوبه، وأعدَّ له رزقًا كريمًا فى الجنة، وسنوضح ذلك بعون الله تعالى فيما يلى:

- **﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين .... ﴾** الآية.

- جمعت هذه الآية الكريمة الواحدة الصفات العشر التالية:

الإسلام،

والإيمان،

والقنوت،

والصدق،

والصبر،

والخشوع،

والتصدق،

والصوم،

وحفظ الفرج،

وذكر الله كثيراً.

● وإذا جمعت هذه الصفات فى مسلم أو مسلمة كان ذلك دليلاً على أن شخصيته الإسلامية قد استوفت عناصرها الأساسية، وأنها شخصية متكاملة البناء، وأنها بهذه الصفات تستطيع أن تسهم فى بناء مجتمع مسلم قادر على ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة فى أرقى منازلها، وأعلى درجاتها، وأكثرها قدرة على التعامل مع الناس والأشياء والحياة نفسها، ومع قوى الخير أو الشر فى المجتمع.

● ومن منظور آخر، فإن كل صفة من هذه الصفات إذا لم تتوافر فى المجتمع أَخَلت به وبنظمه وبالعدالة فيه، وتسببت فى تضييع الحقوق ووقوع الظلم والغش والفاحشة.

● ولكل صفة من هذه الصفات العشر تعريف ورسم أبعاد أَوَدَّ أن أوضحه فى إيجاز فيما يلى:

١ - صفة الإسلام:

● هذه الصفة تعنى إسلام الأمر كله لله، والاستسلام له سبحانه باتباع منهجه والالتزام بكل ما فى هذا المنهج.

هذا هو مجمل الإسلام.

● أما مفرداته فقد تكفلت بتوضيحها سنة الرسول ﷺ، فقد روى مسلم بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا».

● وفى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى بأسانيدهم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله.....» الحديث.

● ومن استجمع مفردات الإسلام الخمسة الواردة فى الحديث مخلصًا نيته فى كل منها محسنًا عمله بكل واحدة منها، فقد صح إسلامه وحُسن، وعليه أن يستكمل الصفات التسعة الأخرى.

٢ - صفة الإيمان:

● الإيمان هو التصديق بكل ما جاء من عند الله تعالى، وهو نتيجة للإسلام فمن أسلم أمره لله واستسلم له ولمنهجه فقد آمن، هذا مجمل الإيمان.

● أما تفصيله ومفرداته فهى كما جاءت فى السنة النبوية المطهرة فقد روى البيهقى فى شعب الإيمان بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وتؤمن بالجنة والنار، والميزان، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

● وبين الإيمان والإسلام أوثق صلة لأن أحدهما نتيجة وثمرة للآخر - كما قلنا آنفًا - إذ الإسلام إذا صح واستوفيت مفرداته وعناصره أنتج الإيمان.

٣ - صفة القنوت:

● القنوت هو الطاعة، أو لزوم الطاعة مع الخضوع لله تعالى، وقنت: أطاع الله تعالى وخضع له وأقر بالعبودية له.

● وكل قانت إنما نشأ قنوته عن صفة الإسلام وصفة الإيمان بعد أن توفرتا فيه واستجمع صاحبهما مفردات كل صفة وعناصرها.

● والقانت لله الراضى بما أمر به سبحانه، المجتنب لما نهى عنه. والقنوت يستلزم الإرادة الحرة المختارة، فليس قانتًا من أُكره على الطاعة والخضوع.

٤ - صفة الصدق:

● الصدق: الإخبار بالواقع، والصدق فى القتال: الإقبال عليه فى قوة، وصَدَق غيره النصيحة أخلص له. وصدقه الوعد: وَفَى بوعده.

● والصدق فروع كثيرة ومفردات عديدة، فمنه:

● الصدق مع الله، والصدق مع النفس، والصدق مع الناس، ومعنى ذلك أن يكون قوله وعمله مطابقًا لضميره ومطابقًا لما أخبر به أو أخبر عنه.

● والصدق تعبير عن فعل فاضل ظاهرًا كان هذا الفعل أم باطنًا.

● ومَنْ فَقَد الصدق، فَقَد الإيمان وفقد الانتماء إلى أمة الإسلام لقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ [**النحل**: ١٠٥].

٥ - صفة الصبر:

● الصبر هو حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل، وهو من ألزم الصفات للمسلم، إذ لا يستطيع المسلم أن يكون أهلاً لحمل أعباء هذا الدين إلا إذا صبر على اعتناق العقيدة الإسلامية التي يدين بها، وصبر على تحمل أعباء التمسك بهذه العقيدة، وأعباؤها كثيرة لكثرة أعدائها لأنها حق، وأعداء الحق كثيرون في كل زمان ومكان، وهذه العداوة ضارية تستهدف القضاء على العقيدة وعلى المؤمنين بها.

● والمسلم مطالب بالصبر على شهواته، فلا يصبر عليها إلا في الإطار الذي شرعه له الله تبارك وتعالى، ومطالب بالصبر على الناس وما يبدو منهم من شر، وبالصبر على الطاعة والصبر على المعصية.

● والمسلم مطالب بالصبر مع الذين يدعون ربهم ويلتزمون بمنهجه، وهؤلاء لصحبتهم أعباء ومشقات لابد من الصبر عليها قال الله تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا....** ﴾ الآية

[**الكهف**: ٢٨].

● والمسلم مطالب في مجال الدعوة إلى الله بالصبر على ما يواجهه به بعض المدعوين من قول ناب وعمل ظالم، كما قال الله تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ** ﴾ [**طه**: ١٣٠]. وقال جل شأنه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾

[**آل عمران**: ٢٠٠].

● وحسب الصابرين أنهم يوفون أجرهم بغير حساب، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [**الزمر**: ١٠]، أي أضعافًا مضاعفة لا تدخل في حساب الحاسبين.

٦ - صفة الخشوع:

- الخشوع هو الخضوع والذل والخوف، وخشع الإنسان به أى استكان وركع.
- والخشوع عمل قلبى، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح، بمعنى أن استشعار القلب هيبة الله تعالى وجلاله وتقواه سبحانه، مما يؤدى إلى خشوع الجوارح من سمع وبصر ولسان ويد ورجل، وخضوعها لمنهج الله والالتزام بما جاء فيه.
- والمؤمن الخاشع هو الخاضع لله تعالى ولمنهجه، ومن خضع لله تعالى خافه وخاف مخالفته أو الخروج عما أمر به أو نهى عنه فعامل نفسه وعامل أهله وجيرانه والناس من حوله وهو يتقى الله فيهم ويخاف عقابه.
- والخشوع من صفات المؤمن الرقيق القلب الرجاع إلى الحق، وهو دليل على الإسلام والإيمان والقنوت لله رب العالمين.

٧ - صفة التصدُّق:

- التصدق هو أن يُخْرِجَ الإنسان من ماله قَدْراً على وجه التطوع كالصدقة، أو على وجه الوجوب كالزكاة.
- والتصدُّق تنازل من الإنسان عن حقه أو بعض حقه لأخيه المسلم، دفعًا لحاجته أو تطييباً لخاطره وطلباً لألفته ومحبته، وهو خلق فاضل يعطف الغنى على الفقير، ويحبب الفقير فى الغنى ويطبع المجتمع بطابع الوئام والطمأنينة.
- وقد ورد هذا المعنى للتصدق فى القرآن الكريم فى عدد من الآيات الكريمة، فقد قال الله تعالى: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ....** ﴾ الآية [المائدة: ٤٥]. أى من عفا وتصدق بحقه فى القصاص على الجانى كان هذا التصدق كفارة له يمحو الله بها قدراً من ذنوبه.
- وقال جل شأنه: ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، أى أمهلوا المعسر أو تصدقوا عليه أى تنازلوا عن الدين أو بعضه، إن كنتم من أهل العلم، وأهل الفهم لخطاب الله إياكم فذلك من المرءوة والإنسانية.
- والتصدق بالحق أو بالمال دليل على التطهر من الشح، وعلى رقة القلب، ومعرفة حقوق

الفقراء والمساكين، وسائر أصحاب الحقوق، ودليل على فهم الأخوة فى الإسلام ومعرفة حقوقها وواجباتها.

- والمتصدق إنسان يحسن شكر الله على نعمه التى أفاء عليه بها، ومن شكر نعمة الله بالتصدق زاده الله من الرزق الحلال ووسع عليه، لأنه سبحانه وعد بذلك ولا يخلف الله وعده، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

٨ - صفة الصوم:

- الصوم فى الأصل: الإمساك عن الفعل، مطعمًا كان أو مشربًا، أو كلامًا أو مشيًا أو حركة...
- والصوم فى هذه الآية الكريمة يعنى بالإضافة إلى ما ذكرنا: الاستعلاء على الضرورات، والصبر عن الحاجات الأولية للإنسان.
- والصوم يعنى قوة الإرادة، وتغلب النزعة الإنسانية على النزعة الحيوانية فى الإنسان.
- وأعباء الصوم لا يتحملها إلا مسلم مؤمن قانت صادق صابر خاشع متصدق.
- والشخصية المسلمة لا يتكامل بناؤها إلا إذا كان الصوم أى قوة الإرادة إحدى صفات هذه الشخصية.

٩ - صفة حفظ الفرج:

- حفظ الفرج هو العفة عن الوقوع فى فاحشة الزنى أو نحوها كاللوط والسفاح ووسائل التعبير عن الغريزة الجنسية فى غير ما أحل الله تعالى.
- وكل ما يتصل بالغريزة الجنسية بين الرجل والمرأة وهى من أقوى غرائز الإنسان وأعمقها فى تركيب الإنسان وأشدها فى مطالب الجسد والميل الفطرى بين كل من الجنسين نحو الجنس الآخر، كل ما يتصل بهذه الغريزة نظمه المنهج الإسلامى نظامًا دقيقًا يحفظ استمرار النوع الإنسانى لتعمر الأرض وتستمر الحياة.
- ومن حفظ فرجه فقد تطهر من أى انحراف عن الإطار الذى وضعه المنهج الإسلامى لهذه الرغبة الجسدية بين الرجال والنساء.
- وليس من المقبول ولا من المشروع فى الإسلام أن يحفظ الفرج بمعنى الامتناع عن التعبير عن شهوة الفرج امتناعًا مطلقًا فيما يسمى رهبنة، فذلك خروج عن الفطرة التى فطر الله

الناس عليها، وهو فى الإسلام حرام منهى عنه فى عديد من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

- والآيات الكريمة والأحاديث النبوية فى وجوب الزواج كثيرة نذكر منها قوله تعالى: ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ....** ﴾ الآية [النساء: ٣]. وقوله تعالى: ﴿ **وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)** ﴾ [النور: ٣٢].
- وروى ابن ماجة بسنده عن عائشة رضى الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «النكاح سنتى، فمن لم يعمل بسنتى فليس منى، وتزوجوا فإن مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، ومن كان ذا طول فلينكح، ومن لم يجد فعليه بالصيام، فإن الصوم له وجاء».
- وروى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: لقد قال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».
- والقرآن الكريم يحرم الزنى ودواعيه وأسبابه ومقدماته، إذ يأمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر، ويطالب بتقوى الله فى الابتعاد عن هذه الجريمة التى سماها «الفاحشة»..

١٠ - صفة ذكر الله كثيراً:

- ذكر الله: هو الانشغال بالله تعالى واللهج بأسمائه وصفاته ليترطب بها اللسان ويطمئن إليها القلب وتخشع الجوارح.
- وذكر الله يعنى استشعار وجود الله تعالى ومراقبته سبحانه للإنسان وعلمه به وبكل ما يقول أو يعمل فى كل حين.
- وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذكره بل بالإكثار من ذكره، وجاء هذا الأمر فى عدد من أحاديث الرسول ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ.....** ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، أى أن ذكر العبد ربه أفضل من كل شيء.
- وقال تعالى: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].
- وقال جل شأنه: ﴿ **وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الجمعة: ١٠].

- وروى البخارى بسنده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره مثل الحىّ والميت».

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى: فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم».

- وتقييد هذه الصفة دون غيرها بأنها كثيرة، تعنى أن الأصل أن يكون ذكر الله تعالى مستمراً، وعلى كل حال وفى كل حين.

- قال مجاهد: لا يكون ذكر الله كثيراً حتى يذكره قائمًا وجالسًا ومضطجعًا.

- وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: من أيقظ أهله بالليل، وصليا أربع ركعات كتبًا فى الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق المفرِّدون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: ﴿**الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**﴾.

وبعد:

فإن اجتماع هذه الصفات العشر، أو وجوب اجتماعها فى كل مسلم أو مسلمة ليكون مسلمًا مؤمنًا قانتًا..... الخ يؤكد عدداً من الحقائق الهامة التى نشير إلى بعضها فيما يلى:

أولاً:

أن الإسلام ينظر إلى الرجل والمرأة نظرة سواء فى كل ما يتعلق بالتكاليف والواجبات الشرعية، كل منهما فيما فرض الله عليه، ويجمع بينهما فى وجوب توافر هذه الصفات العشر، من إسلام وإيمان وقنوت وصدق وصبر وخشوع وتصدق وصوم وحفظ للفرج، وذكر كثيرٍ لله تعالى.

وهذا يدل على أن الشريعة الإسلامية لا تختص معظم أحكامها بالرجال – كما كان ذلك فى شريعة التوراة باستثناء ما لا يتصور إلا فى النساء – وإنما يؤكد أن الشريعة الإسلامية في أحكامها ونظمها وقيمها الأخلاقية تعم الرجال والنساء إلا ما نص فيه على تخصيصه بأحد النوعين.

ثانيًا:

أن هذه الصفات العشر فى الرجل والمرأة لابد منها لتتكامل شخصية كل منهما فى المجتمع، وتستطيع أن تمارس الحياة الإنسانية الكريمة وتسهم فى بناء المجتمع المسلم القادر على أن يحقق لكل من يعيش فيه أمنًا وطمأنينة وإيجابية، وسياجًا قويًا يحميه من الجريمة والمجرمين.

وتلك الصفات العشر صفات أساسية فى المسلم أو المسلمة، لا يكون مسلمًا إن فقدها أو فقد بعضها، لأن فقدها أو فقد بعضها يسلب المجتمع أمنه وطمأنينته، ويهيئ للمجْرم والجريمة بيئة جيدة.

ثالثًا:

وأن هذه الصفات يترتب بعضها على بعض بحسب ورودها فى الآية الكريمة، ولتوضيح ذلك نقول:

- إن صفة الإسلام إذا صحت فى المسلم أفضت به أو أوصلته إلى الصفة الثانية وهى الإيمان.
- وكلا الصفتين الإسلام والإيمان تؤديان بصاحبهما إلى صفة القنوت لله تعالى وهى الصفة الثالثة.
- ومن توافرت فيه هذه الصفات الثلاثة كان صادقًا مع ربه ومع نفسه ومع الناس، وكان صادقًا فى المواقف التى تحتاج إلى صدق، وهو الصفة الرابعة.
- ومن استجمع فى شخصه هذه الصفات الأربع، كان بحاجة إلى الصفة الخامسة وهى الصبر ليواجه بها متطلبات الإسلام والإيمان والقنوت والصدق، فكل منها يحتاج من يتصف بها إلى صبر ليشق طريقه فى الحياة، وينال أجر الصابرين.
- ومن اتصف بهذه الصفات الخمس: الإسلام والإيمان والقنوت والصدق والصبر أصبح خاشعًا لله تعالى، عامر القلب بحبه، ملزمًا جوارحه بمنهجه، ومن خشع قلبه خشعت جوارحه، ومن خشعت جوارحه لله تعالى أمنه الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم لأن الله تعالى حرم التعرض للنفس والعرض والمال، والخاشع لله لا يرتكب أمرًا حرمه الله تعالى.
- ومن استطاع أن يجمع بين الصفات الست فى شخصه، تطهرت نفسه من الشح، وأنفق

المال فى وجوهه التى شرعها الله تعالى، وأسهم فى دفع الحاجة عن المحتاجين ومارس التعاون والتكافل مع من يعايشونه من الناس، وتلك هى صفة التصدق سابعة الصفات.

● ومن استوفى هذه الصفات السبع كان جديراً بصفة الصوم أى بقوة الإرادة والإمساك عن شهوات البدن والإمساك عن كل ما يغضب الله تعالى، والصائم فى درجة عالية عند الله إذ كل عمل ابن آدم له إلاّ الصوم فإنه لله وهو يجزى عنه أجزل الجزاء، وتلك هى الصفة الثامنة من الصفات العشر.

● ومن أصبح موصوفًا بهذه الصفات الثمانية تأهل لأن يحفظ فرجه عن الحرام، وأن يلجم هذه الرغبة القوية فى جسده نحو الجنس الآخر رجلا أو امرأة، واتجه إلى التعبير عن هذه الرغبة فيما أحل الله فكان عفيفًا طاهرًا، وتلك هى الصفة التاسعة من هذه الصفات العشر.

● وهذه الصفات التسع تجعل من اتصف بها ذاكراً لله كثيراً، فانفتح له بهذا الذكر باب النجاح والتوفيق والسعادة فى الدنيا والآخرة.

● وفى سبب نزول هذه الآية الكريمة: ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات...** ﴾ الآية، وردت أقوال العلماء التى نذكرها فيما يلى:

– روى ابن جرير والواحدى عن قتادة أن نساءً دَخلْن على أزواج النبى ﷺ فقلن: قد ذكركن الله فى القرآن(١)، ولم يذكر نا بشئ، ولو كان فينا خير لذكرنا، فأنزل الله هذه الآية.

– وروى النسائى وأحمد بسندهما أن أم سلمة رضى الله عنها قالت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال فانزل الله تعالي هذه الآية.

وروى الترمذى والطبرانى بسنديهما أن أم عمارة الأنصارية رضى الله عنها، أتت النبى ﷺ فقالت: ما أرى النساء يذكرن بشئ، فنزلت هذه الآية.

● وأيا كان سبب نزول هذه الآية الكريمة فقد سبق أن قلنا: إن العبرة فى آيات القرآن الكريم بعموم لفظها لا بخصوص السبب المباشر الذى أنزلت من أجله.

وبعد: فإن المتصفين بهذه الصفات من الرجال والنساء هم الذين يتمثل فى أشخاصهم منهج الإسلام تمثلا عمليًا، وهم الجديرون بأن يدعوا إلى الله ويجاهدوا فى سبيله، وهم أهل

(١) إشارة إلى الآيات التى نزلت فى زوجات النبى ﷺ.

التأييد من الله تعالى، وبهم وعليهم يتنزل النصر والفوز فى الدنيا، وكل تعوق للنصر بالنسبة للمسلمين فإن سببه أن هذه الصفات لم تتوافر فيهم.

وهؤلاء الموصوفون والموصوفات بهذه الصفات لهم - فوق ما أعطوا فى الدنيا - مغفرة عند الله يوم القيامة لذنوبهم أى ترك مؤاخذته على ما فرط منهم من الذنوب فى الدنيا.

ولهم أجر عظيم يتمثل فى الرزق الكريم الدائم المتصل فى الجنة.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآية الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآية الكريمة دروسًا عظيمة نذكر منها ما يلى :

١ - أن المسلم لا يكتمل إسلامه حتى يستوفى هذه الصفات العشر، التى اشتملت عليها هذه الآية الكريمة.

فليجتهد كل مسلم أن تكون هذه الصفات صفاته، فكل واحدة منها ترفع قدره عند الله تعالى، وتحبب فيه من يحيط به من الناس، إنه بهذه الصفات يصبح فردًا فى مجتمع آمن مطمئن جاد، ينصرف الأفراد فيه إلى عمل ما ينفعهم فى الدنيا، والآخرة.

٢ - وأن هذه الصفات العشر يكمل بعضها بعضًا ولا يغنى بعضها عن بعض، وأن اجتماع هذه الصفات فى الرجال والنساء تحفظ المجمتع من أى جريمة وأى انحراف عن الحق، بل تحميه من العيوب الاجتماعية والأخلاقية.

● وأن كل قصور فى صفة من هذه الصفات معناه أن الصفة التى قبلها فى ترتيب الآية الكريمة لم تكتمل فى صاحبها وأن عليه أن يكملها، وعلامة تكميلها أن تفضى إلى ما بعدها من الصفات، ولتوضيح ذلك نقول :

ليس كل مسلم مؤمنًا فالإيمان أخص من الإسلام، وليس كل مؤمن قانتًا، لأن القنوت أخص من الإيمان، وهكذا...

● ومع توافر هذه الصفات فى أفراد المجتمع : من إسلام وإيمان وقنوت وصدق وصبر وخشوع وتصدق وصوم وعفة وذكر لله كثير، فلا أحد ولا شئ يهدد المجتمع فى أمنه وطمأنينته وتكافل أفراده وتعاونهم على البر والتقوى.

٣ – وأن الذين يحرصون على أن يتصفوا بهذه الصفات العشر من الرجال والنساء ينالون نوعين من الجزاء الحسن:

أحدهما: دنيوى هو حب الناس لهم، وحبهم هم للناس والإحساس بالأمن والأطمئنان لكل ما يحيط به.

والآخر: أخروى أعده الله لمن اتصفوا بهذه الصفات وهو: مغفرة الذنوب والتجاوز عن الأخطاء، والرزق الكريم فى الجنة.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآية الكريمة ما نذكره فيما يلى:

١ – أن رأس مال الداعية إلى الله وكل عامل فى الحركة الإسلامية وزاده الذى يتزود به فى طريق الدعوة إلى الله والعمل على تمكين هذا الدين الخاتم فى الأرض هو أن تتوافر فيه هذه الصفات العشر التى سماها بعض العلماء: الدرجات العشر وهى تسمية جيدة لأن كلا منها درجة ينتقل إليها من صعد الدرجة التى تسبقها، حتى يبلغ الغاية وهى درجة: ذكر الله كثيراً.

- والدعاة أعرف الناس بقيمة التحلى بهذه الصفات وأدراهم بالجهد الذى يتطلبه التحلى بها، فعليهم واجب دعوى حركى فى هذا المجال هو أن ييسروا للناس التحلى بهذه الصفات ويشجعوهم على ذلك، ووسائلهم فى ذلك هى: الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن فى مجال الكلام والدعوة. والقدوة والتطبيق العملى لهذه الصفات فى مجال الحركة والعمل والتنظيم والتربية.

- وعلى الدعاة أن يؤكدوا للمدعوين أن التحلى بهذه الصفات يكسب صاحبه سعادة الدنيا بالعيش فى مجتمع آمن متعاون على البر والتقْوى، وسعادة الآخرة بمغفرة الذنوب والرزق الكريم فى الجنة.

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون أن المجتمع المسلم لا يتطهر من عيوبه، إلاَّ إذا اتصف أفراده بهذه الصفات التى تحقق له القيم الخلقية الرفيعة التى جاء بها الإسلام وتضمنها منهجه من تلك الصفات العشر التى تعد ضرورية لبناء حياة إنسانية كريمة.

● وأن الخطأ الكبير الذى يقع فيه الإنسان هو أن يعتبر هذه الصفات ثانوية أو كمالية فيأخذها ناقصة أو يأخذ بعضها ويدع بعضها.

● وعند التأمل فى هذه الصفات نجدها أهم صفات اجتماعية فى الإنسان، وأقدرها على رفع شأنه فى الحياة الدنيا والآخرة، وأولاها بغرس الوئام الاجتماعي، وتوجيه العلاقات الاجتماعية بين الناس نحو الأفضل والأصلح.

● وأن كل أنواع الخلل الاجتماعى، والقلق الأسرى والتنازع والاختلاف حول صغير الأمور وكبيرها إنما يرجع إلى فَقْد هذه الصفات.

وإذا فُقدت هذه الصفات العشر الطيبة، حلَّت محلها أضدادها من الصفات السيئة مثل:

التمرد، والكفر، والمعصية لله، والكذب، والجزع، والتجرؤ على إتيان الباطل، والخنى، والبخل، والعجز عن الإمساك عن المحارم والشهوات، مما يؤدى إلى العهارة والفاحشة، والغفلة عن ذكر الله تعالى.

● وأىّ داءٍ أَدْوَى من ذلك فى المجتمع الإنسان؟

إن ذلك جدير بتحطيم هذا المجتمع وإصابته بمختلف الأمراض، كما هو مشاهد فى مجتمعات الناس اليوم!!!

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآية أن المجتمع المسلم بل المجتمع الإنسانى كله، إنما يقوم على الرجل، والمرأة معًا ابتداء من اجتماعهما برابطة الزوجية التى فطر الله الناس عليها ليعمر من خلالها الأرض، ومروراً بتكوين الأبناء ذكوراً وإناثًا لتستمر دورة الحياة، واستمراراً فى تعهد الأبناء وإعدادهم لممارسة الحياة الإنسانية الكريمة، وعملاً متواصلاً تسوده روح التعاون على البر والتقوى، ورفض أى تعاون على الإثم والعدوان.

● وكل دعوى أو عمل أو مؤتمر يقلل من شأن الأسرة فضلاً عن أن يهمشها أو يلغيها مناقض للفطرة التى فطر الله الناس عليها، ومقوض لدعائم المجتمع الإنسانى.

● ويخطئ خطأً فاحشاً من اعتبر المرأة هامشية فى الأسرة أو فى المجتمع، أو يراها ذات منزلة ثانوية فى الحياة أو حرمها شيئًا من حقوقها التى جاءت بها شريعة الإسلام.

● وليس على صواب من بالغ فى حرية المرأة وأعطاها منها ما أفسد عليها حياتها، فلا حرية بغير نظام، والنظام قيد، واحتراز عن خطأ، فلا حرية بغير قيود، وإلا صار الناس فوضى

وداسوا على حريات الآخرين.

٤ - وأن الأسرة أساس المجتمع، والأسرة فى بدايتها رجل وامرأة، الأسرة بكل ما تعطيه لأفرادها والمتصلين بها والمجتمع كله، من قيم، وما تحيط هؤلاء وأولئك من رعاية وعناية، ومن تحديد واضح مأثور لمعالم السيرة الإنسانية فى الحياة الدنيا، وهى الأمينة على ذلك كله.

- الأسرة بهذه المعطيات إنما تعتمد على المرأة والرجل معًا إذ لكل منهما فى الأسرة عمل جوهرى رئيس فى مَدِّ هذه الأسرة بمقوقات حياتها واستمرارها فى الحياة إلى أن يشكل أفرادها أسراً جديدة، وهكذا....

- والذين يزعمون أن المرأة مغبونة أو مهضومة الحقوق فى ظل شريعة الإسلام يحركهم إلى هذا الزعم إما جهل بالإسلام إن أحسنا بهم الظن، وإما حقد على الإسلام يدعوهم إلى المغالطة والتضليل، ونحن لا نجهل أن أعداء الإسلام والمسلمين كثرة قادرة على بث الباطل فى أوسع أمدائه، ولا نجهل أن أعداء المسلمين قد ينضم إليهم فى هذا العداء بعض المخدوعين الغافلين من المسلمين الذين يتهجمون على الإسلام ونظمه جهلا منهم بالإسلام أو تقربًا إلى أعداء الإسلام الذين يملكون المكافآت والرتب والمناصب والجاه والمال.

نحن لا نجهل ذلك، ولكنا نؤمن بأن الحق أبلج وأن الباطل لَجْلَج، ولن يكون لأصواتهم وكتاباتهم وتجنياتهم إلا ما يكون لسحب الصيف.

- إن الذين يزعمون أن المرأة فى الإسلام مهضومة الحقوق يستدلون على ذلك بحالات فردية فى مجتمعات بعيدة عن نظام الإسلام وشريعته، يرفضون أن ينظروا فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ليعرفوا الحق فى قضية المرأة، ويقفوا بأنفسهم - إن كانوا من طلاب الحق والمعرفة - كيف رعى الإسلام المرأة منذ كانت وليدة فجعل فى تربيتها ورعايتها ثمناً غاليًا هو الجنة، ورعاها أختًا تمتع بعناية أخيها، وزوجة تمتع برعاية زوجها، وأمًّا لها كل البر وكل الاحترام والتقدير.

- وكذلك شأن العمة والخالة فهما أم، وبنت الأخ والأخت كالبنت الصُّلْبيَّة فى كثير من الحقوق. وأما الجدة فهي أم على وجه الحقيقة فى كثير من أنواع البر والتقدير.

- إن الإسلام أعطى للمرأة من الحقوق ما يتمنى منصفو الغرب أن تكفله نظمهم للمرأة عندهم، كما أوجب عليها من الواجبات ما تؤدى به وظيفتها فى الحياة خير أداء[١].

(١) للتوسع فى معرفة ذلك انظر لنا: المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله نشر دار الوفاء ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

- والذين يحبون أن ينتقصوا من الإسلام ومنهجه، وأن يزينوا كثيراً من حقائقه ونظمه التى جاء بها للبشرية كلها إلى يوم الساعة، هؤلاء نرجوهم – إن كانوا يبحثون عن الحق – أن يرجعوا إلى القرآن الكريم قراءة متدبرة لآياته خالية من التعصب والتحامل، حيث يجد كل منصف منهم من عناية الإسلام بالمرأة ورعايته لها ما اشتملت عليه سور كاملة من القرآن كسورة النساء أو جاء فى كثير من السور الأخرى مثل :

سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة مريم، وسورة النور، وسورة النمل، وسورة القصص، وسورة الأحزاب، وسورة الأحقاف، وسورة الحجرات، وسورة المجادلة، وسورة الممتحنة، وسورة الطلاق، وسورة التحريم.

فهذه السور الكريمة تحدثت عن المرأة حديثًا مباشراً يوضح حقوقها وواجباتها والأحكام الشرعية الخاصة بها أما سائر سور القرآن الكريم فإن كثيراً من الأحكام التى جاءت فيها عامة فى الرجال وفى النساء.

- وأما السنة النبوية المطهرة فقد جاءت فيها ألوف الأحاديث النبوية الخاصة بالمرأة أو العامة فى الرجل والمرأة، يخيل طلاب الحق والمعرفة على أى كتاب من كتب السنة المعتمدة كالبخارى ومسلم والترمذى والنسائي وأبو داود وابن ماجه وموطأ مالك ومسند الدارمي، وغيرها مما هو معروف وميسور لأى قارئ، ليجد المنصف فى أى كتاب من كتب السنة ما ينفى هذه التهم وتلك الأباطيل.

- فإن لم يكن هؤلاء المتحاملون من طلاب الحق والباحثين عنه ممن شغلهم الباطل والضلال، فنسأل الله لهم الهداية والخروج من مأزق التحامل على دين الحق، إنه سميع مجيب.

- وبعد : فإن المرأة المسلمة مثل الرجل فى بناء الأسرة، والمجتمع، ولكن بشرط أن تتوافر فيهما تلك الصفات العشر التى أثنى الله على المتصفين بها وأعد لهم مغفرة ورزقًا كريمًا، إنه سبحانه على ما يشاء قدير.

٨ - الآيات من السادسة والثلاثين إلى الآية الأربعين

حق الرسول ﷺ على المؤمنين وواجبه نحوهم

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦ - ٤٠].

- تضمنت هذه الآيات الكريمة عدداً من الأحكام التى تتعلق بمكانة الرسول ﷺ بين المسلمين.

وقصَّت الآيات تزويج النبى ﷺ لزينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ من زيد بن حارثة ابنه بالتبنى - قبل إلغاء التبنى - وما ترتب على ذلك من طلاق زيد لزينب، ثم تزوج الرسول ﷺ من زينب بأمر من الله تعالى لإقرار حكم شرعى هو جواز تزوج مطلقة الابن بالتبنى، وتأكيد أن محمداً ﷺ ليس أبًا لأحد من رجال المؤمنين على وجه الحقيقة ولكنه رسول الله وخاتم النبيين.

- وقد اشتملت الآيات الكريمة على أخبار، وعلى أساليب شرط، وعلى أكثر من أمر، مما سنوضحه بعون الله فى شرح هذه الآيات الكريمة:

- ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ﴾.

- روى قتادة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش - وكانت ابنة عمته، فظنَّتْ أن الخطبة لنفسه - ﷺ - فلما علمت أنه يريدها لزيد،

كرهتْ وأبتْ، فنزلتْ هذه الآية. فأذعنت زينب وتزوجت زيداً – رضى الله عنه – وكان ذلك فى مكة قبل الهجرة – ومعنى ذلك أن هذه الآية نزلت فى مكة قبل الهجرة.

● وقيل: إن الآية نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، وكانت وهبت نفسها للنبى ﷺ فزوجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك، فنزلت الآية فتزوجت زيداً – وكان ذلك بعد طلاق زيد لزينب – رضى الله عنهما، فولدتْ أم كلثوم لزيد: زيداً ورقية ابنا زيد ابن حارثة ثم طلقها – رضى الله عنهما.

ثم تزوج زيد رقية بنت أبى لهب، ثم طلقها.

ثم تزوج هند بنت العوام أخت الزبير رضى الله عنه.

● وروى أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب لجُلَيْبيب[1] ابنة أحد الأنصار، فقال له الأنصارى: حتى استأمر أمها، فلما أخبر أمها قالت: وجد رسول الله ﷺ إلاّ جُليبيبًا؟

فسمعتها ابنتها وهى فى سترها فقالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟

فقال أبوها: صدقت.

فذهب أبوها فأخبر رسول الله ﷺ برضاهما، فزوجه رسول الله ﷺ منها. فنزلت الآية: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً .....﴾** الآية.

● وقال ابن كثير القرشى فى تفسيره: هذه الآية عامة فى جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشئ فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأى ولا قول، كما قال تعالى: **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾** [النساء: ٦٥].

(١) جُلَيْبيب على وزن قُنَيديل أنصارى له ذكر فى حديث أبى برزة الأسلمى فى إنكاح رسول الله ﷺ ابنة رجل من الأنصار، وكان جليبيب قصيراً دميمًا، فكأن الأنصارى أبا الجارية وامرأته كرها ذلك، فسمعت الجارية بما أراد رسول الله ﷺ فتلت قول الله تعالى: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾** وقالت: رضيت، وسلمت لما يرضى لى به رسول الله ﷺ فدعا لها رسول الله ﷺ وقال: اللهم اصْبُبْ عليها الخير صبًّا ولا تجعل عيشها كدًّا، فكانت من أكثر الأنصار نفقة ومالاً وقد استشهد جليبيب فى غزوة مع رسول الله ﷺ بعد أن قتل سبعة من الأعداء، فوضعه رسول الله ﷺ على ذراعيه حتى حفر له وقال: هو منى وأنا منه، رضى الله عنه وأرضاه.

- ﴿ **إذا قضى الله ورسوله أمراً** ﴾ أى إذا عزم أمره، ولم يجعل للمأمور خياراً فى الامتثال، فهذا الأمر هو الذى يجب على المؤمنين امتثاله، احترازا من نحو قوله للذين وجدهم يُؤَبِّرُون النخل – يلقحونه –: لو تركتموها لصلحت، ثم قالوا: تركنا فلم تصلح، فقال: «أنتم أعلم بأمور دُنْيَاكم».

- ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينًا** ﴾ أى أن مخالفة الرسول ﷺ فيما كان فيه الخيرة أم كان عن عمد، منها عنها، وهى ضلال واضح مبين عن صاحبه.

وعصيان الرسول ﷺ عصيان لله تعالى لأنه المبلغ عن ربه سبحانه وتعالى.

- ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك، واتق الله، وتخفى فى نفسك والله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه.....** ﴾ الآية.

﴿ **الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه** ﴾ هو زيد بن حارثة رضى الله عنه.

وقد أنعم الله عليه بالإيمان، والخلاص من أيدى المشركين بأن يُسر دخوله فى ملك رسول الله ﷺ.

وقد أنعم عليه رسول الله ﷺ بالعتق والتبنى – قيل أن يمنع، فكان يقال له زيد بن محمد – وأنعم عليه بالمحبة والقرب.

● وكان زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى قد وقع أَسِيرًا فى أيدى من أغاروا عليه وهو يزور أخواله مع أمه – وأمه من بنى معن من طيئ – وباعوه فى سوق حباشة بناحية مكة المكرمة فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ، فلما تزوجها وهبته زيداً – وهو ابن ثمان سنين.

فَحَجَّ ناس من كلب فرأوا زيداً فأخبروا أباه، فخرج أبوه وعمه كعب فى فدائه، فكلما النبى ﷺ فى فدائه.

فخيَّره الرسول ﷺ بين أن يرجع مع أبيه وعمه أو أن يبقى مع النبى ﷺ.

فقال: ما أنا بالذى أختار عليك أحداً.

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك منه، أخرجه إلى الحجر – فى البيت الحرام – وقال:

يا من حضر، اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه، فصار ابنًا للنبى ﷺ – على حكم التبنى فى الجاهلية – وسمى من يومها: زيد بن محمد.

● وقد هاجر زيد من مكة إلى المدينة المنورة، وشهد بدراً والمغازى كلها، واستشهد فى غزوة مؤتة سنة ثمان وهو أمير الجيشين، وكان ابن خمس وخمسين سنة رضى الله عنه.

– ﴿ **أمسك عليك زوجك** ﴾ زوج زيد هى زينب بنت جحش الأسدية وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وقد تزوجها زيد بمكة وطلقها فى المدينة.

وتروى كتب التاريخ: أن زينب لم تلد لزيد، وكانت تُدِلّ عليه بسؤددها، وتغض منه بأنه مولى، فلما تكرر ذلك منها عزم على طلاقها، وجاء يخبر النبى ﷺ بذلك، فقال له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» وهو أمر نصح لا تشريع، ومع ذلك الأمر أمر بتقوى الله تعالى فى عشرتها.

– ﴿ **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه** ﴾ المخاطب بذلك هو النبى ﷺ، وذلك أن الله تعالى أوحى إليه بأن زينب سوف يطلقها زيد، وسوف تصبح زوجة للرسول ﷺ. وهذا ما أبداه الله تعالى لرسوله ﷺ، فأخفى النبى ﷺ ذلك عن زيد وغيره من الناس، لأنه لا فائدة من إطلاع الناس على ذلك ولا تعلق لهم به.

● وليس خطاب النبى ﷺ بذلك عتاباً له على إخفاء ما سوف يظهره الله تعالى.

– ﴿ **وتخشى الناس** ﴾ أى تكره أن تبدى ما أوحاه الله إليك من تزوجك بزينب، وليس من الخشية بمعنى الخوف، لأن الرسول ﷺ لم يكن يخاف أحداً، ولكنه يتوسم ما سوف يثيره المنافقون، من تزوج مطلقة ابنه بالتبنى وكان ذلك محظوراً عندهم.

– ﴿ **والله أحق أن تخشاه** ﴾ معناه: أن لا يقيم وزنًا لما يحتمل أن يقوله المنافقون، وضعفاء الإيمان من أنك تزوجت مطلقة ابنك بالتبنى، فالله أحق بالخشية لا الناس وما يقولون.

– ﴿ **فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها** ﴾.

قضى وطره منها أى تزوجها هذه المدة فلم يبق له وطر – أى غرض منها – ثم طلقها.

«زوجناكها» أى بعد انقضاء عدتها أذنا لك بالتزوج بها.

● وكل ما أرجف المنافقون به وما ردده ضعاف الإيمان فى قصة زواج النبى ﷺ من زينب رضى الله عنها باطل لا أساس له من الصحة.

وهو حملة تشويه موجهة ضد النبى ﷺ من أعدائه وأعداء دينه، مما لا يمكن ولا يجوز أن يصدر عن النبى ﷺ لأن النبوة تعصمه من ذلك وأمثاله، مما لا يدركه هؤلاء المنافقون

الغافلون.

ومهما نقل هذا الباطل بعض العلماء المعروفين، فإن نقله لا يعنى تصديقهم له أو ثقتهم فيه، وإنما الباطل باطل ولو تناقله معظم الناس أو كل الناس.

– **﴿لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً، وكان أمر الله مفعولا﴾**.

أى إن تزوجك من زينب له حكمة هى: إبطال الحرج الذى كان يتحرجه الناس فى الجاهلية من أن يتزوج الرجل مطلقة دَعِيّه أو متبناه.

وقد أبطل الله تعالى ذلك فى قوله تعالى: **﴿وما جعل أدعيائكم أبناءكم﴾** أي أبطل التبنى، وأبطل أثره فعلا فى أمره للنبى ﷺ بالزواج من زينب رضى الله عنها.

– **﴿وكان أمر الله مفعولا﴾**.

- يجوز أن يكون المراد بأمر الله تعالى، الأمر التشريعى، وكان ذلك موجهًا إلى رسول الله ﷺ لينفذ ما أُمِرَ به فيتزوج زينب مطلقه دعيّه، لأن التشريع اقتضى ذلك.
- ويجوز أن يكون المراد به الأمر التكوينى، وهو ما عَلِم الله تعالى أنه سوف يكون وقدَّر أسبابه، ويكون المعنى: أن أمر الله تعالى واقع لا محالة، سواء أكان متصلا بزواج النبى ﷺ من زينب أم بغير ذلك من الأمور.

وكلا المعنيين وارد فى تزوج النبى ﷺ من زينب رضى الله عنها.

– **﴿وما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له....﴾** الآية.

وهذا نفى للحرج عن النبى ﷺ فيما أذن الله له من التزوج بزينب وهى مطلقة ولده بالتبنى.

– **﴿سنة الله فى الذين خلوا من قبل....﴾** أى تلك سنة الله تعالى فى الذين سبقوا محمداً ﷺ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حيث أذن لهم فى التزوج بعدد من النساء، وكان بعض أزواجهم أحب إليهم من بعض، لأن هذا وذلك لا يقلل من جلال النبوة فى شئ، ما دام ذلك فرض من الله تعالى.

﴿وكان أمر الله قدراً مقدورا﴾ أى أن كل الأمور الصادرة عن الله تبارك وتعالى مقدرة على حكمه أرادها الله تعالى من كل أمر من تلك الأمور.

ومن هذه الأمور الجارية على حكمة من الله وتقدير إبطال عادة منع الزواج ممن كانت زوجة للابن بالتبني، وكان أول تطبيق لإبطال تلك العادة الجاهلية أن يتزوج النبى ﷺ من زينب رضى الله عنها.

- ﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا لله، وكفى بالله حسيبا** ﴾.

هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله هم الأنبياء عليهم السلام.

- وسنة الله تعالى مع أنبيائه ورسله عليهم السلام اشتملت على المفردات التالية:

- أراد منهم تبليغ رسالاته إلى خلقه، لأن الناس لا يستطيعون العيش الآمن دون هذه الرسالات وما فيها من مناهج تصلح للناس دنياهم وأخراهم.

- وأنه سبحانه فطرهم على خشية الله وحده، بإتيان ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

- وأنه سبحانه لم يشق عليهم، إذ ليس من سنته أن يشق على أحد من خلقه نبيًا كان أو غير نبى، ولذلك أباح لهم التمتع بطيبات الحياة الدنيا من مطعم ومشرب ومسكن ومنكح، دون حرج لهم فى تناول هذه الطيبات.

- وأنهم يستطيعون ممارسة ما أحل الله للناس، فهم بَشَرٌ من الناس والتشريع يأتى عن طريقهم.

- وأنهم يجب أن يتجاهلوا ما عرفه الناس من عادات وتقاليد خاطئة حرموا ما أحله الله لهم، إذ وظيفة النبى أن يحل كل ما أحل الله وأن يحرم ما حرّم، ولقد وصف الله خاتمهم محمداً ﷺ بذلك فى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [**الأعراف**: ١٥٧].

- وأن فى ذلك كله من سنة الله فى الأنبياء والمرسلين دعمًا لبشرية الأنبياء والرسل، وإبطالاً لدعاوى من يزعمون ألوهية الأنبياء أو جمعهم بين الإلهية والبشرية.

- ومن سنته فيهم سبحانه أن جعلهم لا يخشون أحداً إلا الله، ولا يخشون عادةً أو عرفًا دأب عليه الناس، فيتركون من أجله شيئًا مما أمر الله به أو نهى عنه.

- تلك مفردات سبعة سنها الله تعالى فى أنبيائه جميعًا السابقين لمحمد ﷺ، وهى أيضًا

سننه فى خاتمهم، كما أوضحت آية سورة الأعراف التى ذكرنا آنفًا.

- ﴿ **وكفى بالله حسيبًا** ﴾ أى أنهم صلوات الله عليهم وسلامه يبلغون رسالات ربهم دون خوف إلا من الله تعالى، وكفى أن الله تعالى هو الرقيب المحاسب على ذلك.

- ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم...** ﴾ ذلك نفى لأبوة محمد ﷺ لزيد بن حارثة التى كانت قبل أن ينزل هذا التشريع، وقطع لتوهم قد يحدث عند بعض المسلمين فيظنون أن بعض وَلَد من تزوج بهن النبى ﷺ من أيامى أصحابه رضوان الله عليهم معدود من أبنائه ﷺ بالتبنى.

- ﴿ **من رجالكم** ﴾ احتراس من أن يعتبر بعض رجالهم أبناء للنبى ﷺ، لأنه ﷺ كان أبًا لبنات، ولم يعش له من البنين أحد بلغ الحلم، ولم يكن أحد من أولاده موجودًا عند نزول هذه الآية فقد ماتوا جميعًا قبل ذلك.

● ولا ينفى ذلك أبوته للحسن والحسين ومحسن أبناء ابنته فاطمة رضى الله عنها، إذ ليس ذلك بمقصود بنفى أبوته لأحد رجالهم، وإنما المقصود نفى أبوة الصلب، أو الأبوة المباشرة دون أبوة الرحم، أو أبوة الجدّ لحفدته.

- ﴿ **ولكن رسول الله....** ﴾ أى هو الرسول الذى يتسع قلبه بالرسالة ليكون بمثابة الأب للمسلمين جميعًا فى البر والصلة والحنو والرعاية والاهتمام، ويكون على المسلمين جميعًا إعطاؤه حق الأب فى التوقير والإجلال والطاعة، وحسبه أن رسول الله ﷺ تجب طاعته، لأن الله تعالى يقول: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ...** ﴾ [النساء: ٦٤]. ففى مجال الطاعة: ما محمد إلا رسول الله الذى تجب طاعته.

- ﴿ **وخاتم النبيين....** ﴾ أى لا نبى بعده.

وهذه الآية الكريمة نصٌّ على تكذيب كل من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ إلى يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، الرؤيا الصالحة».

وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا، فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولاء موضع اللبنة، قال رسول الله ﷺ: فأنا اللبنة وأنا خاتم

النبيين».

وفى رواية لمسلم أيضاً بسنده عن جابر رضى الله عنه، بنحوه، غير أنه قال: «فأنا موضع اللبنة جئت فختمتُ الأنبياء».

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة دروساً نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلى:

١ - يتعلمون من قوله تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا**﴾ ما يلى:

أ - أن المؤمنين والمؤمنات جميعًا ليس لهم الخيرة فى شئ أمر الرسول ﷺ به أن يتركوه، أو شئ نهى عنه أن يفعلوه، وإنما عليهم الطاعة والامتثال للأمر والنهى دون خيار.

● ومن المعروف المتفق عليه بين المسلمين جميعًا أهل العلم منهم والعلماء الأثبات فى مختلف العصور، أن رسول الله ﷺ لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، كما جاء فى الآية السابقة من سورة الأعراف: ﴿**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم...**﴾ فلا مجال لمعصيته فى أدنى شئ مما جاء به، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .....**﴾

[الحشر: ٧].

ب - وأن معصية الرسول ﷺ فى شئ مما أمر به أو نهى عنه كبيرة من الكبائر، يحاسب الله تعالى عليها حسابًا شديداً، ويعاقب عليها عقاباً أليمًا، فقد قال الله تعالى:

﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾ [النساء: ١١٥].

● ومشاقة الرسول ﷺ هى مخالفته ومعصيته.

جـ - وأن معصية الله ورسوله ضلال بل ضلال مبين، والضلال هو العدول عن الطريق المستقيم، وضده الهداية.

● والضلال يقال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً، وذلك

أن الطريق المستقيم المرتضى من الله تعالى، يكلف كثيراً من الجهد والمشقة، فقد روى أحمد وابن ماجة والحاكم فى مستدركه والبيهقى فى السنن بأسانيدهم عن ثوبان رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا».

● والضلال المبين: أى الكاشف عن نفسه الذى لا يخفى على متأمل.

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه....** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **وكان أمر الله مفعولا** ﴾ ما يلى:

أ – أن نعمة الإسلام من أكبر النعم على المسلمين، فهو الدين الخاتم التام الكامل الذى لا يقبل الله من أحد دينا غيره، فقد قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

الإسلام أكبر نعمة أنعمها الله على المسلمين كما يفهم من هذه الآية: ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه...** ﴾ الآية.

● وشكر هذه النعمة إنما يكون بطاعة الله ورسوله والالتزام بمنهجه فى الحياة، وليس مجرد نطق الشكر باللسان.

ب – وأن المطلوب من المسلم عندما يدب نزاع بين زوجين مسلمين أن يوصى الرجل لأنه الذى يملك عقدة النكاح، بأن يصبر ويمسك عليه زوجه، ويتقى الله فى حسن العشرة، فتلك أخلاق الإسلام، وهذه الوصية من المسلم لأخيه المسلم وصية واجبة، لأنها وصية بفعل الخير، ويفهم هذا من قوله تعالى: ﴿ **أمسك عليك زوجك** ﴾.

جـ – وأن على الناصح أن تكون خشيته لله أولا وأخيراً، لأنه سبحانه وتعالى الأجدر أن يخشى دون سواه، لأن من نظر إلى ما يحتمل أن يقوله الناس كفَّ عن النصيحة تحسبا لما قد يقولون وهذا مما لا يليق بمسلم أن يفعله إلا مضطراً، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه** ﴾.

د – وأن تشريعات الإسلام بوصفه الدين الخاتم المرضى عند الله تعالى تُلغى كل تشريع يخالفها، أيا كان مصدر هذا التشريع، وأيا ما كان زمانه ومكانه، ومصداقية ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة: ٤٨].

هـ - وأن أمر الله كائن لا محالة، ولا يستطيع أحد أن يؤخره فضلاً عن أن يعطله، ومن هنا كان قبول أمر الله بالرضا من صميم الإيمان ومن علامات الإسلام، ﴿ **وكان أمر الله مفعولا** ﴾.

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له، سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ ما يلى:

أ - أن ما فرضه الله على رسوله وعلى المؤمنين هو الحق، وهو الأصل، وهو الواجب أن يتبع، ولا حرج على الرسول ﷺ ولا على المؤمنين فى ممارسته مهما اعترض الناس، بل الحرج والضيق والمعصية لله ورسوله فى تعطيله والتخلى عن ممارسته، كما قال تعالى: ﴿ **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له....** ﴾.

● وكل أمر يطلب الله تعالى من الرسول ﷺ تنفيذه، فهو مطلوب تنفيذه من المؤمنين جميعًا باستثناء ما كان خاصًا به ﷺ كقوله تعالى فى مخاطبة الرسول ﷺ: ﴿ **قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [المزمل: ٢] فهذا فَرْضٌ على الرسول ﷺ ولكنه بالنسبة للمسلمين عموماً سنة لا فرض.

ب - وأن شرع الله تعالى أساسه رفع الحرج عن عباده، وهذه حقيقة مسلمة جاء النص عليها فى القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ **هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨]. وقال جل شأنه: ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ** ﴾ [المائدة: ٦].

● كل ما شرعه الله تعالى يستحيل أن يكون فيه أو فى تنفيذه حرج للناس فى حاضرهم أو فى مستقبلهم إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، لأن الله تعالى لا يشرع لعباده إلا ما فيه نفعهم فى الحال وفى المستقبل.

جـ - وأن لله تعالى سنة جارية لا تتخلف أبداً، سنَّها للذين خلوا من قبل، ولا تزال مسنونة للبشرية كلها إلى يوم القيامة، تلك السنة هى التوسعة على عباده فيما شرع لهم وفيما أباح لهم من الطيبات، وفيما استنكر على أولئك الذين يضيقون على عباده بتحريم شئ من الزينة والطيبات التى أباح لعباده، فقد قال تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ....** ﴾ [الأعراف: ٣٢].

● هذه حقيقة يؤكدها قوله تعالى: ﴿ **سنَّة الله فى الذين خلوا من قبل** ﴾.

د – وأن ما أراده الله وقضى به وكتبه فى اللوح المحفوظ لابد كائن ولا محالة متحقق، وإلى ذلك كانت الإشارة النبوية فيما رواه ابن عساكر بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فرغ الله من أربع: من الخَلْق، والخُلُق، والرزق، والأجل».

وما رواه الطبرانى فى الكبير بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فرغ الله إلى كل عبد من خمس: من عمله وأجله ورزقه وأثره ومضجعه». وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ والمقدور هو ما يحدث حالاً فحالا مما قَدَّرُ الله، وإلى ذلك كانت الإشارة فى قوله تعالى: ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ [الرحمن: ٢٩].

٤ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **الذين يبلِّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً** ﴾ ما يلى:

أ – أن تبليغ رسالات الله واجب الأنبياء والمرسلين واجب ورثتهم من العلماء إلى يوم الدين، إذ العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا مالا ولا عقاراً وإنما ورثوا العلم والهدى.

● وكل تقصير فى تبليغ رسالات الله إثم ومعصية يؤاخذ عليه كل من كان قادراً على التبليغ فلم يفعل.

● ورسالات الله أى ما أرسل به رسله من أمر ونهى وحلال وحرام، ومنهج أوحاه إلى رسله تضمن هذه الأمور.

● ذلك واجب كل من كان على بصيرة بدينه بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن كان كذلك فهو من الدعاة إلى الله.

ب – وأن الذين يتصدون لتبليغ رسالات الله تعالى سوف يتعرض لهم الناس بالتحدى والمحاربة والأذى، بل التشويه والافتراء ووصفهم بما ليس فيهم ولا فيما يدعون إليه.

● وعلى الرغم مما يتعرض له الدعاة من كل ذلك فليس لهم أن يخشوا أحداً من هؤلاء مهما كان بطشه وجبروته، وإنما تكون خشيتهم لله تعالى وحده.

● والله تبارك وتعالى كافيهم شر هؤلاء فهو سبحانه حسبهم ووكيلهم، ما داموا دعاة إليه لا

يخشون سواه.

ومن كان الله حسبه فلن يخسر شيئًا ولا معركة صغيرة أو كبيرة، بل سيكسب كل شئ، يفعه ذلك من قوله تعالى: ﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبًا** ﴾.

جـ - وأن يطمئن الذين يبلغون رسالات الله تعالى إلى أن الله تعالى معهم يحفظهم ويرعاهم ويوفقهم ﴿ **وكفى بالله حسيبًا** ﴾ ومن كان الله حسبه وحسيبًا له رزق سعادة الدارين.

ه - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شئ عليما** ﴾ ما يلى:

أ - أن النبى ﷺ ليس أبًا لأحد من رجال المؤمنين على وجه الحقيقة، وذلك لإبطال قول بعضهم: زيد بن محمد حيث كان ابنه بالتبنى قبل نزول هذ الآية، وقبل إبطال التبنى وما يترتب عليه من الميراث وزواج من كانت زوجة لابنه بالتبنى، وهى تحديد لمقولات المنافقين الذين يرددون الأقاويل الكاذبة، كل ذلك انتهى بقوله تعالى ﴿ **ما كان محمد أبًا أحد من رجالكم** ﴾.

ب - وأن النبى ﷺ يتميز عن سائر الناس بصفتين حددتهما الآية الكريمة وهما:

الأولى: أنه رسول الله،

والأخرى: أنه خاتم النبيين.

● وللرسول ﷺ وظيفة هى:

نقل الناس من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلام إلى النور، وكل أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام يجب أن تكون هذه وظيفتهم.

● ولختم النبى ﷺ للأنبياء دلالات نذكر منها:

الأولى: أن رسالته لابد أن تكون تامة كاملة صالحة لكل زمان ومكان بحكم أنها الرسالة التى لن تأتى بعدها رسالات من الله تعالى إلى الناس فلابد أن تكون تامة كاملة.

والثانية: أنه لا نبى بعده ﷺ، وكل من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ، كاذب، كافر بما أنزل على محمد ﷺ، سواء أكان هؤلاء المدَّعون للنبوة فى عصر رسول الله ﷺ كمسيلمة

وغيره، أم كان فى عصور تالية إلى يوم القيامة.

والثالثة من هذه الدلالات: أن النبوة لا تكون إلا من عند الله، وأنه سبحانه ختم أنبياءه بمحمد ﷺ، مما يؤكد أن البشرية بعد محمد ليست بحاجة إلى نبى، وإنما هى بحاجة إلى اتباع نبوة محمد الخاتمة.

ورابعة: هذه الدلالات: أن الذين ينفون النبوة والأنبياء، ويخلطون بين النبوة والرياضة الروحية أو الصلاح والزهد والإلهام، هؤلاء يكذّبون الله ورسوله، وينكرون ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

جـ - وأن الله تعالى محيط بعلم كل شئ، عليم بما يصلح الناس فى معاشهم ومعادهم، عليم بأن خاتم رسله محمد ﷺ هو الذى فى يده منهجٌ من عند الله ينقذ الناس من الشر ومن الباطل، ويأخذ بأيديهم إلى كل خير. كما يدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿**وكان الله بكل شئ عليمًا**﴾.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة

فى الآيات الكريمة دروس عظيمة يفيد منها الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينًا**﴾ ما يلى:

أ - أن رأس مال الداعية إلى الله ورصيده الذى ينفق منه من سعة بحيث يستمر معه ويزيد ويربو هو طاعة الله ورسوله، والالتزام بكل ما جاء به الرسول ﷺ، كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ١٩٧]، وفى قوله تعالى: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا...**﴾.

- وليس لداعية إلى الله أو عامل فى الحركة الإسلامية أن يكون له الخيار فيما أمر به الرسول ﷺ أو نهى عنه، لأن أمره ونهيه ﷺ دين لا يملك أحدٌ معه اختياراً وإنما عليه أن يطيع

ويمتثل.

● وأن قوله تعالى: ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم...** ﴾ يؤكد مقولة الأسلاف عليهم رضوان الله تعالى: «لا اجتهاد مع النص لأن أمره ونهيه ﷺ إنما هو نص من النصوص الإسلامية: القرآن الكريم والسنة النبوية، وعندئذ تجب طاعته ولا حاجة إلى أى اجتهاد معه(١).

ب – ويتعلم الدعاة من قوله تعالى ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾ أنه لا معصية للرسول ﷺ فى قليل أو كثير، إلا وصاحب تلك المعصية فى ضلال وحيرة، بل ضلال مبين، لأن الآية الكريمة قد اشتملت على كلمة «قد» وهى هنا تفيد التحقيق أو التأكيد.

● والمعصية دائماً تقود إلى الضلال، والضلال خيبة وفشل، وعجز عن الوصول إلى الهدف، وكيف يتأتى وصول إلى الهدف فى الضلال؟ والوصول إلى الهدف يحتاج إلى ضوء ساطع للعين ونور فى القلب وهدى للعقل.

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله...** ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿ **وكان أمر الله مفعولا** ﴾ ما يلى:

أ – أن الدعاة إلى الله مطالبون – بحلم ما أعطاهم الله من علم وما أوجب عليهم من دعوة وتبليغ – بأن يقبلوا قصة زيد بن حارثة وطلاقه لزينب بنت جحش ونصح الرسول ﷺ له بإمساكها وتقوى الله فيها، وتزوج الرسول ﷺ منها كما وردت فى القرآن الكريم وأن ينفوا عنها ما يثيره مروجو الباطل من المنافقين والكفار.

ب – وأن الواجب على الدعاة أن يضربوا صفحاً عن الروايات التى وردت فى بعض كتب التفسير، تلك الروايات التى نسجها حقد اليهود وما دَسُّوه فى السنة من كلمات سماها العلماء إسرائيليات، لا تستند إلى أدنى أساس من الصحة أو الصدق، فضلاً عما فيها من تجاهل النبوة وقياس أحوال النبى ﷺ، على أحوال

---

(١) يتوهم بعض الكتاب أن مقولة لا اجتهاد مع النص هى التى أغلقت باب الاجتهاد وهذا وهم، وعدم تعمق فى فهم القاعدة إذ النص من القرآن أو السنة لا يحتاج معه إلى اجتهاد، أما ما يحتاج إلى اجتهاد فالأمر الذى لا نص فيه، كما اتضح ذلك من كلام النبى ﷺ مع معاذ رضى الله عنه عندما بعثه إلى اليمن، حيث قال: فإن لم تجد فى كتاب الله ولا سنة رسوله؟ قال: اجتهد رأيى، قال: الحمد لله ... إلى الحديث.

الناس، بل أحوال ضعاف الناس أمام شهواتهم، فلقد تجاهلوا النبوة والعصمة.

ففي بعض هذه الروايات من المزاعم ما يوصف بأنه سمج وعارٍ من الصحة والذوق، فضلاً عن خلوه من الفهم الصحيح لمقام النبوة.

جـ – وأن على الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية أن ينتبهوا إلي أن قصة زينب بنت جحش رضى الله عنها تستهدف إبطال بعض الأحكام الجاهلية – كما أبطل في أول السورة دعوى أن لرجل قلبين في جوفه، وأبطل بنوة الأدعياء، وأبطل ما كان يترتب على الظهار – وهو هنا يبطل دعواهم أن الزواج بمن كانت زوجة للابن بالتبني لا يجوز.

● فهى كلها أحكام لإصلاح المجتمع وتقوِّم ما فيه من اعوجاج وتشريعات لصالح الناس في معاشهم ومعادهم.

د – وأن الدعاة إلى الله عليهم أن يؤمنوا إيمانًا راسخًا بأن ما أصابهم أو سوف يصيبهم في سبيل الله، لم يكن ليخطئهم أبدًا، وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، ومعنى ذلك أنهم لا ينبغى أن يخشوا أحداً إلا الله تعالى فهو وحده أحق أن يخشى، وكل ما يجرى به القضاء لابد أن يكون.

● والإيمان بالله يقتضي الإيمان بما يجرى به القضاء والقدر كما هو مقرر ومعروف، وليطمئن الدعاة على الدعوة وعلى الحركة وعلى المستقبل فإن الله تعالى متم نوره ولو كره المشركون والكافرون، والمنافقون، وكل الكارهين.

● وليس للدعاة إلى الله أن يستعجلوا النصر فإنه آت لا محالة إن لم يكن اليوم فغدا، وذلك من فضله وإنعامه على دعاته المخلصين.

٣ – ويتعلم الدعاة والعاملون من أجل التمكين لدين الله في الأرض من قوله تعالى: ﴿**ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له، سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً**﴾ ما يلى:

أ – أنه لا حرج عليهم في أن يمارسوا ما فرض لهم أو عليهم من قول أو عمل، أى ما خوّل لهم وأعطاهم، أو ما كتب عليهم، وما ألزمهم به، فذلك حقهم في حالة العطاء من الله تعالى، وواجبهم في حالة الإلزام، ولا حرج عليهم في ممارسته هذا أو ذاك.

● والدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلام خوَّل الله لهم وأعطاهم ما يلى :

– نعمة الإسلام وهى أكبر النعم،

– وميراث الأنبياء وبخاصة خاتمهم ﷺ، بوصفهم من العلماء والداعين إلى الله على بصيرة،

– وأن اختارهم ليمارسوا الدعوة إليه سبحانه.

● ومن أنعم الله تعالى عليه بنعمة وجب عليه شكرها، وشكر هذه النعمة هو أن يمارسوا الدعوة إلى الله والعمل على أن يكون منهج الله ونظامه هو السائد بين الناس، ينظم لهم حياتهم ويتحاكم إليه فيهم، وفى هذه الممارسة متعة وسعادة لا يحس بها إلا المخلصون دينهم لله، ومع هذه المتعة والسعادة تهون كل المتاعب التى يلاقيها الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية، ولكن من يعادونهم ويكيدون لهم لا يشعرون!!!

● والدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية قد أوجب الله عليهم وألزمهم بأن يدعوا إلى الله، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ويجاهدوا فى سبيل الله حتى تكون كلمة الله هى العليا، وما أصابهم فى سبيل ذلك فليس حرجًا عليهم بحال، ما داموا ينظرون إلى الأمور نظرة صحيحة سليمة، نظرة مؤمن بالله وبقضائه وقدره.

● ودليل ذلك هذه الآية التى نحن بصددها ﴿ **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ....** ﴾.

● والآية الأخرى الموجهة إلى المؤمنين جميعًا وهى قوله تعالى: ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ...** ﴾ [الحج: ٧٨].

● وفى أداء ذلك الواجب الذى لا حرج فى أدائه طاعة لله تعالى وجزاء حسن عنده يوم القيامة، قد يصل إلى رتبة جزاء الشهداء لو أنه مات شهيداً وهو يمارس الدعوة إلى الله والعمل من أجل دينه ومنهجه ونظامه.

ب – وأن هذا الذى فرضه الله للنبى ﷺ أو عليه، وللمسلمين أو عليهم هو سنة الله تعالى فى الذين سبقوا من الأنبياء ومن المؤمنين، وهى سنة لا تتخلف أبداً، لأن بها وعليها حركة الحياة الإنسانية على الأرض، ومن خلالها يكون الصراع بين الحق والباطل ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيَّ عن بينة، ويتخذ الله الشهداء ويجزى أحسن الجزاء، ويعاقب كل قاعد أو مقصر، ويشتد عقابه لكل معاند للحق

ولدعوة الله.

٤ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله، وكفي بالله حسيبا** ﴾ ما يلي:

أ – أنّ واجبهم الأساسي هو تبليغ رسالات الله تبارك وتعالى كما بلّغها محمد ﷺ عن ربه، وكما أعلن ﷺ أن الدعوة إلى الله على بصيرة هي سبيله وسبيل الذين اتبعوه، كما يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [**يوسف**: ١٠٨].

أن الدعوة إلى الله على بصيرة هي طريق رسول الله ﷺ وطريق من اتبعه من المؤمنين، وقد عطف على ذلك تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق ونفي الشرك بالله على كل مستوى من الشرك.

ب – وأن من أهم صفات الذين يبلغون رسالات الله أنهم:

يخشون الله تعالى فيطيعونه ويتقربون إليه.

ولا يخشون أحداً سواه، فلا يتوقفون عن أداء واجب خشية باطش أو ظالم.

والاتصاف بذلك يكفل لهم النجاح والفلاح وتأييد الله تعالى لهم ونصره إياهم.

- وأن هؤلاء الذين يخشون الله ولا يخشون سواه، كلما هجست بهم الموازنة بين قوتهم وقوة أعدائهم، وقارنوا بين قلة عددهم وكثرة عدد أعدائهم، وضعف قوتهم ووفرة قوة أعدائهم، وهوانهم على الناس واغترار أعدائهم بالجاه والمال والوفرة، كلما قارنوا بين هذا وذاك ووازنوا، وأوشك الشيطان بهذه الموازنة أن يلقى فى نفوسهم الوهن – أى حب الدنيا وكراهية الموت – تذكروا أنهم لا يخشون إلا الله فإذا هم مبصرون للحقائق والجواهر، آمنون على أنفسهم راضون بما يجرى عليهم مهما تخطفهم الأعداء.
- هذه الخشية من الله وعدم خشية سواه هى من الزاد الضرورى الذى يتزودون به فى طريق الدعوة إلى الله، وفى كل مرحلة من مراحل هذه الدعوة مهما تكاثرت العقبات وتضافرت عليهم قوى الشر والطغيان.

جـ – وأن الشعار الذى يجب أن يميز الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية هو قولهم لأنفسهم ولأعدائهم: ﴿ **كفى بالله حسيبا** ﴾.

شعار يتمسكون به عند كل محنة وإزاء كل ضيق أو كربة تفرض عليهم، لأن من كان الله حسبه وحسيبه كفاه كل شر، ورد عنه كل كيد، وهزم له كل عدو، سواء أكان هذا العدو ممن يعرفه الدعاة أصحاب هذا الشعار أو لا يعلمون عنه شيئًا - وإن كان يكيد لهم - هذا الشعار ليس كلامًا ولا لافتات، وإنما هي عمل وإعداد، وصبر واحتساب، فالله تبارك وتعالى وجه إلى هذا وطالب به في قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ...** ﴾ [**الأنفال**: ٦٠].

هذا الشعار يترجم بهذا الإعداد ،ويأتي من بعد ذلك تأييد الله ونصره لدعاته وأوليائه.

٥ - ويتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما** ﴾ ما يلي:

أ - أن أُبُوّة محمد ﷺ للمسلمين جميعًا ولزيد بن حارثة على وجه الخصوص، أبوة معنوية بما تحمل من إشفاق ورعاية وحب، وليست أبوة صلب أو أبوة التبني التي كانت شائعة في الجاهلية، ولهذا الموضع في أبوة الرسول ﷺ للمسلمين عمومًا معانٍ جليلة يعرفها العلماء والدعاة وكل الذين يتصدون للعمل الإسلامي، وسوف نشير إلى بعض هذه المعاني أو الحكم فيما يلي:

- أن لله حكمة بالغة في ألا يكون للرسول ﷺ ولد ذكر من صلبه يعيش بعده أو يبلغ مبلغ الرجال، هي ألا يكون لهذا الولد الحق في المطالبة بأن يصبح حاكمًا للمسلمين أو أميرًا عليهم، وذلك نفي أكيد لتوارث الحكم وانتقاله من الآباء إلى الأبناء الصلبيين.
- وأن من هذه الحكمة أن تبطل حجة من يحاولون ادعاء حَقٍّ مَّا في إمارة أو قيادة لمجرد أنه من نسل النبي ﷺ.

والهدف أن تستقر في نظام الحكم في الإسلام حقيقة أن يتولى حكم المسلمين من هو أصلح وأكفأ وأجدر بقبول المسلمين، بغض النظر عن قربه أو بعده في قرابته من النبي ﷺ.

ومن هنا: تبطل في الإسلام فكرة العائلة المالكة أو الحاكمة، ونظرية الدم الأزرق ونحوها مما يزعمه الطامعون في الحكم والراغبون في أن يرثوا الحكم ويورثوه!!! وهي أفكار

ونظريات لا تزال موجودة حتى اليوم بين بعض المسلمين، على الرغم من رفض الإسلام لها، لما فيها من افتئات على حق الأمة فى أن تختار من يتولى قيادتها وفق المعايير المعروفة فى الشريعة الإسلامية.

● وأن نفى هذه الأبوة النبوية للرجال من المؤمنين لا يغض من شأن أحفاد رسول الله ﷺ، من أبناء بنته فاطمة رضى الله عنها كالحسن والحسين ومحسن رضوان الله عليهم، فلهؤلاء ولأبنائهم ولأحفادهم كل تقدير واحترام فى نفوس المسلمين جميعًا، إذ هم من أهل بيت النبى وقرابته الذين أوصى بهم ودعا إلى مودتهم، كما يفهم ذلك من قوله الله تعالى: **﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ.....﴾** [الشورى: ٢٣].

ب – وأن من أبرز صفات النبى ﷺ صفتين:

– أنه رسول الله

– وأنه خاتم النبيين.

وأن هاتين الصفتين تؤكدان عدداً من الحقائق نذكر منها ما يلى:

● أن من رحمة الله بالبشرية كلها أن أرسل إليهم محمداً ﷺ على فترة من الرسل، لينقلهم من الشرك والكفر إلى الإيمان ومن الضلال وما يجلب غضب الله تعالى إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم ومن الشك والحيرة إلى اليقين والاستقرار، بما أوحى الله تعالى إليه من كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

● وأن كل صفة يوصف بها النبي ﷺ على ألسنة الناس مهما تعاظم قدرها هى أقل من وصفه بأنه رسول الله، إذ يحلو لبعض الناس وصفه بأنه مصلح وبأنه عظيم وبأنه عبقرى، أو نحو ذلك من الصفات.

● وأنه ﷺ خاتم النبيين أى لا نبى بعده، ومعنى هذه الصفة بل هدفها هو قطع الطريق على من يدعون النبوة لأنفسهم أو لغيرهم من الناس، بحيث من فعل هذا كان كافراً بما أنزل على محمد ﷺ.

● ولم تتجرأ جماعة من الناس فى تاريخ المسلمين الحديث أن تدعى النبوة لأحد أفرادها إلا ما كان من البابية التى ظهرت فى بلاد فارس فى حوالى سنة ١٢٦٠ من الهجرة – ١٨٤٣م، ثم تسربت هذه البابية إلى العراق، وكان القائم بها رجلاً من أهل شيراز

يسمى: السيد على محمد الذى كان فى أول أمره من غلاة الشيعة الإمامية.

وكان هذا الرجل قد أخذ هذا الضلال عن رجل يدعى: الشيخ أحمد زين الدين الأحسائى(١)، وكان هذا متصوفا على الطريقة الباطنية – وهى طريقة تلقاها معتنقوها عن الحلاَّج، وتعرف بالطريقة الشيخية.

ثم لَقَّب السيد على محمد الشيرازى نفسه: بالباب – وكلمة «الباب» عندهم تعنى: الباب الذي هو مدخل للإمام ليتلقى عنه، ثم انشقت عن البابية البهائية بزعامة ميرزا عباس الذى أفتى الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر بكفره ونشرت الفتوى فى جريدة مصر الفتاة بالعدد ٦٩٢ بتاريخ ٢٧/١٢/١٩١٠.

وأهم المبادئ التى تقوم عليها البابية والبهائية:

– الحلول: أى حلول الله تعالى وظهوره فى الأئمة الاثنى عشر ثم فى أحمد الأحسائى – القسيس سابقًا –!!!

– وعدم ختم النبوة بمحمد ﷺ.

– وظهور المعصوم.

– وعدم الاعتراف بالقيامة، وما بعدها.

– وإنكارهم معجزات الأنبياء.

– والإسراف بل الشذوذ فى تأويل آيات القرآن الكريم بادعاء أن لألفاظه باطناً.

– ومناصرتهم لكل عدو للمسلمين، وتمنيهم وعملهم على أن يكون لليهود وطن فى فلسطين.

● وقد ادعى الشيرازى النبوة وزعم أنه أوحى إليه كتاب هو: «البيان» وزعم أن كتابه هذا قد أشير إليه فى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤].

وكان نهاية على محمد الشيرازى أن قتل فى تبريز بإيران سنة ١٢٦٦هـ – ١٨٤٩م.

(١) توفى سنة ١٨٢٦م وقال المؤرخون إن ظهوره كان لغرض سياسى اختفى وراء المظهر الدينى، لأن الأحسائى وزميله «كاظما الرشتى» أصلهما قسيسان استخدمهما الاستعمار لتشويه محاسن الإسلام وتفريق صفوف المسلمين كما استخدم القاديانية في الهند من أجل هذا الغرض نفسه.

● ومثل البابية «البهائية» وهى فرقة ادعت لرئيسها النبوة وقد أسسها: بهاء الله ميرزا حسين علي، وكان تلميذاً بالمكاتبة للباب على محمد الشيرازى.

وكان البهاء مقره طهران، فأخرجته حكومة طهران إلى بغداد بعد مقتل الباب، ثم نقلته الدولة العثمانية إلى أدرنة، ثم إلى عَكّا.

وفي عكا التف حوله أصحاب نحلته وجعلوه خليفة للباس وسميت هذه الطائفة باسمه ونسبت إليه.

ثم سجنته السلطة العثمانية فى سجن عكا سبع سنوات، ثم أطلق سراحه مع إعلان الدستور التركي، فرحل إلى أوربا وأمريكا وأقام فيهما عامين، ثم عاد إلى حيفا فاستقر بها إلى أن توفى سنة ١٣٤٠هـ – ١٩٢٢م.

وللبابية والبهائية طقوس ورسوم تشبه طقوس الماسونية وإن كانت تدعى أن لديها وحْيًا، فهى بذلك الادعاء فرقة دينية لا مذهب سياسي كما يقولون، وسواء أكانت هذا أم ذاك فإنها والماسونية على باطل، وتضمر أسوأ الشر للإسلام والمسلمين.

● ولا شك فى كفر من ادعى النبوة لنفسه أو لغيره بعد ختم محمد ﷺ للأنبياء، لأنه مكذب لصريح القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

● وواجب الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية كشف أباطيل هذه الفرق وتلك النحل، وتحذير المسلمين منها، وكشف صلتها بالقوى المعادية للإسلام من يهودية وصليبية ونظام عالمى جديد، مع دعم الحقائق التى جاء بها القرآن الكريم فى نبوة محمد ﷺ وختمه للنبيين، لأن هذا من متطلبات العقيدة الصحيحة السليمة من الزيف والانحراف والتضليل.

جـ – والدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية يدركون تمامًا علم الله تعالى بما يصلح الإنسان، وحكمته سبحانه فى أن يكون محمد رسول الله وخاتم النبيين، فقد جاء فى ختام الآية الكريمة التى تقرر هذا قوله تعالى: ﴿ **وكان الله بكل شئ عليما** ﴾.

● ولو علم الله تعالى فائدة للبشرية فى بعث رسول بعد محمد ﷺ لبعثه، ولكنه علم أن فى ختم محمد ﷺ للنبيين صالح المعاش والمعاد للبشرية كلها فجعله خاتم النبيين: ﴿ **ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾.

● ولأنه ﷺ رسول الله وخاتم النبيين فإن اتباعه وطاعته والاقتداء به واجب على كل مسلم ومسلمة فى كل زمان ومكان.

وليس أمام المسلمين اليوم وقد تحزب عليهم الأحزاب من وسيلة لتخلصهم من الظلم الواقع بهم، وتقدمهم وارتقائهم فى مدارج الحضارة، ووصولهم إلى مستوى رفيع من الحياة الإنسانية إلا اتباع رسول الله ﷺ وطاعته والاقتداء به، والأخذ بكل ما جاء فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

٩ - الآيات من الحادية والأربعين إلى الثامنة والأربعين

مطالبة المؤمنين بذكر الله وتسبيحه
وتقرير رحمة الله تعالى للمؤمنين،
وبيان لبعض وظائف الرسول ﷺ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٤٨) ﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٨].

● فى هذه الآيات الكريمة مطالبة للمؤمنين بما يلى:

- ذكر الله كثيراً وتسبيحه أول النهار وآخره.

- وإخبار من الله تعالى بأن من يذكره سبحانه ذكراً كثيراً فإنه سوف يشمله برحمته، ويخرجه من الظلمات إلى النور، ويُحيّيه يوم يلقاه بالسلام، ويعد له الأجر الكريم.

● وفى الآيات نداء على النبى ﷺ يخبره الله تعالى فيه بوظيفته فى الناس بشئ من التفصيل وتلك الوظيفة لها مفردات هى:

- الشهادة على الناس لهم أو عليهم.

- والتبشير بالخير والسعادة لمن آمن.

- والإنذار بالعقاب لمن كفر.

- والدعوة إلى الله.

- وإضاءة الطريق لمن اتبعه ﷺ.

- وتبشير المؤمنين بتفضل الله تعالى عليهم.

– وعدم طاعة الكافرين والمنافقين.

– وترك أذى الكفار والمنافقين ومن إليهم إلا لسبب.

– والتوكل على الله تعالى فى كل أمر.

● وقد اشتملت الآيات الكريمة على نداءين، وعلى عدد من الأوامر، وعدد من الأخبار، وعلى نهى، مما سوف نوضحه فيما يلى بعون من الله.

– ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً** ﴾.

هذا أمر عام لكل مؤمن ومؤمنة بذكر الله تعالى على كل حال وفى كل حين، أى أمر لهم بالانشغال بذكر الله تعالى، وترك الانشغال بما كان قد ردده المنافقون فى زواج النبى ﷺ من زينب مطلقة من كان ولده بالتبنى.

● والمعنى العام للذكر فى هذه الآية وهو الانشغال بذكر الله تعالى هو الأولى، وهو أقرب من المعنى الخاص للذكر وهو عدم الانشغال بما ردده المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والدليل على ذلك ما رواه أحمد بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله عز وجل» والذكر هنا عام فى معناه، ويشمل ذكر اللسان والقلب معًا.

وروى أحمد أيضًا بسنده عن عبد الله بن بشر رضى الله عنه قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما:

يا رسول الله أى الناس خير؟

قال: «من طال عمره وحسُن عمله».

وقال الآخر: يا رسول الله: إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فمرنى بأمر أتشبث به، قال ﷺ: «لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله تعالى»[1].

وذكر المفسرون نقلاً عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿ **واذكروا الله ذكراً**

(١) من أشهر الكتب التى ألفت فى الذكر: ما ألفه النسائى صاحب السنن، وما ألفّه المعمرى، وما ألفه النووى، عليهم رحمة الله جميعًا.

كثيراً . . . ﴾ قال : إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلومًا، ثم عذر أهلها فى حال العذر، غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل له حداً ينتهى إليه، ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبًا على تركه، أى ذاهب العقل، لسبب من الأسباب .

ورد هذا القول عن ابن عباس رضى الله عنهما فى أكثر من كتاب من كتب التفسير المشهورة فى تراثنا الإسلامى .

– ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ .

التسبيح : التنزيه، وتسبيح الله تبارك وتعالى وتنزيهه عما لا يجوز بحقه من النقائص، ومعنى ذلك أن التسبيح من أكمل الذكر لاشتماله على جوامع الثناء على الله تعالى والتحميد له سبحانه وتعالى .

● وفى التسبيح إيماء إلى التبرؤ مما يقوله المنافقون فى حق النبى ﷺ من افتراءات وأباطيل .

● والبكرة : أول النهار، والأصيل : العشى أى الوقت الذى بعد العصر .

والمقصود من الجمع بينهما ملء أجزاء الليل والنهار بالذكر والتسبيح، أى اذكروه باستمرار وفى كل حين .

– ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته . . . ﴾ .

الصلاة هى : الدعاء والذكر بالخير . وللصلاة معان نسبيّة فهى :

من الله تعالى : الثناء والأمر بتوجيه رحمته فى الدنيا والآخرة لمن ذكره سبحانه وتعالى .

والصلاة من الملائكة : الدعاء للمؤمنين، فيكون دعاؤهم مستجابًا عند الله تعالى .

● وجملة : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ﴾ تعليل للأمر بذكر الله تعالى، أو تهييج إلى الذكر، بمعنى أنه سبحانه وتعالى يذكركم فاذكروه، كما جاء ذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم » .

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سَبَقَ المفرِّدون » قالوا : وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » .

- ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ .

الظلمات : الضلالة، والنور : الهدى .

أى بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين .

- ﴿وكان بالمؤمنين رحيمًا﴾ أى رحيما بهم فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فبهدايتهم إلى الحق الذى جهله غيرهم، وتبصيرهم بالطريق التى ضل عنها وعن السير فيها سواهم .

وأما رحمته بهم فى الآخرة فبأنه يؤمنهم من الفزع الأكبر، وبأنه يأمر ملائكته أن يتلقوهم بالبشارة التى لا بشارة أعظم منها وهى أنهم قد نجوا من النار وفازوا بالجنة، وليس بعد الفوز بالجنة مطلب، وصدق رسول الله ﷺ فقد تحدث عن الجنة فبين أن الحصول عليها صعب ودونه من العقبات ما دونه، فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « حُفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات » وفي رواية للبخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أيضًا « حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره » .

وروى البخارى بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السَّبْى قد أَخَذت صبيًا لها فالصقته إلى صدرها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ : « أترون هذه تُلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك »؟ قالوا : لا، قال رسول الله ﷺ : « فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها » .

- ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرًا كريمًا﴾ .

المعنى : أن من صلاة الله عليهم ورحمته بهم يوم القيامة يوم يلقون ربهم، أنْ يسلم عليهم ويحييهم سبحانه وتعالى، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس : ٥٨] .

أو يكون المعنى : تحيتهم فيما بينهم سلام، كما يفهم ذلك من قوله سبحانه وتعالى : ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس : ١٠] .

- ﴿ وأعد لهم أجراً كريمًا ﴾ أى يحييهم سبحانه وتعالى بالسلام وقد أعدّ لهم أجراً كريمًا.

والأجر: الثواب والعطاء فى الدنيا أو فى الآخرة، ولا يقال إلا فى النفع دون الضُّرّ. والكلام هنا عن أجر فى الآخرة، وأجر فى الآخرة خير للذين آمنوا. أما الأجرة فللثواب الدنيوى فقط.

والكريم: هو النفيس من نوعه، وكل شئ شرف فى بابه فهو كريم. والأجر الكريم الذى أعدّه الله تعالى لهم هو: نعيم الجنة، الذى أعده للمؤمنين.

- ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرا ﴾.

● هذا هو النداء الثالث على النبى ﷺ فى هذه السورة الكريمة، وقد خاطب الله تعالى فى هذا النداء رسوله ﷺ بأوصاف أودعها فيه وهيأه لها، للتنويه بشأنه ﷺ، ولزيادة رفعته وعلو مقداره، وقد بيَّن له فى هذا النداء أو الخطاب أركان رسالته فيما يتعلق بهذه الرسالة وبالأمة التى أرسل إليها، وهى البشرية كلها، بل بالأمم السابقة وموقفه ﷺ من هذه الأمم.

● وقد جاءت فى هذه الآية أوصاف خمسة للرسول ﷺ وهى:

شاهد، ومبشر، ونذير، وداع إلى الله بإذنه، وسراج منير، وهى أوصاف تجمع رسالته ﷺ معظمها.

● فقد روى البخارى بسنده عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فقلت: أَخْبِرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً» وحرزاً للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّابٍ فى الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميًا، وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفا».

وقد رواه أحمد بسنده عن هلال بن على عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو رضى الله عنه، فقلت... الحديث.

وروى الطبرانى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: لَمَّا نزلت: ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وكان أَمَر عليًا ومعاذاً رضى الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن،

فقال: انطلقا فبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل علىّ: يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً على أمتك، ومبشراً بالجنة، ونذيراً من النار، وداعيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجًا منيراً بالقرآن».

● ﴿ **وشاهداً** ﴾ أى شاهد بوحدانية الله تعالى وأنه لا إله غيره، وشاهد بصحة ما هو صحيح من الشرائع وبقاء ما هو صالح للبقاء منها، وشاهد ببطلان ما ألصق به، وينسخ ما لا ينبغى بقاؤه مع أحكامها، بما أخبر عنهم فى القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة: ٤٨].

وشاهد على أمته بمراقبة جريهم على الشريعة فى حياته، وشاهد عليهم فى عرصات يوم القيامة.

● فوصف الرسول ﷺ بأنه شاهد، أشمل وصف له لتضمنه أنه رسول لهذه الأمة، وكونه خاتم الشرائع، ومتممٌ مرادَ الله من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

● ﴿ **ومبشرا** ﴾ أى مخبرا بالبشرى لأهل الإيمان والمطيعين، بمراتب فوزهم، وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر والنواهى.

وقد قُدِّمت البشارة على النذارة، لأنه ﷺ غلبتْ عليه صفة التبشير لأنه ﷺ رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين من أمته.

● ﴿ **ونذيرا** ﴾ النذير هو المخبر بحلول حادث سيئ أو بقرب حلوله، وهو ﷺ منذر للذين يخالفون عن دينه من كافرين به، ومن أهل العصيان بمتفاوت مؤاخذتهم على عملهم.

وقد شمل اسم النذير جوامع ما فى الشريعة من النواهى والعقوبات.

● ﴿ **وداعيًا إلى الله بإذنه** ﴾: أى يدعو الناس إلى ترك عبادة غير الله، ويدعوهم إلى اتباع ما يأمرهم به الله تعالى.

وقد شمل هذا الوصفُ أصول الاعتقاد فى شريعة الإسلام مما يتعلق بصفات الله تعالى.

كما اشتمل على ما يتعلق بصفات الدعاة إلى الله من الأنبياء والمرسلين والكتب المنزلة عليهم صلوات الله عليهم وسلامُهُ.

● ﴿ **وسراجًا منيرا** ﴾: أى أرسلناك مثل السراج المنير فى الهداية الواضحة التى لا لَبْسَ فيها والتى لا تترك للباطل شبهة إلا فضحتها، وأوقفت الناس على دخائلها، كما يضئ السراج

الوقّاد ظلمة المكان ويبدد مخاوفه ومتاعبه.

● ﴿ **وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا** ﴾ هذا أمر للرسول ﷺ بالعمل بصفة المبشر.

يبشر المؤمنين بأن لهم ثواب أعمالهم الموعود بها ومعها زيادة من عند الله تعالى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ [يونس: ٢٦].

وقد بينت آية كريمة أخرى الفضل الكبير الذى بُشّر به المؤمنون وهى قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** ﴾ [الشورى: ٢٢].

قال ابن عطية – وهو مُفتى غرناطة والمتوفى سنة ٥١٨هـ) –: هذه أرجى آية عندى فى كتاب الله، لأن الله قد أَمَر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرًا.

● ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم** ﴾.

هذا تحذير للنبى ﷺ من موافقتهم فيما يسألون منه، وقد سألوه أمورًا كثيرة كاستئذانهم فى الرجوع عن الأحزاب، ورغبتهم فى أن يترك ما أحل الله له من التزوج بمطلقة زيد الذى كان متبنى للرسول ﷺ، وكسؤالهم إياه أن يأخذوا نصف ثمر النخل بالمدينة صلحًا.

وكل ذلك رفضه النبى ﷺ.

والنهى هنا الموجه للنبى ﷺ مستعمل فى معنى الاستمرار على الانتهاء عن ذلك.

● ﴿ **ودع أذاهم** ﴾: أى اترك أذاك لهم، أو دع الاغتمام بما يقولونه مما يؤذى، أى لا تكترث بما يصدر منهم من أذى.

وقد وُجّه الرسول ﷺ إلى أن يكلهم على عقاب آجل، عند الله تعالى.

● ﴿ **وتوكل على الله** ﴾: أى اعتمد أو فوّض التدبير إلى الله تعالى، أو اعتمد على الله فى تبليغ الرسالة، واعتمد عليه فى أنه سوف يكفيك كيد أعدائك ووقوفهم فى طريق الحق الذى تدعو إليه وتنفق فيه وقتك وجهدك.

● ﴿ **وكفى بالله وكيلا** ﴾: أى أن الله تعالى هو الوكيل الكافى فى الوكالة، الذى يأجر مَنْ توكل عليه أحسن الأجر وأدومه فى الدنيا والآخرة.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

هذه المواقف كثيرة هادية ومعلمة، وتذكر منها هنا ما يلى :

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً، وسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾ ما يلى :

أ - أن ذكر الله تعالى باللسان - مع حضور القلب - بترديد الأذكار المأثورة كالتكبير والتحميد والتهليل والتسبيح ونحو ذلك واجب شرعى أمر الله تعالى به وأوجبه بهذه الآية الكريمة لأنها أمر مباشر للذين آمنوا جميعاً : اذكروا الله . . . كما أوجبه فى قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [**الجمعة** : ١٠] .

فقد روى مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة، ويجزى من ذلك ركعتان تركعهما من الضحى » .

ب - وأنّ ذكر المؤمن لله يجب أن يكون كثيراً، بدليل هذ الآية الكريمة، وبدليل ما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سَبَق المفرِّدون » قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » .

جـ - وأن ذكر الله يجب أن يشمل كل أوقات المسلم وكل أحواله، بدليل قوله تعالى ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ [**الأعراف** : ٢٠٥] . وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ . . .** ﴾ [**آل عمران** : ١٩٠، ١٩١] .

وما رواه مسلم بسنده عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه » .

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وكان بالمؤمنين رحيمًا، تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كبيراً**﴾ ما يلى:

أ – أنّ الذى يذكر الله تعالى يذكره الله تعالى، كما يفهم هذا من قوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٥٢].

- وذكر العبد لربه هو طاعته سبحانه وتعالى فى أمره ونهيه.
- وذكر الرب لعبده هو إثابته على يطاعته، أى رحمته له وأمر ملائكته بالدعاء له.

والمعنى فى آية سورة البقرة: اذكرونى بالطاعة أذكركم بالمغفرة والرحمة.

ب – وأنّ أَجْر الذاكرين الله كثيراً كما تدل عليه هذه الآية متنوع إلى أنواع كثيرة هى:

- أنه سبحانه وتعالى يصلى على الذاكرين، ويأمر ملائكته بالدعاء لهم.
- وأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور.
- وأنه يرحمهم.
- وأنه يحييهم يوم يلقونه بالسلام.
- وأنه أعد لهم أجراً كبيراً.

جـ – وأنّ من أجر الله تعالى لهم: إخراجهم من الظلمات إلى النور ومن ظلمات الشرك والكفر إلى نور التوحيد والإيمان الصحيح،

ومن ظلمات الضلال والتخبط إلى نور الهدى والاستقامة،

ومن ظلمات الحيرة والشك إلى نور الاهتداء واليقين،

ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم.

كل ذلك أجر لهم على أنهم ذكروا الله كثيراً.

د – وأنّ رحمته سبحانه وتعالى بالذاكرين له كثيراً، تشمل أمرين:

رحمتهم فى الدنيا بتوفيقهم إلى صالح الأعمال،

ورحمتهم فى الآخرة بتأمينهم من الفزع، وفوزهم بالجنة.

هـ – وأنه سبحانه وتعالى يكرم الذاكرين له كثيراً إلى حد أن يحييهم بالسلام أى يسلم عليهم، أو يجعل تحيتهم بينهم سلام وكل ذلك مزيد فى إكرامهم ورضاه عنهم سبحانه وتعالى.

وقد يقول بعض الملحدين أو الغافلين: وما قيمة أن يسلم عليهم؟

والقائلون بذلك منافقون مغالطون، وليذكر ماذا يدفع الغافل منهم ليسلم عليه رئيسه أو حاكمه؟ إن أحدهم يدفع من كرامته وحريته وماله أحياناً ليسلم عليه رئيسه، ليحظى منه أحياناً بالفتات!!!

ولكن رب العزة يحفظ لذاكريه كرامتهم وحريتهم وإنسانيتهم ولا يطلب منهم سوى ذكره بالتسبيح والتحميد والتهليل...

و – وأن ذكر الله كثيراً طريق آمنة إلى رضا الله تعالى ومغفرته ورحمته.

فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حَفَّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده».

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً...**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا**﴾ ما يلى:

أ – أنّ وظائف النبى ﷺ فى هذه الآيات خمس وظائف – سبق أن أوضحناها ونحن نلقى ضوءاً على معنى الآية – وهى فى إيجاز:

الشهادة على توحيد الموحدين وطاعة الطائعين...

والتبشير بالخير الذى ينتظر المؤمنين الصالحين...

والإنذار لمن كفر بالله وضل عن اتباع الحق والهدى...

والدعوة إلى عبادة الله وطاعته...

وإضاءة الطريق أمام الناس جميعًا، ليهتدوا فى هذا الضوء إلى الحق والهدى والمنهج الصحيح.

ب – وأن المسلمين والمسلمات جميعًا يجب أن يشاركوا فى القيام بهذه الوظائف كل فيما يستطيع لأن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

- وأن من قدر على أداء هذه الوظائف أو بعضها فامتنع عن أدائها، عوقب على هذا الامتناع، لأنه مطالب بأن يتخذ الرسول ﷺ قدوة وأسوة.
- وكل مسلم مكلف بما كُلِّف به رسول الله ﷺ ما لم يكن التكليف من خصوصيات رسول الله ﷺ(١).

جـ – وأن تبشير المؤمنين بأن لهم عند الله فضلاً كبيرًا كَمًّا ونوعًا، تفضلا منه تعالى وليست واجبًا عليه، هذا التبشير أُمِرَ به ﷺ، أن يبلغه للمؤمنين حفزًا لهممهم وتشجيعًا لهم على الطاعة وبذل المزيد من العمل الصالح الذى يرضى الله تبارك وتعالى.

- ومن المعروف أن كلمة المؤمنين تعنى الذين اتصفوا بصفات الإيمان وحققوا أركانه، واستجمعوا صفات الإسلام لأن الإسلام أساس لتحقيق صفة الإيمان، كما أوضحنا ذلك آنفًا.

د – وأن معصية الكفار والمنافقين واجب شرعى أوجبه الله على نبيه ﷺ، وعلى المؤمنين جميعًا فى كل عصر، وذلك أن طاعتهم تكون وبالاً على من أطاعهم، إذ هم يدعون إلى الكفر والشر وكل ما يغضب الله تعالى.

هـ – وأن ترك أذى الكفار والمنافقين وعدم الانشغال بالانتقام منهم، بل الانشغال بهدايتهم، مطلب شرعى طولب به الرسول ﷺ.

وأن ذلك ينبغى أن يكون شأن المسلمين فى كل حين.

- ويمكن أن يكون المقصود من هذه الآية هو ترك الاغتمام أو الحزن لما يتعرض له المسلمون من أذى الكفار لهم، لأن المسلم لا ينبغى أن يحزن على ما فاته ولا ما أصابه، لأن الله تعالى يقول: ﴿**لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ...**﴾ [آل عمران: ١٥٣].

لأن قضاء الله تعالى لابد كائن، وصدق الله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي**

(١) خصوصيات الرسول ﷺ التى كُلف أداءها على وجه الوجوب كثيرة تلتمس فى كتب السيرة النبوية وكتب الفقه، وهى بالنسبة للمسلمين ليست فرضًا، وإنما هى سنة أو من كمال الآداب الإسلامية.

﴿أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

و - وأن التوكل على الله صفة أساسية فى المؤمنين، بل هى صفة لا يتم الإيمان إلا بها، بل هى صفة أوجبها الله تعالى على المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

● روى الترمذى بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا».

ز - وأن التوكل على الله نجاح وفلاح فى الدنيا والآخرة، فهو سبحانه وتعالى نعم الوكيل، وروى ابن ماجة بسنده عن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قلب ابن آدم بكل واد شعبة، فمن اتبع قلبه الشعب كلها لم يبال الله بأى وادٍ أهلكه، ومن توكل على الله كفاه الشعب».

● وأن التوكل على الله يقتضى أن يقول المؤمن المتوكل عندما يصيبه هم أو أذى: حسبنا الله ونعم الوكيل، فينجيه الله من كل ضيق وأذى.

روى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: حسبنا الله ونعم الوكيل: قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل».

● وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة

هذه المواقف كثيرة، لأن القرآن كله يربى ويوجه إلى ما ينفع فى الدنيا والآخرة، ونذكر من هذه المواقف ما يفتح الله تعالى به، فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قول الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وأعدّ لهم

أجراً كريمًا﴾ ما يلى :

أ – أن الأمة الإسلامية مطالبة بذكر الله كثيراً أى فى كل حين وفى كل حال، فهى أمة تذكر الله أى تتخذه وحده إلهًا ومعبوداً خالقًا رازقًا لا تتوكل إلا عليه ولا تستغيث إلا به.

ب – وأن الأمة الإسلامية عمومًا، والدعاة إلى الله وعلى وجه الخصوص أصحاب رسالة ودعوة عالمية تقوم على عبادة الله وتوحيده والانتماء إلى منهجه والاعتزاز بهذا الانتماء، مع طرح كل انتماء سواه، سواء أكان إلى مذهب أم فلسفة أم نظرية سياسية أم اجتماعية أم غيرها، لأن الانتماء إلى شئ من ذلك ضياع فى الدنيا وخسران فى الآخرة.

- وأنَّ لا إله إلا الله تعنى التوحيد له سبحانه وتعالى والتلقى عنه لا عن سواه.
- وأن «محمداً رسول الله» تعنى أخذ كل ما جاء به محمد ﷺ، والالتزام بالمنهج الإسلامى فى الحياة.
- وأن معنى : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» هو اليقين بأن ما جاء من عند الله وما بلغه عنه رسوله الخاتم ﷺ هو الصواب، وأن هذا المنهج يصلح للإنسان الدنيا والآخرة، وأن ما يصيبه الإنسان فى الدنيا من ترف أو جاه لا يغنى عن الآخرة شيئًا، لأن الدار الآخرة هى الحياة الأبدية السرمدية ولا يمكن لإنسان سليم الفطرة صحيح العقل أن يستغنى بالدنيا عن الآخرة.
- وأن هذا التوحيد لله والإيمان بما جاء به محمد ﷺ يقتضى الإيمان باليوم الآخر وبكل ما أخبر المعصوم ﷺ أنه يجرى فيه من بعث وحساب وعقاب وجنة ونار . . .
- وأن الذين يتجاهلون الآخرة، أو يصفون ما يجرى فيها بأنه غيبيات مرفوضة أو ظلاميات ينبغى الخروج منها بما زعموا أنه تنوير، هؤلاء فى غمرة ساهون، ولابد أن يخالجهم الشك فيما يقولون والارتياب فيما يزعمون.
- وهؤلاء ليسوا بدعًا من النابس وإنما امتداد لمنكرين جاحدين كانوا يعاندون الحق ويتحدون الحقائق ويبطشون بمن يحدثهم عن الحق والحقيقة، ولقد وصفهم الله تعالى فى قوله سبحانه : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . . .** ﴾ [الحج : ٧٢].

جـ - وأن ذكر الله كثيراً إنما يثمر ثمرته المرجوة فى الإحساس بالأمْن والطمأنينة التى تعمر القلب وتملؤه بالرضا - والأمْن والإحساس به مطلب إنسانى من أهم ما يرغب فيه الإنسان - ولا يجلب الأمن والاطمئنان مثل ذكر الله : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] .

د - وأهم ثمرة من ثمار ذكر الله كثيراً وتسبيحه بكرة وأصيلا، هى الحصول على صلاة الله عليهم ودعاء الملائكة لهم، والخروج بذلك من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، وذلك هو ربح الدنيا، ويليه أو يترتب عليه ربح الآخرة وهو الربح العظيم، حيث يتلقاهم الله تعالى بالسلام.

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون فى العمل الإسلامى من قوله تعالى ﴿ **يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرا** ﴾ ما يلى :

أ - أن وظائف الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية هى امتداد لوظائف النبى ﷺ، لأن القرآن الكريم نزل عليه بقوله تعالى : على لسانه ﷺ : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [**يوسف** : ١٠٨] .

وتلك الوظائف قد ذكرناها آنفًا، ولكنا هنا نذكر بما للدعاة فيها من عمل فنقول والله المستعان :

● **الشهادة :**

الدعاة إلى الله يشهدون على الناس أنهم دعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلوهم بالتى هى أحسن. فأجاب منهم من أجاب وامتنع من امتنع، وهذه الشهادة من الدعاة تؤدى إلى فائدتين :

إحداهما : قيام الدعاة والحركيين بواجب الدعوة والحركة .

والأخرى : إلزام المدعوين الذين لم يستجيبوا الحجة وإقامة الدليل عليهم .

● **والتبشير :**

فعلى الدعاة إلى الله أن يحملوا إلى الناس البشارة مع الدعوة إلى الله، والبشارة حمل الأخبار السارة للناس، وذلك من صميم عمل الدعاة، وأحد الأسباب الهامة لتعلق الناس

بدعوة الله وإقبالهم على أداء واجباتها، واعتزازهم بالانتماء إليها والانضمام إلى موكب المؤمنين الذين يدعون إلى الله على بصيرة.

ولم يبشر من الدعاة إلى الله فقد تخلى عن إحدى وظائف الدعوة إلى الله.

● **والإنذار:**

وهو أسلوب الدعاة إلى الله فى تربية المدعوين إذ ينبهون بالإنذار كل غافل، ويخوفون كل متجرئ على الحق وأهله، ويبصرون بالعواقب.

ولكن ينبغى للدعاة أن يدركوا الفرق الدقيق بين الإنذار والتنفير، وبين الكلمة الهادفة والأخرى المفرقة للناس، ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، فقد كان ينذر بأرق أسلوب وأكثره احترامًا لمن يحتاجون إلى الإنذار، حينما كان يرى مخطئًا فلا يقول له أخطأت أو استحققت عقاب الله، وإنما يتحين الفرصة ليقول مُعرِّضًا بهذا المخطئ مجنبًا إياه الحرج: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا...، وما بال رجال.... وما بال الذين....، وما بال أحدكم...»(1).

والإنذار مع التبشير يكمل أحدهما الآخر، وهما أكثر ملاءمة لطبيعة النفس الإنسانية فى وقوفها من الحق وأهله موقف العاقل المستبصر، أو الغافل الذاهل عن حقائق الأمور.

والدعاة إلى الله لهم أن ينذروا الجاحدين والمكذبين وأن يخوفوهم عقاب الله، ولكن على الدعاة أن يتركوا للناس الحرية فى قبول هذه الدعوة أو رفضها، لأن الله تعالى لم يجعل لأحد أن يكره على الدخول فى الدين، فقال جل شأنه فى كتابه الكريم: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وهذه الآية الكريمة قررت منذ أربعة عشر قرنًا أو يزيد قاعدة فى حرية المعتقد لم يهتد إليها ولم يقررها واضعو القانون الدولى إلا أخيراً!!!

ومما يعزز تلك الحرية فى الفكر والعقيدة فى الإسلام قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ....** ﴾ [الكهف: ٢٩].

---

(١) وردت كلمة ما بال أقوام فى أربعة أحاديث نبوية، وكلمة: ما بال رجال: فى حديث واحد، وكلمة ما بال الذين: فى حديث واحد، وكلمة: ما بال أحدكم..: فى حديث واحد. انظر: الجامع الصغير للسيوطى تحقيق الألبانى: ٢/٩٧٦ ط المكتب الإسلامى - بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

● وداعيًا الله بإذنه :

الدعاة إلى الله أذن الله لهم بالدعوة أى أمرهم بممارستها وقد أمر الله تعالى بالدعوة إليه فى آيات عديدة من القرآن الكريم ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . .** ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وقوله جل شأنه : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [فصلت : ٣٣] .

وقوله جل وعلا : ﴿ **فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ [الشورى : ١٥][1] .

● وسراجًا منيرا :

الدعاة إلى الله يجب أن يكونوا كالمصابيح المضيئة لكل من يوجهون الدعوة إليه، يأخذون بيده ويسددون خطاه نحو ما يصلح دينه ودنياه، ويهدونه إلى الحق الذى جاء من عند الله وأسوتهم فى ذلك محمد ﷺ، الذى أخذ بحجز الناس عن النار، وكان بعضهم يحاول أن يقحم نفسه فى هذه النار، كما جاء فى الحديث النبوى الصحيح .

فقد روى البخارى ومسلم والترمذى وأحمد بأسانيده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلى كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حولها، جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار، يقعن فيها، وجعل يحجزهن، ويغلبنه فيقتحمن فيها، فذلك مثلى ومثلكم : أنا آخذ بحجزكم عن النار : هلمّ عن النار، هلمّ عن النار، فتغلبونى فتقتحمون فيها » .

ورواه أحمد بسنده عن جابر رضى الله عنه مختصراً .

ب ـ وأن أداء هذه الوظائف واجب شرعى، يأثم من لم يؤده إذا كان قادراً عليه .

● ومعنى ذلك أن ممارسة الدعوة إلى الله والعمل فى الحركة الإسلامية ليس تبرعًا من المسلم أو تطوعًا أو نافلة من العمل، وإنما هو أمر لازم وعمل واجب على كل من ملك البصيرة

---

(١) للتوسع فى معرفة وجوب الدعوة إلى الله على كل مسلم ومسلمة يملك البصيرة : انظر لنا : فقه الدعوة إلى الله ـ نشر دار الوفاء بمصر ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

فى الدعوة إلى الله.

● وليس صحيحًا بحال أن يقول رجل ممن يملكون البصيرة فى الدعوة إلى الله(١): حسبي أن أكون رجلاً صالحًا فى نفسى وليس علىّ أن أمارس الدعوة إلى الله، لأنه بهذا القول يتجاهل قول الله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة....﴾ الآية.

● ولو كان ما يقوله القاعد عن ممارسة الدعوة إلى الله صحيحًا ما انتشر الإسلام ولا خرج به المسلمون من مكة إلى المدينة إلى الشام إلى اليمن إلى فارس إلى سائر المعمورة، ولما كانت لهذا الدين إيجابيته وفاعليته وقدرته على تخطى حدود الزمان والمكان، بحيث بلغ فى أقل من نصف قرن مسامع ما يقرب من نصف سكان الكرة الأرضية !!!

● إن على الدعاة إلى الله ألا يتوقفوا عن توصيل الدعوة إلى الله إلى كل مكان فى العالم لأن هذا واجبهم، ولأن هذه الدعوة لا تعرف حدوداً فى الزمان أو فى المكان(٢).

جـ - وأن الدعوة إلى الله لا يجوز أن يُكره أحد على الدخول فيها، وليس لأحد الدعاة أن يتشدد فى عرضها ولا يتزمت فى المطالبة بواجباتها.

● والدعوة إلى الله هى الدعوة إلى دين الإسلام، والإسلام يسر لا عسر فيه، ولن يتشدد فيه عارف به، فإن تشدد فهو يجهل الدين ويخالف هوى النبى ﷺ، فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الدين يُسْر ولن يشاد الدينُ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة».

● ولم يجعل الله تعالى على عباده حرجًا ولا ضيقًا فيما شرع لهم، والدعاة إلى هذا الدين لهم فى الدعوة إليه طرق ثلاثة:

الحكمة.

والموعظة الحسنة.

والجدال بالتى هى أحسن.

ولا يستطيعون الخروج على هذه الأساليب وإلا لاقوا الفشل، وأحدثوا فى الناس نفوراً من الدين، وحمل الدعاة إلى نتيجة للخروج عن هذه السبل ما لا يطيقون وما لم يطلب منهم

(١، ٢) وانظر لنا كتاب: عالمية الدعوة الإسلامية وهو كتاب موسع نشرته دار الوفاء بمصر ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م فى طبعته الرابعة. الفصل الأول من الباب الخامس.

بل ما حظر عليهم.

● وليس أرق فى الدعوة إلى الله من الأسلوب القرآنى الذى ساقه الله على لسان موسى عليه السلام وهو يدعو فرعون الذى كان عاليًا من المسرفين، إذ قال له فى توجيه الدعوة إليه:

﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩].

ولقد علم الله موسى وهارون عليهما السلام طريقة عرض الدعوة على الطغاة فى قوله تعالى لهما: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

إن هذا لدرس عظيم النفع للدعاة إلى الله وهم يعرضون دين الله على عباد الله، والخروج على ذلك تنطع وتكلف ومغالاة مرفوضة فى عرف الدعوة إلى الله، وفى الحديث الصحيح ما رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون» ورواه أحمد وأبو داود بسنديهما عن ابن مسعود رضى الله عنه.

٣ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون بالحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ ما يلى:

أ - أن الدعاة إلى الله مأمورون بأن يبشروا المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيرًا، أى مزيداً من الخير فى الدنيا والآخرة.

وإنما كان هذا التبشير بتلك المكانة عند الله للمؤمنين، ليجد المؤمنون فى تلك المكانة عزاء عما يصيبهم من عناء ومشقة لأنهم مؤمنون يواجههم من أجل إيمانهم أهل الباطل والضلال، وتلك البشارة إشارة إلى المؤمنين بأن يحتملوا ما يصيبهم فى الدنيا من نصب أو وصب، ولهم عند الله تعالى تلك المكانة وهذا الفضل الكبير.

ب - وأن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية، وهم يمارسون العمل فى سبيل الله، لابد أن يتعرضوا لمحنة وفتنة ومصاعب ومتاعب ومنغصات، وما لم يقابلوا ذلك بالصبر واحتساب الأجر عند الله، فكيف يكون لهم عند الله فضل كبير؟

● إنها سنة الله فى الدعاة إليه، فى الذين خلوا من قبل من الأنبياء والمرسلين والمصلحين

المؤمنين، وستظل سنته فى كل من سار فى موكب الدعوة إلى الله، بل هى ضريبة الإيمان نفسه، كما نفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾

[العنكبوت: ٢، ٣].

جـ – وأن الدعاة إلى الله يجب أن يكون شأنهم عدم طاعة الكفار والمنافقين فى شئ مما يرغبون فيه، فهم لا يرغبون إلا في الشر، وتحدى الحق وأهله، ونصر الباطل، وأتباعه، فكيف يطيعهم المؤمنون وهم ألد أعدائهم؟

● وأهل الكفر والنفاق قد يزينون مطالبهم، ويموهون عليها بما يخفى أهدافها الخبيثة ومراميها غير المنظورة، لكن الدعاة ما ينبغى أن تنطلى عليهم تلك الحيل فهم مؤمنون والمؤمن كيِّس فَطن، فماله أبداً أن يطيع الكافرين والمنافقين، بل ترك طاعتهم طاعة لله تعالى، وتأمين للدعوة والدعاة، وكل ذلك من صميم العمل فى الدعوة والحركة والتمكين لدين الله فى الأرض.

د – وأن الدعاة إلى الله ليس لهم أن ينشغلوا، أو ينفقوا من وقتهم أو جهدهم شيئًا فى تحدى أعداء الدعرة وتوجيه الأذى إليهم ردًّا على ما يواجهون به الدعاة إلى الله من أذى وشر، لأن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يترك أذى أعدائه فقال له: ﴿ **وَدَعْ أَذَاهُم** ﴾ ولنا فيه ﷺ الأسوة الحسنة.

● والذى أشعر به فى مرمى هذه الكلمة من الآية الكريمة ﴿ **وَدَعْ أَذَاهُم** ﴾ أى اصبر واحتسب أجر الصابرين عند الله، فذلك بالقطع خير لك من أن تؤذيهم ردًّا على أذاهم لك.

هـ – وأن على الدعاة فى مواجهة التحدى والأذى الواقعين عليهم من الكفار والمنافقين ومن لفَّ لفَّهم أن يتوكلوا على الله تعالى تاركين له سبحانه كف أذى هؤلاء الأعداء، ودفعهم شرهم عن المؤمنين، فهو سبحانه: نعم الوكيل.

● والتوكل على الله تعالى – كما نعرف – لا يعنى ترك الأخذ بالأسباب، لأن الأخذ بها جزء من التوكل نفسه، أما ترك الأخذ بها فهو تواكل.

● وقد قال الأسلاف من العلماء: إن أفضل التوكل على الله هو التوكل في الواجب – أى واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس – ففى كل ذلك يجب التوكل على الله تعالى.

● **ومن أفضل التوكل:**

التوكل على الله فى جلب مصلحة دينية، أو دفع مفسدة فى الدين، وذلك توكل الأنبياء والمرسلين فى إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين فى الأرض.

وكذلك الشأن فى توكل الدعاة إلى الله ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

● وقال بعض العارفين: مَنْ صدق توكله على الله فى حصول شيء، ناله بفضل الله.

● ولبعضهم فى التوكل: «التوكل هو ألا يظهر فيك انزعاج إلى يالأسباب مع شدة فاقتك إليها».

وليس معنى قوله هذا هو ترك الأخذ بالأسباب، وإنما معناه ألا يعتمد على الأسباب إن أخذ بها وإنما يكون اعتماده على الله تعالى، فذلك هو التوكل الحقيقى، لقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**﴾ [الطلاق: ٣].

● وما أحوج الدعاة إلى هذا الفقه فى التوكل على الله، وهم يمارسون أعمال الدعوة إلى الله والحركة من أجل أن يمكن لدين الله فى الأرض،نسأل الله تعالى لنا ولهم الخير بالفقه فى هذا الدين العظيم.

١٠- الآيات من التاسعة والأربعين إلى الثانية والخمسين

أحكام فى الزواج تعم المسلمين وتخص الرسول ﷺ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠) تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾

[الأحزاب : ٤٩ - ٥٢] .

● تحدثت هذه الآيات الكريمة عن موضوعين:

أحدهما: حكم المطلقات قبل البناء بهن من حيث العدة وبراءة الرحم.

والآخر: بيان ما أحل الله للنبى ﷺ من الزوجات والسرارى، مما هو خاص به ﷺ، أو مما هو مساوٍ لأمته فيه من الأحكام، بحيث ينطبق على المؤمنين جميعًا.

● وقد اشتملت الآيات على نداءين:

أحدهما: نداء على المؤمنين عمومًا.

والآخر: نداء على النبى ﷺ.

كما اشتملت الآيات على أكثر من أمْر، وعلى عدد من الأخبار، وعلى أكثر من أسلوب شرط، مما سنوضحه فيما يلى والله الموفق.

- **﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن، فما لكم**

عليهن من عدة تعتدونها، فمتعوهن وسرحوهن سراحًا جميلاً ﴾.

● ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات.... ﴾.

نداء على المؤمنين لتعليمهم حكمًا شرعيًا خاصًا بطلاق امرأة لم يدخل بها من عقد عليها.

نكحتم: تزوجتم، والنكاح العقد، ولا يدل لفظ النكاح على الوطء (الجماع). على الرغم مما قاله بعض علماء اللغة. والدليل على أن النكاح لا يعنى الوطء هذه الآية الكريمة ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن... ﴾ فقد أثبت النكاح وسماه نكاحًا على الرغم من أن الزوج طلق زوجته دون أن يمسها أى يطؤها.

ولو كان النكاح هنا يعنى الوطء والدخول بالزوجة، لما قال من قبل أن تمسوهن، ولأن للمطلقة عدة تعتدها للتأكد من براءة الرحم من الحمل.

● ﴿ ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾.

الطلاق: إنهاء عقدة النكاح.

والمسُّ أو المسيس: كناية عن الوطء، وقد يسمى ذلك ملامسة كما فى قوله تعالى: ﴿ ... أو لامستم النساء... ﴾.

● ﴿ فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾.

العِدَّة: هى المدة المحدودة لانتظار المرأة زوجًا آخر بعد الذى طلقها، وهى المدة التى يتأكد بها من خلو رحمها من حملٍ من زوجها الأول.

والهدف من ذلك هو عدم اختلاط الأنساب أى حفظها، وذلك مقصد من مقاصد الشريعة.

وفى هذه الآية تقرير ألا داعى للعدة فى حالة طلاق المرأة قبل يدخل بها زوجها لأن احتمال الحمل غير قائم.

● ﴿ فمتعوهن ﴾ أى أعطوهن عطية تطيب خاطرهن فى مقابل هذا الطلاق.

والمتعة – أى العطية – تكون على قدر ظروف المطلق وإمكاناته إن كان موسرًا أو مُقْترًا، فكل يعطى مما يستطيع، قال الله تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا

بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وهذه المتعة حق للمطلقة عمومًا سواء أكان بَنَى بها زوجها أم لم يَبْن.

● **﴿وسرحوهن سراحًا جميلا﴾** أى فارقوهن بالطلاق دون أن تلحقوا بهن أذى أو ضررًا، ومعنى هذا أن إلحاق الضرر من الزوج بمطلقته حرام لما فيه من الأذى، ولمخالفته هذه الآية لأنها تأمر بالسراح الجميل، وفى آية أخرى التسريح بإحسان، فى قوله تعالى: **﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ...﴾** [البقرة: ٢٢٩].

– **﴿يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن...﴾** الآية.

● هذا هو النداء الرابع للنبى ﷺ، خوطب به فى شأن خاص به هو بيان ما أحل الله من الزوجات والسرارى، أى الطبقات التى يختار منها أمهات المؤمنين.

● وذلك أن الله تعالى أباح له من الزواج ما كان مشروعًا له من قبل كما يفهم ذلك من قوله تعالى: **﴿أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن...﴾** وأباح له التزوج من:

﴿وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك﴾.

﴿وبنات عمك، وبنات عماتك﴾.

﴿وبنات خالك وبنات خالاتك﴾.

● و**﴿أحللنا لك﴾** أى أبحنا لك أزواجك من:

﴿اللاتى آتيت أجورهن﴾ وهن النسوة اللاتى تزوجهن الرسول ﷺ على حكم النكاح الذى يعم الأمة كلها.

﴿أجورهن﴾ أى مهورهن، وهؤلاء فيهن من كانت من قريباته وهن القرشيات:

عائشة وحفصة وسودة وأم سلمة وأم حبيبة رضى الله عنهن وفيهن من لم تكن من قريباته وهن:

جويرة من بنى المصطلق، وميمونة من بنى هلال، وزينب أم المساكين من بنى هلال أيضًا، وكانت يوم نزول هذه الآية قد توفيت، وصفية من بنى إسرائيل.

● وممن أباح الله له التزوج منهن ثلاثة أصناف أُخر:

الأول:

ما ملكت يمينه مما أفاء الله عليه أى أعطاه من الفئ وهو ما ناله المسلمون من أعدائهم بغير قتال، أو مما أُهدى إلى النبى ﷺ مثل: مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام.

والصنف الثانى:

نساء من قريباته ﷺ من جهة أبيه أو من جهة أمه، مؤمنات مهاجرات.

والصنف الثالث:

امرأة تهب نفسها للنبى ﷺ دون مهر، وكذلك كان بعض النساء يفعلن مع عظماء العرب قبل الإسلام، فأباح الله تعالى له ذلك دون مهر.

وهذا من الأحكام الخاصة بالنبى ﷺ، ولا يجوز لأحد من المسلمين ذلك.

- ﴿**إن أراد النبى أن يستنكحها**﴾ أى إن أراد نكاحها دون مهر ودون ولى فهى له حلال -لأنه ﷺ معصوم عن الطمع فيها أو استغلال ظروفها لصالحه، فضلا عن عصمته عن الخطأ- أما سائر المؤمنين فلا يحل لهم ذلك لاحتمال الوقوع فى الطمع أو الاستغلال أو الخطأ عموماً.
- ﴿**قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وملكت أيمانهم**﴾: والمعنى أن المؤمنين مستمر لهم ما شرع لهم من قبل فى أحكام الزواج من الحرائر ومما ملكت أيمانهم.
- ﴿**فرضنا عليهم**﴾ من عدد الأزواج ومن ملك اليمين توسعة عليهم، ورفعًا للحرج والضيق عنهم وعن النبى ﷺ ﴿**لكيلا يكون عليك حرج**﴾ أى ضيق ومشقة فى ذلك، لأن الله تعالى ما جعل على أحد فى الدين – الأحكام الشرعية – من حرج.
- وأرجو أن أوضح هنا مسألة يلهج بها أعداء الإسلام وهى أن الرسول ﷺ قد أباح الله له الزواج بأكثر من أربع، بينما لم يبح للمؤمنين أكثر من أربع، ويرتبون على ذلك كثيراً من الباطل مثل:

– زعمهم بأن هذا تميز له على سائر المؤمنين، فى عدد الزوجات.

– وزعمهم بأنه ﷺ كان مزواجًا،

– وزعمهم بأنه يشرع لنفسه.

وهذه مزاعم باطلة يحركها الحقد وقصر النظر والبعد الشديد عن الإنصاف.

وبيان ذلك :

– أن التميز في عدد الزوجات – عند التأمل – ليس صحيحًا، بل سائر المؤمنين في سعة من أمر الزواج أكثر من الرسول ﷺ – بعد نزول هذه الآية – وذلك أن للمؤمنين أن يتزوج من أربع من الحرائر، ثم يطلق من أراد طلاقها ويتزوج بدلا منها، ومعنى هذا أن العدد في الزوجات هنا أوسع. أما الرسول ﷺ فقد أمر بالإمساك على من كُنَّ في عصمته في ذلك الوقت وحرم عليه الزواج من أى امرأة أخرى غيرهن، فأين هو التميز على المؤمنين في عدد الزوجات؟

– وأما زعمهم أنه ﷺ كان مزواجًا أو شهوانيًا، فذلك ما يكذبه الواقع، فقد عرفت عنه وفي سيرته العفة والاستقامة، ولو كان كما يزعمون لما وقف عند هذا العدد ولما تزوج بعض زوجاته الكبيرات في السن اللاتى تنازل بعضهن عن حقه في العلاقة الزوجية، مكتفيًا بالقرب من النبوة وما فيها من برّ ومكانة عند الله، ولو كان شهوانيًا ما رضى بذلك.

ولو كان كذلك لكان له في الزواج من الأبكار – اللاتى أوصى المسلمين بالتزوج منهن – مُتَّسَع، ولكنه ﷺ لم يتزوج بِكْرًا سوى عائشة رضى الله عنها، وأما سائر زوجاته فكن ثيبات.

– وأما زعمهم أنه يشرع لنفسه، فالرد عليه بآيات القرآن الكريم نفسه، لأن بعض آيات القرآن تعاتبه وتهدده لو خرج عن السمت الذى أراده الله له، وذلك في الآيات التالية – على سبيل المثال –:

- ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ.....** ﴾ [**عبس: ١ – ١١**]، وقد كان ﷺ كلما لقى عبد الله بن أم مكتوم الذى نزلت في شأنه هذه الآيات يقول له: «أهلا بمن عاتبنى فيه ربى» روى أبو يعلى في مسنده بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبى ﷺ وهو يكلم أُبَيَّ بن خلف فأعرض عنه فأنزل الله عز وجل: ﴿عبس وتولي أن جاءه الأعمي﴾ فكان النبى ﷺ، يكرمه».
- ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ㊹ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ㊺ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ㊻ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ㊼** ﴾ [**الحاقة: ٤٤ – ٤٧**]، والمعنى كما قال المفسرون: لو تقوّل علينا محمد – كما يزعمون – فزاد في الرسالة أو نقص منها أو قال شيئًا من عنده فنسبه إلينا لعاجلناه بالعقوبة...

● ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

والمعنى: أن المشركين يحاولون صرفك عن القرآن لتطلب غيره من المعجزات وحينئذ يتخذونك صاحبًا لهم، ولكنك رسولنا الأمين، وقد صرفناك عن الاستجابة لهم وثبتناك على الحق، ولولا ذلك لأوشكت أن تميل إليهم طمعًا فى أن يكمل إيمانهم يومًا، ولو قاربت الركون إليهم لجمعنا عليك عذاب الدنيا، وضاعفناه وعذاب الآخرة وضاعفناه ثم لا تجد لك نصيرًا علينا يمنع عنك العذاب.

فكيف يشرع لنفسه أو يفترى على الله شيئًا، وهو يتلو على الناس هذه الآيات التى تعاتبه وتهدده؟

هذا ما أردت قوله فى هذه المفتريات بإيجاز، والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل.

● ﴿ **لكيلا يكون عليك حرج** ﴾ أى أن هذه التشريعات فى الزواج بسبب رفع الحرج والضيق عنك وعن المسلمين.

● ﴿ **وكان الله غفوراً رحيمًا** ﴾ والمغفرة والرحمة صفتان ذاتيتان لله تعالي فقد شرع الله هذه التشريعات في الزواج رحمة منه بعباده وتوسعة عليهم ومغفرة لهم.

- ﴿ **ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك** ﴾.

هذهالآية الكريمة متعلقة فى معناها بمعنى آية: ﴿ **إنا أحللنا لك أزواجًا** ﴾، ولك الحق فى أن ترجئ من تشاء منهن أى تؤخره إلى أجل، وتدنى من تشاء منهن.

والمعنى: تؤخر من تشاء منهن فى القَسْم، وتدنى إليك من تشاء، ومَنْ طَلَبَ ممن أخرت قسمها لا مؤاخذة عليك.

● ﴿ **ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن، ويرضين ما آتيتهن كلهن، والله يعلم ما فى قلوبكم** ﴾.

أى أن ذلك التفويض إلى مشيئتك فى القَسْم أقرب إلى سرورهن، وإبعاد الحزن عنهن، وأن يرضين كلهن بما آتيتهن، والله يعلم ما فى قلوبكم من السخط أو الرضا بما شرع الله

تعالى.

● ﴿ **وكان الله عليمًا حليمًا** ﴾ أى عليمًا بالصدور وما تكن، حليمًا لا يعاجل بالعقوبة.

– ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد، ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك** ﴾.

والمعنى: لا يحل لك أيها النبى النساء بعد ذلك – أى بعد نزول هذه الآية – ولا يحل لك أن تطلقهن لتستبدل بهن من تشاء ولو أعجبك حسن من تريد الزواج منهن.

ولكن الله تعالى أحل لك ما تملكه يدك من الإماء تتسرى بهن، وما عُرف عن رسول الله ﷺ أنه كان له إماء يتسرى بهن، إلا مارية القبطية التى أهديت إليه من مقوقس مصر، والتى ولدت له ابنه إبراهيم عليه السلام، فصارت أم ولده، رضى الله عنها.

● ﴿ **وكان الله على كل شئ رقيبا** ﴾ أى مطلعًا على كل شئ حافظًا له.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

وهى مواقف معلمة وهادية لكل مسلم فى دنياه وآخرته، وهى كثيرة نذكر منها ما يلى والله الموفق:

١ – يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها، فمتعوهن وسرحوهن سراحًا جميلاً** ﴾ يتعلمون من هذه الآية ما يلى:

أ – أن المسلم إذا عقد على امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فليس عليها من عدة – أى مدة زمنية يتأكد فيها من براءة رحمها من الحمل، لأن الحمل فى هذه الحالة غير ممكن.

وهذا تشريع لصالح المرأة، إذ يمكنها أن تتزوج من آخر، إذا تقدم لها دون انتظار.

ب – وأن وراء هذا التشريع ونحوه من التشريعات المتصلة بالمرأة هدفًا كبيرًا بل مقصداً من مقاصد الشريعة الإسلامية هو حفظ الأنساب والحرص على نقائها، كي لا ينسب ولد إلى غير أبيه، أو يولد وأمه فى عصمة رجل آخر، لما فى ذلك إن حدث

من أضرار نفسية واجتماعية، نعرف آثارها في مجتمعات الغرب التى لا تهتم ببراءة الرحم ولا يعنيها أن تختلط الأنساب.

وقد رأينا في الغرب - بحكم ترددنا على كثير من بلدانه - أن الولد ينسب عمداً إلى غير أبيه، بل تكون المرأة ذات ولد، ثم تنسب ولدها إلى الرجل الذى تتزوجه أو تعاشره بعد الأول ولا يرون فى ذلك عيبًا أو خطأ فضلا عن خطيئة !!!

● وهذه العدة للزوجة التى بنى بها زوجها - وهى ثلاث حيَض فيها - فضلا عن التأكد من براءة الرحم - فترة تأمل فى الحياة التى انتهت بالطلاق وتفكير فى الأسباب التى أدَّت إلى الطلاق كى لا تتكرر فيما بعد، وفيها تخلص من المشاعر التى كانت للزوج الأول لتقبل على الزوج الثانى بمشاعر جديدة.

والعدة تحقق مصلحة للزوج الذى طلق، إذ قد يتأمل حياته مع تلك التى طلقها، فلعله يتعرف أسباب الطلاق ويلوم نفسه، ثم يراجعها أثناء فترة العدة - إن كان الطلاق للمرة الأولى - أو يتجنب هذه الأسباب فى زواجه الثانى.

جـ - وأدب الإسلام فى التعامل مع المطلقة أن يعوضها مَنْ طلقها عن هذا الطلاق بعوض مالى يطيب به خاطرها، ويجنبها به شر الحاجة إن كانت معسرة، حتى يهيئ الله لها زوجًا آخر.

وقد أوسع الفقهاء موضوع المعتد بحثًا ودراسة وشروطًا، ولكن المعول عليه إجمالاً هى حال المطلق إن كان موسراً أعطى عوضًا يناسب يساره، وإن كان معسراً روعى إعساره، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

د - وأن الطلاق إن حدث من مسلم لزوجه فيجب عليه أن يكون تسريحه لها جميلاً، خاليًا من المتاعب والمنغصات، فضلاً عن التقاضى والمخاصمات - كما يحدث كثيراً مع الذين لا يتقون الله فى التعامل مع الأزواج فى حالات الطلاق - ولذلك وصف الله تعالى الطلاق - السراح - الواقع من الرجل على امرأته بأنه سراح جميل أو هكذا يجب أن يكون.

٢ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن...** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ **وكان الله على كل شئ قديراً** ﴾ ما يلى:

أ - أن للنبى ﷺ أحكامًا تخصه تناسب مقام النبوة فى الزواج والطلاق، وأن سائر

المسلمين لهم أحكام معروفة مختلفة، عما هو للرسول ﷺ.

- وأن على المسلمين أن لا يعبأوا بما يراه أعداء الإسلام من اتهامات ومفتريات تمس النبي ﷺ فحسب النبي ﷺ كمالا وجلالا أن الله تعالى وصفه بقوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤]. وأنه سبحانه عصمه من تلك الأخطاء التي يرددها المبطلون.

- ومن العجب العُجاب أنّ من يثيرون هذه التهم من كتاب الغرب!!

ووجه العجب أن الذي ينكرونه على النبي ﷺ من كثرة الزوجات اللاتي أحلهن الله له، يغرقون هم حتى الأذنين فيما هو مناقض للفطرة في عشرات الخليلات في الحرام!!

- وأن الهجوم على تعدد الزوجات - أي الأربع - بالنسبة لسائر المسلمين، هجوم يقوم على الحقد على الإسلام وتشريعاته، وعلى الجهل بأهداف هذا التعدد.

وذلك أن التعدد ليس متعارضًا مع الفطرة البشرية التي تنادي على الإنسان أن يرى له أبناء عديدين قد لا تستطيع واحدة من الزوجات أن تلبي هذه الحاجة، فضلاً عما في التعدد من رفع العنت عن الزوج الراغب في التعبير عن حاجته إلى الجماع - وهي حاجة فطرية ما لم يعبر عنها شعر بالضيق والعنت - في الوقت الذي تكون فيه الزوجة الواحدة غير قادرة على ذلك لما يعوقها من حيض أو نفاس أو نحو ذلك من الموانع، وعند منع التعدد - كما هو الحال في الغرب - يكون الزنى والسفاح والشذوذ في العلاقات الجنسية.

ب - وأن الله تعالى لم يشرع تشريعًا إلا كان فيه مصلحة عامة للمسلمين مصلحة منظورة على المدى القريب أو البعيد، أو غير منظورة ولكن الله تعالى يعلم أنها مصلحة في الدنيا والآخرة.

وما دام الله تعالى قد شرّع، وقال لرسوله الكريم اتبع هذا الشرع فإن اتباع تشريعه واجب على المسلمين جميعًا، نفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الجاثية: ١٨].

فماذا بعد ذلك؟

إن اتباع شريعة الله لا بديل له إلا اتباع أهواء الذين لا يعلمون، فهم أصحاب هوىً وهم من الذين لا يعلمون!!!

واتباعهم معناه خسران الدنيا والآخرة.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى هذه الآيات

يتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات قيمًا تربوية عظيمة الفائدة فى مجالى الدعوة والحركة، كما يتعلمون من معظم آيات القرآن الكريم. ومن تلك القيم ما نذكره فيما يلى:

١ - يتعلمون من قوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتوهن من قل أن تمسوهن...**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وسرحوهن سراحًا جميلاً**﴾ ما يلى:

أ - أن مقاصد الشريعة الخمسة التى يقوم عليها التشريع هى: حفظ النفس والعقل والدين والعرض والمال.

● وما لم تكن محافظة على هذه الأسس الخمسة للحياة الإنسانية فلا أمن ولا اطمئنان ولا استمرار للحياة الإنسانية.

● وأن كل قوانين الأرض فى الماضى والحاضر تدّعى أنها تعمل على صيانة هذه الحقوق.

غير أنه لا يمكن أن يرقي قانون وضعه الناس إلى مستوى قانون وضعه رب الناس، أى إلى ما جاءت به الشريعة الإسلامية من نظم وقوانين تصون هذه الحقوق.

ب - وأن واحداً من هذه الحقوق هو المحافظة على الأعراض والأنساب، وأن التشريع الإسلامى قد تضمن تنظيمًا للزواج والطلاق وما يترتب عليها من حقوق وواجبات[١]، وهذه الآية تضمنت نظام العدة للمرأة المطلقة قبل أن يدخل بها زوجها، والتى مات عنها زوجها سواء أمات عنها حاملا أو غير حامل، أو غاب عنها حتى أصبح مفقوداً أو فى حكم المفقود.

● إن هدف هذه التشريعات هو حفظ الأعراض والأنساب.

جـ - وأن الطلاق فى الإسلام لا يعنى عداوة وافتراقًا يعقبه صراع شخصى أو عائلى، تتدخل فيه المحاكم ومجالس المحكَّمين، وإنما هو عمل أحلّه الله - وإن كان من أبغض الحلال إلى الله - عندما توجد له أسباب يرى معها أن فصل العلاقة الزوجية هو الحل.

---

(١) للتوسع فى ذلك: انظر كتابنا: المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله نشر: دار الوفاء بمصر. ط ٣ سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

والطلاق يحاط فى الشريعة الإسلامية بكثير من الضمانات التى تجعله غير مؤد إلى مشكلات أو متاعب، بل يحمل من تطييب خاطر المطلقة ما يعوضها عن الطلاق، ويجب أن يكون على مستوى السراح الجميل.

د – وأن تركيز الدعاة والحركيين على إذاعة هذه التشريعات الحكيمة بين الناس، لما فيها من قدرة على تأمين حياة إنسانية كريمة لكل البشر، حياة تسودها العلاقات الاجتماعية الإنسانية الراشدة التى تحقق الوئام والسعادة لكل أفراد المجتمع.

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن.....** ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿ **وكان الله على كل شئ رقيبا** ﴾ ما يلى:

أ – أن عصمة النبى ﷺ من الأخطاء أمْرٌ مسلم، لا يبنغى أن يضيعوا أوقاتهم وجهودهم فى الجدال حوله، لأن الواهمين الذين يتهمون الرسول ﷺ ببعض التهم التى تطعن فى عصمته لا يملكون أدنى دليل ولا برهان، وإنما يحركهم الحقد والكرهية لكل ما هو إسلامى.

فلينصرف الدعاة والحركيون إلى الدعوة إلى الله والحركة والعمل على تمكين دين الله فى الأرض، أفضل من أن يشغلوا أنفسهم بالرد على هذه الاتهامات والأباطيل.

ب – وأن على الدعاة والحركيين أن يؤكدوا فى كل مناسبة أن الله تبارك وتعالى، ما شرع حكمًا للنبى ﷺ خاصة ولا له وللمؤمنين عمومًا، أى حكم يؤدى إلى الدخول فى ضيق أو حرج لأن القاعدة العامة فى الإسلام بالنسبة للتشريعات كلها هى: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ....** ﴾ [الحج: ٧٨]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ** ﴾ [المائدة: ٦]. وهذه الآية الكريمة التى تعلن أن هذه التشريعات وغيرها لرفع الحرج: ﴿ **لكيلا يكون عليك من حرج** ﴾.

جـ – وأن الدعوة إلى الله تعالى واجب شرعى – كما أوضحنا ذلك آنفًا[1] – وأن الحركة من أجل جذب الناس إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وإلى الانتماء إلى الإسلام والاعتزاز به وبمنهجه، واجب شرعى كذلك – كما أوضحنا ذلك أيضًا – وأن العمل من أجل تمكين دين الله فى الناس واجب شرعى لا

(١) انظر لنا فى ذلك: فقه الدعوة إلى الله، وفقه الدعوة الفردية، والمرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله، وعالمية الدعوة الإسلامية، ومع العقيدة والحركة والمنهج.. كلها نشر دار الوفاء بمصر.

فكاك منه لكل قادر عليه – كما أوضحنا ذلك غير مرة فى هذا الكتاب، وفى كتب لنا أخرى[1].

ومعنى ذلك أن ما يصيب الدعاة والحركيين والعاملين من أجل الإسلام من نَصَب أو وصب، أو مشقات أو متاعب أو فتن أو مِحَن، كل ذلك لا يمكن اعتباره قد أدخل المسلم فى حرج من أمر دينه فيما فرض الله تعالى عليه، لأن من سنة الله تبارك وتعالى فى الدعاة إليه فى الماضى والحاضر والمستقبل أن يمتحنهم، بل يهيئ لهم الوقوع فى الفتن، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، نفهم ذلك من قوله تعالى: **﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾** [**العنكبوت**: ٢، ٣].

د – وأن على الدعاة إلى الله أن يرفعوا أمام ناظريهم دائما، وأمام من يدعونهم إلى الله، ومن يتحركون فيهم من أجل الإسلام ومن أجل أن يمارسوا الدعوة إلى الله، أن يرفعوا شعار: **«قد علمنا ما فرضنا عليهم»** ليطمئنوا إلى حكمة التشريع وفائدته فى الدنيا والآخرة، ويكمل هذا الشعار، شعار آخر يزرع الطمأنينة فى النفوس ويقنع أصحاب العقول السليمة وهو: **﴿ وكان الله عليماً حليماً ﴾**.

● إن هذه الشعارات التى أتحدث عنها مبادئ قوية وقادرة على أن تجعل الحياة الإنسانية كريمة نبيلة لائقة بتكريم الله تعالى للإنسان.

---

(١) انظر لنا فى ذلك: فقه الدعوة إلى الله، وفقه الدعوة الفردية، والمرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله، وعالمية الدعوة الإسلامية، ومع العقيدة والحركة والمنهج.. كلها نشر دار الوفاء بمصر.

١١ - الآيات من الآية الثالثة والخمسين إلى التاسعة والخمسين
أدب دخول بيوت النبى ﷺ، وما يباح لزوجاته، وأدب التعامل مع النبى ﷺ وحجاب أمهات المؤمنين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) ﴾ [الأحزاب: ٥٣ - ٥٩].

- تتحدث هذه الآيات الكريمة عن أدب المسلمين فى دخول بيوت النبى ﷺ، وجلوسهم فيها وانصرافهم منها.

وعن حجاب زوجات النبى ﷺ، وعلى من يكون هذا الحجاب.

وتتحدث الآيات الكريمة عن حكم شرعى جديد هو تحريم الزواج من أمهات المؤمنين بعد وفاة الرسول ﷺ، وعن الثناء على النبى ﷺ وتشريفه.

وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، وتحريم التسبب فى أذاه، أو أذى المؤمنين، تحريم ذلك على كل مؤمن ومؤمنة.

- وقد اشتملت الآيات الكريمة على نداءين، أحدهما نداء على الذين آمنوا، والآخر نداء للنبى ﷺ، كما اشتملت الآيات على أخبار عديدة، وعلى أكثر من أسلوب شرط، مما

سنبينه فيما يلى والله المستعان :

- ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه.....** ﴾ الآية .

● وفى سبب نزول الآية الكريمة روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب ابنة جحش رضى الله عنها، صنع طعاماً بخبز ولحم، ودعا القوم، فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، قام مَنْ قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبى ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، فجعل النبى ﷺ يخرج ثم يرجع، فانطلق إلى حجرة عائشة رضى الله عنها .... فتترى حجر نسائه كلهن يسلم عليهن، ويسلمن عليه، ويدعون له، ثم إنهم قاموا، فانطلقتُ فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه، فانزل الله تعالى : ﴿ .... **فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن....** ﴾ .

● فى هذا الجزء من الآية مشروعية الدخول إلى بيوت النبى ﷺ إذا أذن لمن يريد الدخول .

ويفهم من ذلك أن دخول بيوت المؤمنين لا يجوز بغير أن يأذن صاحب البيت .

● ومن أدب الجلوس والطعام في البيوت التي أذن أصحابها لغيرهم بدخولها، ما يلي :

● أن أدب الدخول إلى بيت من بيوت النبى يقتضى الإذن المسبق منه لمن يريد الدخول، وكذلك الشأن فى دخول بيوت المؤمنين .

● وأن الجلوس فى بيت النبى ﷺ انتظاراً لنضج طعام، محظور لما فيه من مخالفة لنص الآية الكريمة : ﴿ ... **إلى طعام غير ناظرين إناه...** ﴾ .

أى أنه لا يسوغ انتظار نضج الطعام فى بيوت النبى ﷺ .

● من أدب التعامل مع النبى ﷺ الانصراف من بيته ﷺ بعد تناول الطعام دون الجلوس للاستئناس بالأحاديث التى يتبادلها الجالسون، « وإذا أطعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث » .

● ومخالفة هذه الآداب فى دخول بيت النبى أو فى انتظار نضج الطعام فى بيته ﷺ ، أو الجلوس فى بيته بعد تناول الطعام للمسامرة والاستئناس بالحديث، كل ذلك يؤذى النبى ﷺ ﴿ **إن ذلك يؤذى النبى فيستحيى منكم** ﴾ .

● وقد أقرت الآية الكريمة مبدأ عظيمًا للمسلمين جميعًا لو طبقوه لكانوا أحسن حالا، هو مبدأ: ﴿ **والله لا يستحي من الحق** ﴾.

● هذا المبدأ يحفظ للإنسان حقوقه، ويجعله ملتزمًا بواجباته، والمسلمون جميعًا أفرادًا وجماعات ينبغي ألا يستحوا من الحق، وإنما عليهم أن يجاهروا به ويدعوا إليه، ويجاهدوا من أجله، ويصبروا على ما يصيبهم وهم يتواصون به، ويتمسكون بما يدعون إليه، وذلك أن الإنسانية كلها تعد فى خسران إذا لم تكن كذلك، لما يضيع بين أفرادها من حقوق، والله تعالى يستثنى من هؤلاء الخاسرين، المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويتواصون بالحق ويتواصون بالصبر، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)** ﴾ [سورة العصر كلها].

● ولقد فهمت معنى ألا يستحى من الحق أم سُلَيْم رضى الله عنها، وأقرها النبى ﷺ على فهمها.

فقد روى البخارى بسنده عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: جاءت أم سُلَيْم امرأة أبى طلحة – رضى الله عنهما – إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحى من الحق، هل على المرأة من غُسْل إذا هى احتلمت فقال رسول الله ﷺ: «نعم إذا رأت الماء». فهى رضى الله عنها لم تستح أن تسأل رسول الله عن وجوب الغسل عليها إذا احتلمت، لأن ذلك حق لا يستحى منه، وهو ﷺ أجابها دون استحياء كذلك، لأنه أمر يتعلق بحكم شرعى فى الطهارة.

● ومن أدب التعامل مع زوجات النبى ﷺ عند الاحتياج إلى سؤالهن عن شئ، أن يكون ذلك وهن وراء حجاب، توقيرًا لهن واحترامًا لمكانتهن من النبوة.

وهذه الآية الكريمة هى التى شُرِّع فيها حجاب أمهات المؤمنين، قالت عائشة رضى الله عنها، وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم: سبب نزول هذه الآية أن عمر رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله: إنّ نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت الآية: ﴿ **وإذا سألتموهن متاعًا فاسألوهن من وراء حجاب، ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن** ﴾.

● والمتاع: ما يحتاج إلى الانتفاع به، مثل عارية الأوانى ونحوها، ومثل سؤال العفاة[1]، ويلحق به ما هو أولى كالسؤال عن الدين أو القرآن.

وقد كانوا يسألون عائشة عن مسائل الدين، وكانوا يسألون أمهات المؤمنين عن أحوال النبى ﷺ فى بيته.

● والحجاب: الستر المرخىَ على باب البيت، وكانت الستور مرخاة على أبواب بيوت النبى ﷺ الشارعة إلى المسجد.

● ﴿**ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن**﴾ أى من الخواطر التى تعرض للرجال فى أمر النساء، وللنساء فى أمر الرجال، أى أنه أنفى للريبة، وأبعد للتهمة وأقوى فى الحماية.

وهذا يوضح أنه ما ينبغى لأحد أن يثق فى نفسه فى الخلوة مع من لا تحل له، لأن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه.

● وهذه الآية الكريمة، وآية: ﴿**يا نساء النبى لستن كأحد من النساء...**﴾ تؤكدان معنى الحجاب لأمهات المؤمنين، وهو حجاب مكون من شيئين:

الأول: ملازمتهن بيوتهن.

والآخر: عدم إظهار شئ من ذواتهن إطلاقًا، بما فى ذلك الوجه والكفان، اللذان يباح كشفهما للنساء المؤمنات عمومًا.

وهذا حجاب خاص بأمهات المؤمنين، ليس بواجب على غيرهن، وكانت النساء تقتدين بأمهات المؤمنين فى ذلك الحجاب تورعًا وتقوى، وليس من باب الوجوب.

● ﴿**وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا إن ذلكم كان عند الله عظيمًا**﴾، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة حكمين:

أحدهما: تحريم إيذاء النبى ﷺ بقول أو فعل من شأنه أن يغضبه ﷺ.

والآخر: تحريم أزواجه على الناس من بعده، وذلك تأكيد لمعنى أمومتهن للمؤمنين، كما فى قوله تعالى: ﴿**وأزواجه أمهاتهم**﴾.

● وفى تحريم أزواج النبى ﷺ على المؤمنين من بعده رويت أقوال منها:

(١) العفاة جمع عافٍ: والعافى هو الضيف، وكل طالب معروف، والسائل المحتاج.

● أنَّ رجلاً قال: لو مات محمد تزوجتُ عائشة، قال ذلك بمسمع ممن نقله عنه، وهذا القائل من المنافقين.

● وأنّ زاعمًا زعم أنَّ مَنْ قال: سأتزوج عائشة هو طلحة بن عبيد الله - أحد العشرة المبشرين بالجنة - وهو من أبناء عم أبي بكر الصديق - رضى الله عنهما - وقال هؤلاء الزاعمون نسبة ذلك إلى طلحة، أن هذا القول من طلحة كان هفوة كفَّر عنها وتاب، فحج ماشيًا، وأعتق عشر رقاب.

وهذه الرواية زعمٌ وكذب لأسباب كثيرة منها:

- أنّ طلحة رضى الله عنه أكبر وأجل من أن يقول ذلك لمكانته فى الإسلام.

- وأنّه لو كان قال ذلك لعرف عنه وتنوقل ولم ينفرد به راوٍ واحد.

- وأنه لو أسَرَّ ذلك فحدثته به نفسه لما أطلع على ذلك أحداً من الناس.

- وأنَّ أسانيد هذه الرواية واهيةٌ، كما حقق ذلك العلماء، وانفرد بها راوٍ واحد.

● والأرجح أن قائل هذا - لو كان قد قيل - هو أحد المنافقين ومما يؤيد ذلك الآية الكريمة الآتية فى السورة من بعد وهى قوله تعالى: ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهن مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم...** ﴾ الآية.

● ﴿ **وكان ذلك عند الله عظيما** ﴾.

«ذلك»: إشارة إلى أذى النبى ﷺ عمومًا بقول أو فعل، وإلى تزوج نسائه من بعده.

«عظيمًا»: أى عظيم الإثم والجريمة، ومن الكبائر، ولا ذنب أعظم من ذلك، وما دام بهذا العظم فى الإثم والجريمة فلا شك أن العقوبة عليه من أشد العقوبات.

● ﴿ **إن تبدوا شيئًا أو تخفوه فإن الله كان بكل شئ عليمًا** ﴾ :

هذه الآية الكريمة تجمع بين التحريض على الاستقامة والوضوح والتحذير من محاولة إخفاء شئ، فإنه لا يخفى على الله سبحانه وتعالى، وتتضمن الآية الكريمة وعداً ووعيداً، فقد سبقت بأمر ونهى، والامتثال بهما يتفاوت ظاهراً وباطنًا، والله تعالى عليم بكل شئ من الظاهر والباطن، ومحاسب عليه، على نحو ما هو مقرر فى الجزاء.

● ﴿ **لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن**

ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن، واتقين الله، إن الله كان على كل شئ شهيدا ﴾ .

هذه الآية الكريمة تضمنت تخصيصًا من عموم أمر الحجاب الذى جاء فى حق زوجات النبى ﷺ، وهذا يعنى رفع الحرج والجناح فى موضوع الحجاب عن هؤلاء الأصناف من الرجال، وهم: الآباء والأبناء والإخوان وأبناؤهم... إلى آخر ما ذكر فى هذه الآية الكريمة.

● والنساء: تشمل جميع النساء.

● وما ملكت اليمين هن: الإماء.

● ولم يُذكر فى الآية الكريمة: الأعمام والأخوال، لأن ذلك مفهوم من رفع الحرج عن العمات والخالات.

● ولم تُذكر قرابة الرضاعة لأن ذلك معلوم من السنة النبوية المطهرة، فقد روى الترمذى بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى حرَّم من الرضاع ما حرَّم من النَّسَب».

وروى البخارى ومسلم والترمذى بأسانيدهم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرضاع يُحرِّم ما تُحرِّم الولادة».

● ﴿ **واتقين الله** ﴾ : أى فيما أمركن به، ولا تتجاوزنه إلى غيره.

● ﴿ **إن الله كان على كل شئ شهيدا** ﴾ أى عالم بكل شئ، ولا تخفى عليه خافية، وهذا وعيد لمن لم يتق الله فى أمره ونهيه سبحانه وتعالى.

● ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى....** ﴾ الآية.

هذا تشريف للنبى ﷺ فى حياته وبعد مماته، وتنويه بمنزلته من الله تعالى.

والصلاة من الله تعالى هى: الرحمة والرضوان.

ومن الملائكة: الدعاء والاستغفار.

ومن الأُمّة: الدعاء والتعظيم لأمره ﷺ.

● ﴿ **يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾ .

هذا نداء على المؤمنين بوجوب صلاتهم وسلامهم على النبى ﷺ.

ولأن هذا الأمر يقتضى الوجوب، بادر الصحابة رضى الله عنهم إلى سؤال الرسول ﷺ عن كيفية هذه الصلاة، قالوا: يا رسول الله: هذا السلام عليك قد علمناه، فيكف نصلى عليك؟

فقال لهم رسول الله ﷺ قولوا: «اللهم صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد».

روى ذلك الإمام مالك بسنده عن أبى حميد الساعدى الأنصارى الخزرجى رضى الله عنه، وكان من صالحى الأنصار وقرائهم، وممن واظب على حفظ الصلاة وفصولها من النبى ﷺ.

وأما السلام فصيغته معروفة وهى: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وقال الشافعى وبعض المالكية، واختاره أبو بكر بن العربى من المالكية: إن الصلاة على النبى ﷺ فرض فى الصلاة فمن تركها بطلت صلاته.

- وجمهور العلماء يخالفون الشافعى فيما ذهب إليه، ويرون أنها مستحبة لا فرض.

- وفى فضل الصلاة على النبى ﷺ روى أحمد ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلىَّ علىَّ واحدة صلى الله عليه بها عشرًا».

وروى النسائى والحاكم بسنديهما عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلىَّ علىّ واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيات، ورفع له عشر درجات».

ورى سعيد بن المُسَيَّب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: الدعاء يحجب دون السماء حتى يصلى على النبى ﷺ فإذا جاءت الصلاة على النبى ﷺ، رفع الدعاء.

وروى النسائى بسنده عن عبد الله بن أبى طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشْر فى وجهه، فقلت: إنَّا لنَرَى البشر فى وجهك فقال: «إنه أَتانى الملك فقال: يا محمد إن ربك يقول: أما يرضيك أنه لا يصلى عليك أَحَدٌ إلا صليتُ عليه عشرا، ولا يسلم عليك أحدٌ إلا سلمتُ عليه عشرا».

- **﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة، وأعد لهم عذابًا مهينًا﴾.**

● ﴿ **يؤذون الله** ﴾ إما بالكفر، أو بنسبة الصاحبة والولد إليه، أو بزعم الشريك أو الشركاء له سبحانه وتعالى، وإما بوصفه سبحانه وتعالى بما لا يليق، كقول اليهود – لعنهم الله –: « يد الله مغلولة ».

وتقول النصارى: المسيح ابن الله، وكقول المشركين: الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه.

● روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يقول الله تبارك وتعالى: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيَّاىَ فقوله: لن يعيدنى ما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته، وأما شتمه إيَّاى فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ، يقول الله تعالى: « يؤذينى ابن آدم، بسبّ الدهر، وأنا الدهر أقلّب الليل والنهار ».

● وأما أذية رسول الله ﷺ فهى كل ما يؤذيه من الأقوال ومن الأفعال.

أما الأقوال فكقولهم: ساحر، شاعر، مجنون، كاهن، وشتمه...

وأما الأفعال فمثل: إلقاء السَّلَى على ظهره وهو ساجد، وضربه، وحبسه فى الشعب، ومثل شج وجهه وكسر رباعيته...

● ﴿ **لعنهم الله** ﴾ أى أبعدهم عن كل خير جزاء على أفعالهم الذميمة التى آذوا بها الله ورسوله.

واللعن فى اللغة: الإبعاد والطرد والخزى.

● ﴿ **وأعد لهم عذابًا مهينا** ﴾ أى أعدّ لهم ذلك ليجدوه حاضراً يوم القيامة ينتظرهم لا محالة.

والعذاب المهين هو العذاب المُذِّل لهم.

● ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا** ﴾.

أذية المؤمنين تكون – أيضًا – بالأقوال والأفعال.

أما بالأقوال، فقد كانوا يوجهون إليهم أقبح الكلمات وأقسى الشتائم، وأسوأ الأوصاف.

وأما الأفعال فقد لقى المسلمون الأوائل رضى الله عنهم من الكفار ما لا يحتمله إلا المؤمنون الصادقون[١].

وأذية المؤمنين والمؤمنات تكون بالتعبير بحسب مذموم أو حرفة مذمومة، أو بأى وصف يثقل على الموصوف إذا سمعه،أو يضايقه إن أطلق عليه واشتهر بين الناس.

وأذى المؤمنين والمؤمنات: حرام فى كل زمان، ولا شئ يبرره.

وقيل: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى جارية من الأنصار فضربها، وكره ما رأى من زينتها، فخرج أهلها فأذوا عمر باللسان، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات...** ﴾ الآية.

وقيل: نزلت فى علىّ رضى الله عنه، فإن المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه، ويقوّلونه ما لم يقل.

● وكما قلنا أكثر من مرة، إن العبرة فى آيات القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فأذية المؤمنين والمؤمنات حرام على كل حال وفى كل وقت.

● ﴿ **بغير ما اكتسبوا** ﴾ أى يؤذونهم بغير أن يأتوا شيئاً يلامون عليه، أى يبهتونهم ويفترون عليهم.

وليس معنى ذلك أن المؤمن إذا أتى مالا يلام عليه جاز إيذاؤه لأن ذلك فهم قاصر للهدف من منع أذى المؤمنين والمؤمنات إذ الهدف تطهير المجتمع من هؤلاء الذين يؤذون، وصيانة أعراض الناس والمحافظة على كرامتهم وإنسانيتهم، وذلك معناه أن من أتى من المؤمنين عملا يلام عليه لا يجوز إيذاؤه بالقول أو الفعل، إلا إذا كان ذلك فى حَدٍّ أو قصاص.

وأذية المؤمن بالكلام لا تخرج عن أن تكون غيبة أو بهتاناً وكلاهما حرام نهى الله عنه، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحجرات: ١٢].

(١) انظر فى ذلك كتب السيرة النبوية، ففيها أبواب عن كل ما تعرض له رسول الله ﷺ وصحابته من أذى على أيدى المشركين وعبدة الأصنام: مثل كتاب سيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية، والروض الأنف للسهيلى، وغيرها.

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الغيبة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيتَ إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله».

- ولأن موضوع الغيبة يقع فيه بعض الناس عامدين أو متأولين فإنى أود أن أذكر المواقف التى تباح فيها الغيبة، مما اتفق عليه العلماء.

- فالقاعدة العامة التى تبيح الغيبة هى أن يتعلق بها غرض شرعى صحيح، لا يمكن الوصول إليه إلا بها.

وتفصيلات ذلك الغرض الشرعى، كما يرى الأسلاف من العلماء، وأسباب إباحة الغيبة ستة أسباب هى:

الأول:

التظلّم أمام القاضى أو الحاكم أو نحوهما، لكى يرفع عنه الظلم، فللمتظلم أن يقول عن ظالمه: ظلمنى فلان بكذا، فيذكر صفة فيه غير لا ئقة.

والثانى:

ردّ العاصى إلى الصواب والطاعة – وذلك داخل فى تغيير المنكر – ولا يقول ذلك إلا للقادر على إزالة هذا المنكر، كالحاكم والقاضى وولى الأمر.. فله أن يقول: إنه فعل كذا فازجره أو امنعه عن ذلك، ويكون قصده إزالة المنكر.

والثالث:

الاستفتاء، فله أن يقول للمفتى ظلمنى أبى أو أخى أو زوجى، أو فلان، فى كذا أو بكذا، فما طريقى للخلاص من ذلك؟ فذلك جائز.

وقال بعض العلماء: بل الأصوب فى هذا الموقف أن يقول: ما تقول فى رجل أو زوج أو أخ أو أب يفعل كذا، أو كان من أمره كذا؟

والرابع:

تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، ومن أمثلة ذلك:

تضعيف من يستحق التضعيف فى مجال رواية الحديث الشريف والعلم بالدين، والعمل فى مجال الدعوة إلى الله.

والمشاورة فى مصاهرة إنسان أو مشاركته أو إيداعه مبلغا من المال أو نحو ذلك من المعاملات. فله أن يذكر المساوئ التى فيه بنية النصيحة.

ومن ذلك التحذير من التردد على المبتدعة والفسقة وأمثالهم من السحرة والدجاجلة.

والخامس:

أن يكون الشخص الذي يغتاب مجاهراً بفسقه أو بدعته، كمن يجاهر بشرب الخمر أو لعب الميسر، أو العدوان على الناس، أو جمع الأموال منهم ظلماً..

والسادس:

من هذه الأسباب التى تبيح الغيبة: التعريف بالشخص بقصد إزالة الخفاء عن شخصه، عندما يكون هذا الإنسان معروفًا بلقب أو وصف من شانه أن يعده الناس عيبًا، وذلك مثل: الأعور، والأعرج، والأعمش والأصم والأحول والأعمى والحيوان، ونحو ذلك، فللإنسان أن يعرف به بهذه الأوصاف ولا يعد ذلك من الغيبة.

أما لو أطلق صفة من هذه الصفات على أحد وأراد من ذلك أن ينتقص منه فهذا حرام عند جميع العلماء.

- وكل هذه الأسباب التى تبيح الغيبة مدعومة بالأحاديث النبوية الصحيحة، وبالقواعد الشرعية المشهورة، ومن ذلك ما يلى:

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا استأذن على النبى ﷺ فقال: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة».

وقد احتج البخارى بهذا الحديث على جواز اغتياب أهل الفساد والريب.

وروى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما أظن فلانا وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا» وكان هذان الرجلان من المنافقين.

وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: قالت هند امرأة أبى سفيان للنبى ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطينى ما يكفينى وولدى، إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم. قال: «خذى ما يكفيك بالمعروف».

﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين، وكان الله غفورا رحيم ﴾.

الجلاليب : جمع جلباب، وهو ثوب أصغر من الرداء، وأكبر من الخمار والقناع.

والجلباب تضعه المرأة على رأسها فيتدلّى جانباه على غداريها وينسدل سائره على كتفيها وظهرها، وتلبسه المرأة عند الخروج من بيتها وعند السفر.

وهيئة لبس الجلباب تختلف باختلاف أحوال النساء وعاداتهن فى لبس الجلاليب.

والهدف من لبسه أو لبس غيره هو كما أوضحته الآية الكريمة : **﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾**.

● وكان لبس الجلباب من شعار الحرائر من النساء وعاداتهن، وما كانت تلبسه الإماء.

وكان من عادة النساء لبس الجلباب عند الخروج إلى الزيارات، ونحوها، وأما عند الخروج إلى المناصع[1] فلا يلبسن الجلباب، فأمرن بلبس الجلابيب عند كل خروج، ليعرفن بذلك أنهن من الحرائر فلا يتعرض لهن الدُّعَّار يحسبونهن إماءً، أو يتعرض لهن المنافقون استخفافاً بهن، إذ قد يوجهون إليهن أقوالا تخجلهن فيتأذيْن من ذلك، وربما يتعرضن هنّ لسبٍّ مَنْ أذاهن، فيحصل الأذى من الجانبين، فكان إدناء الجلابيب وستر الجسم من باب سد أبواب الشر، أو ما يسمى فى مصطلح فقهاء المسلمين : «سد الذرائع».

● **﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾** فقد صفح سبحانه وتعالى عما سبق هذا التشريع من أذى للمؤمنين والمؤمنات، قبل أن ينزل هذا التشريع العظيم.

(١) هى أماكن قضاء الحاجات من بول وغائط.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

المواقف التربوية فى هذه الآيات الكريمة كثيرة تعلم المسلمين كيف يتعامل بعضهم مع بعض، وكف يحرص بعضهم على بعض، وكيف يطهرون المجتمع الذى يعيشون فيه من كل لفظ نابٍ أو عمل شائن، ونحن نذكر من هذه القيم ما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه...** ﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿ **والله لا يستحى من الحق** ﴾ ما يلى:

أ - أن دخول البيوت لا يجوز بغير إذن أهلها.

ب - وأنه لا يليق بأحد من المدعوين إلى بيت من بيوت المسلمين أن يذهب مبكراً ينتظر هناك نضج الطعام الذى دعى إليه، لأن ذلك قد نهى عنه.

جـ - وأن الأدب وحسن اللياقة أن مَنْ دعى إلى طعام فأجاب الدعوة، فإن اللائق به أن ينصرف بُعَيْد تناول الطعام، ولا يبقون فى البيت يتجاذبون أطراف الحديث، لأن فى ذلك مشغلة لصاحب البيت وإيذاء له.

د - وأن المسلم يجب أن يتجنب كل قول أو عمل يترتب عليه إيذاء لأحد من المسلمين أو غيرهم من الناس.

هـ - وأن المسلم لا ينبغى أن يستحى من الحق، يقوله ويدعو إليه ويتواصى به وبالصبر عليه، والجهاد من أجله والإصرار على أن يحقه مهما كلفه ذلك من عناء.

٢ - ويتعلمون من الآيات الكريمة التى تتصل بالحديث عن زوجات الرسول ﷺ، من قوله تعالى: ﴿ **وإذا سألتموهن متاعًا فاسألوهن من وراء حجاب...** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ **إن الله كان على كل شئ شهيدا** ﴾ ما يلى:

أ - أن المسلمين إذا سألوا نساء النبى ﷺ عن شئ له علاقة بأمور الدنيا أو أمور الدين، فإن ذلك يجب أن يكون من وراء حجاب، تكريمًا لأمهات المؤمنين وإجلالا لمكانتهن من النبوة.

ب – وأن من الأحوط والأقرب إلى طهارة القلب أى سؤال الرجل أى امرأة من وراء حجاب، فإن دعت ضرورة إلى ترك الحجاب فلابد من غض البصر من الطرفين.

كما أن على النساء ألا يخضعن فى القول، وفى كل الأحوال فما يجوز أن تزول الكلفة بين الطرفين.

جـ – وأن من الأحكام الخاصة بزوجات النبى ﷺ أن الحجاب بالنسبة لهن فرض واجب، حجابًا تستتر به حتى الوجه والكفين، وأما سائر المسلمين فحجابهن يشمل الجسم كله دون الوجه والكفين، وبشرط أن تكون الملابس غير شفافة ولا واصفة.

د – وأن من أحكام زوجات النبى ﷺ أنهن يحرمْن على كل مسلم كحرمة الأم فى عدم الزواج منها.

هـ – وأن المرأة المسلمة يحل لها أن يراها – بغير هذا الحجاب أى بستر جسمها بغير الحجاب – أبوها وأخوها وابن أخيها وابن أختها وكل من لا يحل له أن يتزوج منها أبداً كالعم والخال، والنساء المسلمات.

غير أن ذلك ينبغى أن يكون فى إطارٍ من تقوى الله والتحفظ المطلوب فى مثل تلك الظروف، والله تبارك وتعالى على كل ذلك شهيد، ومحاسب ومجازٍ.

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما**﴾ ما يلى:

أ – أنّ من الواجب على كل مسلم أن يصلى على النبى ﷺ، وأن يدعو له وأن يعظم أمره، لأن الله تعالى، وملائكته يصلون على النبى ﷺ، والمؤمنون يشرفهم ويرفع قدرهم أن يشاركوا الله تعالى وملائكته فى الصلاة على النبى ﷺ.

ب – وأن مكانة محمد ﷺ عند ربه، إنما كانت لأن الله تعالى اصطفاه وفضَّله، ولأنه ﷺ جاهد وصبر واحتمل فى سبيل التبليغ عن ربه، وفى سبيل إقامة الحق والعدل والمساواة بين الناس، فكل مؤمن يصلى عليه ينال بذلك أجر الطاعة وشرف القدوة به ﷺ.

جـ – وأن التأمل فى صلاة الله تعالى على نبيه وصلاة الملائكة عليه ﷺ، وصلاة المؤمنين عليه التى أوجبها الله تعالى إيجابًا كل تأمل فى ذلك يوحى بأن الرسول ﷺ، وهديه، وكل أقواله وأعماله هى كالمحور لحركة تستهدف أن يعُبد الله وحده لا

شريك له، وأن يكون التلقى عنه وحده سبحانه وتعالى فى كل شئون الدنيا والآخرة.

د - وأن المنهج الذى بلغه محمد عن ربه هو الحق وهو الواجب أن يتبع، إذ فيه النجاة فى الدنيا والآخرة، ومن أجل ذلك كانت الصلاة على النبى ﷺ من الله ومن الملائكة ومن المؤمنين، لجلال ما قام به ﷺ، وما صبر عليه فى سبيل ذلك وما تحمله من مشقات، إذ كل يرفع من قدره عند الله فيسخر ملائكته للصلاة عليه ويأمر المؤمنين بذلك.

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة، وأعدّ لهم عذابًا مهينًا، والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات...** ﴾ الآية، مايلى:

أ - أن الذين ينطقون كلمة الكفر، والذين يصفون الله بما لا يليق بجلاله سبحانه وتعالى، والذين يكذبون الله ورسوله، والذين يصفون الرسول ﷺ بما لا يجوز فى حقه.. هؤلاء جميعًا يؤذون الله ورسوله، وهؤلاء قد خسروا كل شئ، ولن ينفعهم شئ، لأنهم استحقوا بذلك أن يبعدهم الله تعالى وأن يطردهم وأن يعد لهم العذاب المهين فى الآخرة.

ب - وأن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بقول أو فعل، أو يصفونهم بما لا يحب المؤمنون والمؤمنات أن يوصفوا به، غيبة أو بهتانًا، هؤلاء من عناصر الخلل وأسباب الشر فى المجتمع، وهم بذلك يظلمون المؤمنين والمومنات، بل يظلمون أنفسهم ويتحملون بذلك من غضب الله وعقابه ما لا قبل لهم به، جزاء ما ارتكبوا من إثم وبهتان.

جـ - وأن المجتمع المسلم يجب أن يخلو من هؤلاء الناس الذين يؤذون الله ورسوله، ويؤذون المؤمنين والمؤمنات، لأن الحياة الاجتماعية للناس لا تستقر ولا تستقيم إلا فى غيبة هؤلاء المؤذين.

ولأن المجتمع المسلم تنمو فيه الفضائل وتنكمش فيه الرذائل ما دام خاليًا ممن يؤذون الله ورسوله، وبهذا ينعم الناس بالأمن والطمأنينة فى الدنيا، وبثواب الله تعالى ورضاه فى الآخرة.

وأن من لم يخضع لهذا الأدب الإسلامى أُدِّب بأن تقام عليه الحدود التى شرعها

الله عقابًا على ممارسة هذا الأذى لله ولرسوله وللمؤمنين والمؤمنات، عقابًا بدنياً حيناً ومعنويًا بالتعزيرات حينًا آخر، ليستقر المجتمع ويطمئن الناس إلى حياة إنسانية كريمة.

٥ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما** ﴾ ما يلى:

أ – أن الله تعالى أمر جميع النساء بأن يتسترن، وأن هذ التستر يعنى أن تلبس المرأة ما يبدى مفاتنها أو مواضع الزينة منها، أى لا تلبس ما يشف عن ذلك أو يصفه للناظر إليها.

وأن هذا التستر صيانة للمرأة واحترام، وإعفاف وطهارة ومنع لأعين السوء من أن تنظر إليها نظرة سيئة.

وهو فى الوقت نفسه صيانة للرجل عن أن يقع فى الحرام، وصيانة للمجتمع عن أن تشيع فيه الفواحش ومقدماتها، فإن ما ركّب الله فى الطباع وما فطر عليه الرجال من ميل إلى النساء وحاجة إليهن، كل ذلك لا يتوجه إلى قنواته الشرعية إلا بالزواج الذى شرعه الله صيانة للمجتمع عن أى انحراف فى علاقة الرجل بالمرأة.

ب – وأن التساهل فى أن تبدى المرأة زينتها أو مفاتن جسمها لغير زوج أحل الله له ذلك، هو الذى يؤدى إلى إشاعة الفاحشة فى المجتمع، وينشر الفساد، ويغرى الفسّاق والمتبطلين وطلاب الحرام.

ومن المعروف المقرر بين العقلاء ممن يعرفون أسباب فساد المجتمعات الإنسانية، أن تكشف المرأة وإبداء مفاتن جسمها، وتبذلها، أو خضوعها فى القول وهى تخاطب الرجل أو خلوتها برجل لا يحل لها أن تختلى به، كل ذلك هو بداية الشرور والانحرافات فى أى مجتمع إنسانى.

جـ – وأن المرأة المتكشفة المبتذلة – الكاسية العارية – تفقد بذلك من رصيد زوجيتها وأمومتها وتتحول إلى سلعة تباع وتشترى، وتقيم حول نفسها سياجًا متينًا من الذل والعبودية وتخسر الزوج الصالح، وبالتالى تخسر الأبناء الصالحين، ومن هنا يخسر المجتمع بيتا راشداً تقوم عليه ربة أسرة فاضلة ويخسر رجلاً آثر العزوبة والهوى على الزوجية والسكن وعاش ضائعًا يستمرئ الفساد والفاحشة.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة

والحركة فى هذه الآيات الكريمة

تحشد هذه الآيات الكريمة بالمواقف التربوية المعلمة فى مجالى الدعوة والحركة، مما سوف نذكر منه ما يفتح الله به، فيما يلى :

١ – يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه....** ﴾ الآية إلى قوله تعالى : ﴿ **والله لا يستحى من الحق....** ﴾ ما يلى :

أ – أن على الدعاة إلى الله أن يرسخوا آداب الإسلام فى دخول بيوت الناس، فى نفوس المسلمين وفى سلوكهم، لأن ذلك هو الذى يضمن للمجتمع أن يمارس حياة اجتماعية مصونة عن عبث العابثين وتبطل المتبطلين، ويسد كثيراً من أبواب الشر والفساد، فيهيئ للأسرة حياة آمنة مطمئنة راشدة منتجة، قادرة على العيش بأسلوب يلائم تكريم الله تعالى للإنسان.

ب – وأن تفاصيل هذه الآداب وجزئياتها الصغيرة لا ينبغى تجاهل شئ منها أو الاستهانة به، مهما بدا صغيراً أو هامشيًا، لأن الله تعالى لم يشرع شيئًا إلا وفى التمسك به صلاح الدنيا والآخرة.

وأن الشر كل الشر لمجتمع مسلم هو أن يتساهل أو يتجاهل شيئا مما شرع الله تعالى.

وقد ألزم الله تبارك وتعالى بالتمسك بما شرع والاستقامة عليه فى قوله تعالى : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ** ﴾ [هود : ١١٢]، وقوله جل شأنه : ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ** ﴾ [الشورى : ١٥]، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ....** ﴾ [الجاثية : ١٨].

جـ – وأن كل أدب شرعه الله تعالى، فإن فى الأخذ به طهارة للقلب من كل ما يزين للإنسان الشر، أو يتيح له الاسترسال فى التفكير فيه، وهذا فيه عصمة للأفراد رجالا ونساء، وطهارة للمجتمع كله من أدران الباطل والخنى.

وذلك أن طهارة القلب ونقاءه من التفكير فى الشر، تنعكس على الجوارح فتطهرها من السلوك الشائن، والعمل القبيح، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ... ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب».

د – وأن الله تعالى عليم بكل شئ، ما يبديه الإنسان وما يخفيه، ما يعلنه وما يُسِرُّ به، وأن سبحانه محاسب كل إنسان بما قال أو عمل، ومجازيه على ذلك.

فليتق الله من فكر فى شر، وليعلم أن الله تعالى مطلع عليه، وأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية.

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **والله لا يستحى من الحق....** ﴾ الآية أن الله تعالى لا يستحى من الحق، وهم كذلك ما ينبغى أن يستحوا من الحق، بل يعلنوه ويجهروا به مضحين فى سبيل ذلك بما يستطيعون.

وللجهر بالحق آداب تفهم من مضمون هذه الآية الكريمة تذكر منها ما يلى:

أ – أن الحق له معانٍ عديدة تفهم من آيات القرآن الكريم، ومنها:

- الحق هو موجد الأشياء على ما تقتضيه الحكمة، وهو الله تبارك وتعالى، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾ [يونس: ٣٢].
- والحق هو الموجود على مقتضى الحكمة، وهو أفعال الله تبارك وتعالى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ......** ﴾ [يونس: ٥].
- والحق هو الاعتقاد للشئ المطابق لما عليه ذلك الشئ فى نفسه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ....** ﴾ [البقرة: ٢١٣].
- والحق هو القول والفعل الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفى الوقت الذى يجب،

كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٣٣].

والدعاة إلى الله مطالبون بإحقاق الحق، وإحقاق الحق على ضربين:

أحدهما: إظهار الأدلة والآيات الدالة عليه.

والآخر: بإكمال الشريعة وبثها فى الناس كافة.

والدعاة مطالبون بالنوع الأول كله أى إظهار الأدلة والبراهين على الحق، ومطالبون فى الضرب الثانى بنشر الدعوة فى الناس كافة إذ تكفل الله تعالى بإكمال الشريعة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

ب - وأن الحق الذى لا يستحى منه الدعاة أبدا ولا من إظهاره والدعوة إليه هو كل ما جاء من عند الله، وكل ما دعا إليه رسوله ﷺ، وهم فى ذلك ما ينبغى أن يخشوا فى الله لومة لائم.

جـ - وأن إحقاق الحق لا ينبغى أن يتعارض مع الدعوة إلي الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، ولا ينبغى أن ينفى عن الدعاة صفة التلطف فى معاملة الناس، ولا اللين معهم، وليس من إحقاق الحق مواجهة الناس بعيوبهم وإحراجهم مع أنفسهم ومع الناس، وفى الرسول ﷺ الأسوة الحسنة فى اللين والتلطف والإشفاق والحب للناس جميعا حتى يهديهم الله، ثم يهدى بهم.

٣ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** ﴾ ما يلى:

أ - أن الصلاة على النبى ﷺ عندما يذكر اسمه علامة على صدق الإيمان وعلى الإخلاص لهذا الدين، إذا صدقت النية فى النطق بألفاظ الصلاة والسلام عليه، وذلك أن النبى ﷺ هو الرحمة المهداة إلى البشرية كلها، فكانت الصلاة عليه إجلالا له ولما قام به من عمل عظيم هدى به البشرية إلى الله والحق وإلى دين الحق وإلى الحق والعدل والمساواة.

ب - وأن من معانى الصلاة على النبى ﷺ الالتزام بسنته والاهتداء بهديه والتقيد بشريعته والاقتداء به فى كل ما تطيقه فطرة الإنسان وتسعه طاقته[1]، وليست الصلاة والسلام على النبى ﷺ مجرد كلمات يرددها اللسان، وربما يخلو من معانيها القلب ولا تلتزم بفحواها الجوارح.

٣ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا**﴾ ما يلى:

أ - أن من الناس من يوبقون أنفسهم بالوقوع فيما يغضب الله عليهم غفلة منهم أو جهلا أو عنادا، حين لا يؤمنون به ولا يستجيبون لأمره ونهيه، ولما جاء به خاتم أنبيائه محمد ﷺ، وأن ذلك خسران للدنيا والآخرة، وأن واجب الدعاة أن ينبهوا من تلك الغفلة وأن يزيلوا هذه الجهالة، ويبصروا أولئك المعاندين، فتلك مهمتهم الأولى.

ب - وأن أذى الله ورسوله ليس معناه إلحاق الضرر بالله أو برسوله وإنما معناه أنهم آذوا أنفسهم أولا، وخرجوا عن مقتضى الفطرة التى فطرهم الله عليها، وأن لهم عند الله جزاء على ذلك هو الطرد من الرحمة والإبعاد عن الجنة، وإعداد العذاب المهين لهم فى الآخرة دار القرار.

والدعاة إلى الله مطالبون بتوضيح ذلك للناس، وتحذيرهم من سوء عاقبته، وتأكيد أن تلك سنة الله فى الذين يؤذونه ويؤذون رسوله ﷺ.

٤ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا**﴾ ما يلى:

أ - أن كل الذين يتعرضون لأذى أحد من المؤمنين والمؤمنات بؤساء تعساء خاسرون، ذاهلون عن الحق وعن كل ما ينفعهم ويجلب لهم الأمن والاستقرار.

وأن من أوليات مهمات الدعاة والحركيين هى أن يبصروا الناس بحقوق بعضهم على بعض، وواجبات بعضهم نحو بعض، وبأنهم تربطهم أخوة فى هذا الدين، فكيف يسوغ منهم مع كل هذه العلاقات أن يؤذوا المؤمنين والمؤمنات؟

---

(١) أقصد بذلك أن الرسول ﷺ قد كلف بتكاليف تخصه لا يطيقها الإنسان مثل وجوب قيام الليل، وتحريم الزواج عليه بعد نزول «لا يحل لك النساء من بعد ....».

وأن أذى الآخرين مرفوض شرعا، حتى لو كان الواقع عليه الأذى ليس مؤمنا ولا مؤمنة، لأن الإسلام لا يرضى بأذى يقع على الحيوان، فكيف يسوغ أذى الإنسان؟.

والأذى ضرر يقع على النفس أو الجسم وعلى حاضر الإنسان أو مستقبله، وهذا الضرر أو الإضرار مرفوض شرعا لأن الرسول ﷺ منع ذلك، فقد روى أحمد وابن ماجة بسنديهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».

ب - وأن المجتمع الذى تُكَفُّ فيه ألسنة الناس عن أذى الناس، غيبة أو بهتانا، هو المجتمع الآمن المتراحم المتعاون على البر والتقوى، القادر على أن يشق طريقه نحو ما يرضى الله تعالى، ويحقق للإنسان سعادة الدنيا والآخرة.

إن المسلم مطالب بأن يحب أخاه المسلم، وأن يدعو له بظهر الغيب، وأن يرد غيبته، وأن يحسن جواره، وأن يؤثره على نفسه، ولو كان به خصاصة وأن حقوق المؤمن على أخيه المؤمن أكبر من ذلك بكثير(١)، وأن هذه القيم الخلقية هى التى مكنت أسلافنا من أن ينشروا هذا الدين فى العالم كله، وأن يسودوا العالم بهذه الأخلاق فترات غير قليلة من الزمان، إن هذه القيم الخلقية الإسلامية يجب أن تسود فى كل مجتمع مسلم، لأن المجتمع بغير هذه القيم لا يستطيع أن يمارس حياته الإنسانية الكريمة.

٥ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين، وكان الله غفورا رحيما**﴾ ما يلى:

أ - أن للمرأة فى المجتمع المسلم مكانة هامة نابعة من أهمية وظيفتها فى الحياة التى تكمل وظيفة الرجل فى الحياة وتوازيها، وأن الشريعة الإسلامية لابد أن تحترم المرأة وتقدرها أحسن تقدير، لأنه لا حياة للإنسان دون المرأة زوجة وأما، وعضوا له أهميته فى الأسرة التى هى نواة المجتمع.

---

(١) لمعرفة هذه الحقوق والواجبات بتفصيل وتوسع: انظر لنا كتاب: فقه الأخوة فى الإسلام -نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

• فى الوقت الذى تفرط فيه بعض الحضارات فى المرأة فتتبذلها وتوجب عليها أن تعمل وتشقى لتعيش، وتعرى جسدها، وتتيح لها الزنا والسحاق، وتزعم أن ذلك من الحرية الشخصية وتلك مغالطة فى هذا الوقت وذلك الظرف، فإن الشريعة الإسلامية تصون المرأة وتحمى كافة حقوقها، وتستر جسدها وتحميه من أعين الفُسَّاق والدُّعَرة وتبقى عليها فى مكان الاحترام والتقدير، فلا تقتحمها عين فاجر ولا تمسها يد فاسق، ولا يقترب منها رجل إلا فى ظل زواج شرعى يبيح لهما أن يعبر كل منهما عن رغبته الفطرية فى الطرف الآخر.

ب - وأن صيانة الإسلام للمرأة لا يمنعها حقا من حقوقها(١) ولا يعفيها من واجب من واجباتها، فلا حرمان لها من العلم أو العمل إن دعت حاجة إليه، وممارسة كل نشاط يحفظ عليها أنوثتها وإنسانيتها وزوجيتها، وأمومتها، وميراثها من والديها وزوجها وأبنائها وكل من يدلى إليها بقرابة يترتب عليها الميراث، والإسلام يتيح للمرأة كل حقوقها المدنية وكثيرا من حقوقها السياسية.

وأن الانتقاص من هذه الحقوق خروج عن منهج الشريعة الإسلامية، وخروج بالمرأة عن وظيفتها، وظلم لها، وكل هذا الانحراف بها عما شرعه لها الإسلام إفساد للمجتمع كله لا للمرأة وحدها.

جـ - وأن النظام الذى اختاره الله تعالى للمرأة، لتعيش فى ظله وتمارس حياتها وفق مفردات هذا النظام وتفصيلاته هو النظام الأمثل للمرأة والرجل والمجتمع كله.

وأن على الدعاة إلى الله أن يوضحوا هذه الحقائق للناس عموما وللمرأة على وجه الخصوص، ويرسخوها فى نفوس الناس، ويقدموا لهم الأدلة والبراهين على ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن يقنعوا الناس أنه لا حياة للمجتمع ولا رقى له إلا بهذه النظم وتلك الآداب التى جاء بها الإسلام.

---

(١) لمعرفة هذه الحقوق والواجبات بتفصيل وتوسع: انظر للمؤلف كتاب: المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله. نشر دار الوفاء بمصر الطبعة الرابعة سنة: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

١٢ - الآيات الكريمة من الستين إلى الثامنة والستين

تهديد للمنافقين وأمثالهم فى الدنيا والآخرة

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾.

- تحدثت هذه الآيات الكريمة عن المنافقين وأمثالهم من الذين فى قلوبهم مرض والمرجفين، وهددتهم بالطرد من المدينة، والقتل فى الدنيا، والإبعاد عن رحمة الله تعالى فى الآخرة، وأخبرت الآيات بأن تلك هى سنة الله فيهم منذ العصور الخوالى.

وردّت الآيات عليهم وعلى أمثالهم، ممن ينكرون الآخرة وما فيها من حساب وعقاب، ردًا يحمل التهديد بأن يوم الساعة قد يكون أقرب مما يتوقعون.

ثم ذكرت الآيات أحوال الكافرين والمنافقين يوم القيامة، وما يحيق بهم من عذاب، وما يعتريهم حينئذ من ندم على أنهم أطاعوا سادتهم وكبراءهم فضلوا بهم، وها هم الآن يدعون عليهم، طالبين لهم العذاب واللعنة.

- وقد اشتملت الآيات على أكثر من شرط وجزاء، وعلى عدد من الأخبار، جاء بعضها مؤكدا وبعضها تقريريا خاليا من أدوات التأكيد، وعلى دعاء جاء فى صيغة الأمر، مما سنوضحه فيما يلى:

- **﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض، والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم... ﴾** الآية.

﴿ المنافقون ﴾: هم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان.

﴿ **والذين في قلوبهم مرض** ﴾: فى قلوبهم رذائل كالجهل والجبن والبخل والنفاق والواحش كالزنى ونحوه.

﴿ **والمرجفون في المدينة** ﴾: هم قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوؤهم من عدوهم، وعلى سبيل المثال: كانوا -إذا خرجت سرية من سرايا رسول الله ﷺ- يقولون: إن العدو قد أتاكم، كاذبين فيما يقولون.

وقيل: هم الذين ينطقون بالأخبار الكاذبة حبا لإثارة الفتنة والقلق بين المسلمين، ولذلك قال علماء اللغة: الأراجيف ملاقيح الفتن.

● وقيل: المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرحفون – واحد والأرجح أنهم أصناف بدليل عطف بعضهم على بعض -والعطف يقتضى المغايرة بين المتعاطفين.

والمدينة هى مدينة الرسول ﷺ -المدينة المنورة.

● ﴿ **لنغرينك بهم** ﴾: هذا جواب الشرط أى لئن لم ينته هؤلاء عن أعمالهم الشائنة لنسلطنك عليهم، أو لنعلمنك بهم وبما يدبرون، فلتخرجنهم من المدينة بعد وقت قليل، أو لتستأصلنهم بالقتل.

﴿ **ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا** ﴾ أى لا يكون لهم بقاء فى المدينة إلا زمنا قليلا حتى يهلكوا، أو تهلكهم أنت.

● ﴿ **ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا** ﴾: أى مستحقين اللعنة والطرد، ومما يجرى عليهم أنهم يؤخذون ويقتلون أينما وجدوا.

وتضعيف الفعل «قتلوا» وتأكيده بالمصدر «تقتيلا» مما يؤكد عنف ما سوف يتعرضون له من هلاك، ومقدار ما يكونون عليه من ذلة وقلة.

● ﴿ **سنة الله في الذين خلوا من قبل** ﴾: أى سن الله تعالى فى الذين نافقوا الأنبياء والمرسلين، وكان فى قلوبهم مرض، ورغبوا فى الإرجاف وإثارة الفتن، سن الله تعالى فى هؤلاء أن يؤخذوا ويقتلوا تقتيلا.

● ﴿ **ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾: أى هكذا قضى الله وأمضى سنته فى الأولين والآخرين دون تبديل أو تحويل أو تغيير، لأن هذه السنن هى التى يقوم عليها صلاح الحياة والناس.

● ﴿ **يسألك الناس عن الساعة، قل إنما علمها عند ربى...** ﴾ أى قل: إن علم الساعة أى علم

وقتها عند الله وحده.

وإنما يسأل الكفار عن الساعة استهزاء بها وبما سوف يحدث فيها لأنهم مكذبون بقيام الساعة مكذبون للحساب والجزاء، ومع ذلك فإن يوم قيام الساعة قد يكون أقرب مما يتصورون، بل قريب فعلا.

- ﴿ **وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا** ﴾ أى هى قريبة فعلا بدليل قوله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ [**القمر**: ١] وقوله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ** ﴾ [**الأنبياء**: ١]، وقوله سبحانه: ﴿ **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ** ﴾ [**النحل**: ١].

- ﴿ **إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا** ﴾: والمعنى: أن الله تعالى طرد الكافرين من رحمته وأعد لهم نارا شديدة الاستعار لا يخرجون منها أبدا، حيث لا يجدون من يتكفل بحمايتهم، ولا من يدفع عنهم سوء ما هم فيه، فهم خالدون فى النار ماكثين فيها أبدا لازوال لهم عنها بحال.

- ﴿ **يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾: أى يقولون عند وقوع العذاب عليهم.

﴿ **تقلب وجوههم فى النار** ﴾: أى يسحبون فى النار على وجوههم وتلوى وجوههم على جهنم ليواجهوا نارها وحرارتها وذاك غاية العذاب وأشده لأن الوجه أكثر إحساسا بالألم.

﴿ **يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾: وهذا غاية فى الندم على ما فرط منهم فى معصية الله والرسول ﷺ، حيث لا ينفع الندم، لتأكيدهم حينئذ بأن الخلاص من هذا العذاب ليس حاصلا إلا لمن كان أطاع الله ورسوله فى الدنيا.

- ﴿ **وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا** ﴾: هذا اعتراف منهم بأنهم أخطأوا فى ترك طاعة الله ورسوله، وطاعة السادة والكبراء الذين أضلوهم عن الحق.

والسادة الكبراء: هم القادة أو الأشراف فيهم، أو الأمراء.

والكبراء: العلماء.

وكان فى طاعتنا لهم الضلال والكفر وشر الجزاء فى الآخرة، وذلك منهم يحمل معنى الندم والحسرة أيضا.

● ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ وهذا طلب من الله يدل على رغبتهم فى التشفى ممن أضلوهم، يطلبون منه تعالى يوم القيامة أن يعذب هؤلاء المضلين.

والسبيل: الذى أضلوهم عنه هو التوحيد وطاعة الله ورسوله.

﴿ضعفين من العذاب﴾ أى مثلين من العذاب، مِثْل من أجل ضلالهم، ومثل من أجل إضلالهم لنا، أو عذاب الدنيا والآخرة.

﴿والعنهم لعنا كبيرا﴾ بسبب كِبَر إثمهم وعظيم جرمهم.

وقد يقال: لماذا طلبوا لهم العذاب وهم يعذبون فعلا، بل يرونهم وهم يعذبون، بل يتخاصمون معهم فى النار؟.

والجواب أنهم لم يطلبوا لهم العذاب لأنه حاصل فعلا، وإنما طلبوا لهم مضاعفة العذاب.

وكذلك الأمر فى طلبهم اللعن لهؤلاء المضلين -وهم قد لعنوا فعلا إذ المعنى: أنهم طلبوا زيادة اللعن لهم لا اللعن نفسه.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

هذه الآية الكريمة كغيرها من آيات السورة الكريمة حافلة بالمواقف التربوية المعلمة الهادية التى ترسم للمسلمين طريقا ذا معالم واضحة للحصول على سعادة الدنيا والآخرة، ومن ذلك ما نذكره فيما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة...**﴾ الآيات إلى قوله تعالى: «**ولن تجد لسنة الله تبديلا**» ما يلى:

أ - أن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمروجون للشائعات والفتن إحدى الظواهر الاجتماعية التى يقل أن يخلو منها مجتمع ما، غير أن هؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض وملاقيح الفتن يعرفون أنهم فى يوم ما سوف ينكشف أمرهم، وسوف يدفعون ثمن شرورهم وأحقادهم.

ب - وأن هؤلاء المنافقين وأمثالهم هم محل غضب الله تعالى ولعنته، وأن من غضب الله عليهم أن يسلط عليهم المؤمنين ويغريهم بقتلهم والقضاء عليهم، تطهيرا

للمجتمع من شرورهم وآثامهم، وكل ما يضمره المنافق شر، وكل ما ينطوى عليه قلب الذى فى قلبه مرض شر، وكل إثارة لفتنة بهذه الأراجيف شر. وهؤلاء يجب القضاء عليهم وعلى شرورهم، أو أن يهتدوا ويتوبوا عن هذا الشر والنفاق.

جـ - وأن سنة الله تعالى فى المنافقين والمؤمنين، فى ماضى الزمان وحاضره وآتيه، أن المنافقين إذا استمروا على نفاقهم، وكفرهم وإثارتهم للفتن والقلاقل، إذا استمروا على كفرهم ونفاقهم دون أن يرجعوا عما هم فيه، سنته تعالى فيهم أن يجعل لأهل الإيمان عليهم غلبة وقهرا.

وهذه السنة الإلهية لا تتغير ولا تتبدل، ولا تتحول أبدا، لأن بها وبغيرها من السنن الإلهية يستقيم شأن الكون كله، وتستقر حياة الإنسان على الأرض!!!

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله، وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا**﴾ يتعلمون من ذلك كثيرا من الحقائق المتعلقة بالمنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين ملاقيح الفتن، وبمصيرهم، وموقف المؤمنين منهم، ومن هذه الحقائق ما نسوقه فيما يلى:

أ - أن كثيرا من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض وضعفاء الإيمان من المرجفين ومن إليهم، هؤلاء جميعا يسألون عن الساعة متى تكون؟

- وما سؤالهم ذلك إلا لون من الكفر والنفاق وإثارة الفتن، لأنهم يكذبون بالساعة، ويكذبون بما يسمعون من الرسول ﷺ عنها وعما يجرى فيها من حساب وجزاء وثواب وعقاب.
- وهم فى هذا السؤال ينكرون قيام الساعة وينكرون ما يجرى فيها، وكأن سؤالهم هذا يحمل معنى الاستهزاء بمن يقول ذلك!!!
- وهذا التساؤل لا يمكن أن تكون عليه إجابة قاطعة تحدد متى تقوم الساعة، لأن ذلك فى علم الله وحده، ولأنهم لن يتلقوا فى ذلك إجابة فهم يبررون لأنفسهم الاستمرار على النفاق وحب الشر وإثارة الفتن وذلك من ضلالهم وعمى بصائرهم.

ب - وأن الرسول ﷺ قد علمه ربه أن هذا السؤال وأمثاله قد يطرحه الكفار والمنافقون عليه، وعلمه أن إجابتهم عن هذا السؤال يجب أن تكون: ﴿**إنما علمها عند الله**﴾.

● وقد كان رسول الله ﷺ يجيب هذه الإجابة ويرد علمها إلى الله تعالى منذ كان فى مكة وورد عليه سؤال عن قيام الساعة وإنكار لها، وذلك فى زمن مبكر من تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ومنذ سور القرآن المبكرة فى النزول عليه ﷺ، وفيهاذكر للقيامة ولليوم الآخر، وقيام الساعة وما فيها من حساب وكان رده على ذلك دائما هو: ﴿ **عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ** ﴾ [**الأعراف**: ١٨٧].

جـ - وأن هؤلاء السائلين عن الساعة يطمعون فى جحدها ماداموا لم يتلقوا عليها إجابة قاطعة، وإذا جحدوها وأنكروا ما فيها، وبخاصة الحساب والجزاء، ليبرروا لأنفسهم ما يحلو لهم من شهوات وأخطاء ما داموا لن يحاسبوا.

● وهؤلاء الجاحدون لقيام الساعة غافلون عن كثير من الحقائق التى تتعلق باليوم الآخر، إذ إن اليوم الآخر للإنسان هو يوم موته، وما أقرب هذا اليوم لو كانوا يدركون حقائق الحياة والموت!!! ولكنهم فى غفلة عن هذا!!!!

● والله تبارك وتعالى يأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿ **وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا** ﴾ وهى بالفعل قريبة، ما دامت أعمال الإنسان فى الدنيا قد انقطعت بالموت.

● وفي قرب الساعة أى قرب قيامها وردت آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ [**القمر**: ١]، وقوله جل وعلا: ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ** ﴾ [**الشورى**: ١٧]، وقوله تعالى شأنه: ﴿ **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [**النحل**: ١]، وقوله سبحانه: ﴿ **وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [**النحل**: ٧٧]، وقوله عز وجل: ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ** ﴾ [**الأنبياء**: ١].

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا....** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ **والعنهم لعنا كبيرا** ﴾ كثيرا من الحقائق التى تتصل بالكافرين، وبما يدور بينهم وبين مضليهم من حوار، وتبادلهم إلغاء التهم بعضهم على بعض، وما يكون منهم من ندم على ما قدموا من كفر وضلال، وكيف سخط الضالين على من أضلوهم؟ ويطلبون لهم اللعنة من الله تعالى، ومن ذلك ما نذكره فيما يلى، والله المستعان.

أ – أن الكافرين وأمثالهم من المشركين والمنافقين، لهم عند الله تعالى صنفان من العذاب:

أحدهما: الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى.

والآخر: أنه سبحانه أعد لهم فى الآخرة عذابا شديدا، يلائم كفرهم وشركهم ونفاقهم ومعاداتهم للحق وأهله.

وأن من كان نصيبه واحدا من هذين الصنفين فقد خسر خسرانا مبينا، فكيف إذا اجتمعا عليه كلاهما؟

ب – وأن هذا العذاب الذى أعدّه الله تعالى للكافرين، سوف يبقون فيه مخلدين لا يستطيعون منه فكاكا، ولا يجدون لهم مغيثا ولا ناصرا يخرجهم من هذا العذاب.

وتلك هى الخسارة الحقيقية التى لا تعدلها خسارة، فقد قال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الزمر: ٦٣]، وقال جل وعلا: ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** ﴾ [يونس: ٤٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

- وأن المقارنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين قد تهدى من آتاه الله تعالى بصيرة أو ألقى السمع إلى الحق وهو شهيد.

جـ – وأن مما أعدّ الله تعالى لهم من صور التعذيب يوم القيامة أن تقلب وجوههم فى النار، أى يسحبون فى جهنم على وجوههم، وذلك أسوأ ما يلقاه الإنسان من تعذيب ينال الوجه، كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** ﴾ [الزمر: ٢٤].

د – وأن من مقولاتهم يوم القيامة يوم تقلب وجوههم فى النار: ﴿ **يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾ ندماً على كفرهم بالله.

- ومن مقولاتهم: ﴿ **ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا** ﴾، وهذا اعتراف منهم

بضلالهم وتحديد لمن ضللوهم وهم سادتهم وكبراؤهم.

● ومن مقولاتهم ضد من أضلوهم: ﴿ **ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا** ﴾.

● وكل تلك المقولات منهم عند تحليلها وتدبر محتواها هي ندم على ما كان منهم من كفر، وذلك الندم معروف عنهم يوم القيامة، تحدثت عنه آيات قرآنية أخرى غير تلك الآية هي:

قول الله تعالى: ﴿ **رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴾ [**الحجر**: ٢].

وقوله سبحانه: ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً** ﴾ [**الفرقان**: ٢٧].

وقوله جل شأنه: ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [**الأنعام**: ٢٧].

وقوله: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ** ﴾ [**الحاقة**: ٢٥ – ٢٩].

وقوله: ﴿ **كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** ﴾ [**الفجر**: ٢١ – ٢٤].

هـ – وأن هؤلاء الكافرين يوم القيامة تتجلى أمامهم الحقائق وينكشف يومئذ ما كان خافيا عنهم، وما كان ضلالهم وشياطينهم من الإنس والجن يحولون بينهم وبين رؤيته.

وعندئذ يعرفون أن الذين ضللوهم وأساءوا إليهم هم كبراؤهم، وسادتهم ومشايخهم ورؤساؤهم وعلماؤهم، وأن هؤلاء السادة الكبراء كانوا يتحدون الله ورسوله، ويزينون لهم هذا التحدي وهذا الكفر، يتكشف لهم كل ذلك، فيتبادلون التهم ويتخاصمون، ويعرفون الحق ويقولون كما يحكي عنهم القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ **وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ**

يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ
فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ
الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
(١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾

[الشعراء: ٩١ – ١٠٤].

وقال جل شأنه: ﴿ **هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا**
فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ
صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا
هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ
سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾ [ص: ٥٥ – ٦٤].

وقال جل شأنه فى هذه السورة الكريمة: ﴿ **وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً** ﴾ أى بكفر هؤلاء الكبراء وإغوائهم لنا.

- وحكاية هذا عن الكافرين السابقين، فيها تنبيه بل تحذير للكافرين اليوم، ولمن يقومون بحملات التضليل والمغالطة ليصرفوا الناس عن دينهم وعن الحق الذى جاءهم من ربهم، تحذير لهم ليتوبوا عن باطل قصير الأمد مهما طال، وعن جاه وسلطان يستغل لتحدى منهج الله وهو جاه زائل وسلطان حائل مهما بدا للناظرين أنه شديد البنيان!!!

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

هذه الآيات الكريمة حافلة بالمواقف المعلمة للدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية، وهى مواقف هادية هادفة لو تدبر فيها الدعاة لكان لهم فى ذلك أمل فى صالح العمل، وكان لهم فيها عزاء عن كل ما يصيبهم فى سبيل الله، ولعرفوا حقيقة السادة والكبراء، ومن ذلك ما نذكره فيما يلى:

١ – يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم....** ﴾ الآيات إلى قوله

تعالى: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ ما يلى:

أ – أن التعامل مع المنافقين والذين فى قلوبهم مرض وملاقح الفتن، والذين يحبون أن يدنسوا المسلمين ويصرفوهم عن الحق، التعامل مع هؤلاء يجب أن تكون بدايته محاولة إظهار الحق لهم، ونقلهم مما هم فيه إلى الإيمان والهدى. فتلك سنة الدعاة إلى الله، أن يقدموا الدعوة والكلمة الطيبة أولا، فإن استجاب هؤلاء المنافقون فقد نقلوا بذلك أنفسهم من عداوة الله ورسوله، ودعاة الحق، إلى صفوف من يوالون الله ويتواصون بالحق والصبر، وإن لم يستجيبوا فليثق الدعاة إلى الله، أن الله تعالى سوف يجعل لهم عليهم سلطانا، ويمكنهم من أخذهم وتطهير المجتمع منهم، ومن شرورهم وآثامهم.

ب – وأن من أدب الدعوة إلى الله وأولويات الحركة من أجل الإسلام أن إذا قدر الدعاة بعون الله على المنافقين وأمثالهم ألا يأخذوهم بغتة، وإنما يمهلونهم بعض الوقت لعلهم يتراجعون عن باطلهم ويتوبون عن ضلالهم، وعصيانهم، وسنة الأنبياء والمرسلين والدعاة إلى الله أن يعجلوا الوعد ويؤخروا الوعيد.

- بل تلك سنة الله تعالى علمها لأوليائه والدعاة إليه: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ** ....﴾ [**الكهف**: ٥٨]، وقال تعالى يعلم إمام الدعاة وخاتمهم محمد ﷺ، ليسير الدعاة إلى الله على دربه: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** .....﴾ [**الأحقاف**: ٣٥].

- وقد تسامح رسول الله ﷺ مع بعض المنافقين فسكت عنهم وهو قادر عليهم، وصبر على نفاقهم وداراهم لعل الله يصلح من أحوالهم، فكان فى ذلك قدوة لكل داعية إلى الله فى تعجيل الوعد وتأخير الوعيد.

جـ –وأن من المبشرات التى نذكر بها الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية، أن نطمئنهم –حسب سنة الله تبارك وتعالى– إلى أن مصير المنافقين سوف يكون أسوأ مصير لأن الله تعالى قد أمضى ذلك فى الذين خلوا من قبل، وأنه سبحانه قد مكن المؤمنين من المنافقين، وسوف يمكنهم منهم فى كل حين بعد زمن يطول أو يقصر، فما دامت سنة الله فلن تجد لسنة الله تبديلا.

- والغافلون وحدهم، هم الذين ينخدعون فى سطوة المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والكفار والمشركين، فهى سطوة محدودة بحدود الزمان والمكان، وزائلة بحكم أن كل ما

على الأرض من ناس إلى فناء، ينخدع فى هذه السطوة من كان غافلا أما من نظر بعمق، وتأمل تاريخ الدعوات، فإنه يدرك أنها سطوة موقوتة مهما بدت قوية عارمة.

● والذى كان عليه الكفار من سطوة وهم يحبسون رسول الله ﷺ وأصحابه وأقرباءه فى شعب بنى هاشم بمكة ثلاث سنوات عانوا فيها الجوع والحرمان، وما كانوا عليه من مهانة وذل واستعطاف لسجناء الأمس يوم مكن الله المؤمنين من المشركين فى فتح مكة يوم قالوا للرسول ﷺ، وقد مكنه الله منهم فقال لهم: ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا له -فى ذل وانكسار-: أخ كريم وابن أخ كريم.

● هذا التحول من سجان إلى مُستعطف هو حقيقة سطوة أعداء الله، والباطشين بالحق وأهله، ولكن بعض الدعاة قد يستعجلون!!!

وما يستعجل الدعاة إلا إذا ضعف احتمالهم لما يصيبهم فى سبيل الله، أو دب إلى نفوسهم شئ من اليأس، وكل ذلك مما نعيذ الدعاة أن يحدث منهم، وعلاج كل ذلك هو الصبر الجميل، وما أسرع ما سوف يقول الظالمون الباطشون: ﴿ **يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾.

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **ويسألك الناس عن الساعة...** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ **ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا** ﴾ ما يلى:

أ - أن من الناس من يتشككون أو يكذبون الحقائق الكبرى التى جاء بها الدين كيوم القيامة والحساب والثواب والعقاب، ولهم من وراء هذا الإنكار والتكذيب هدف هو أن يمارسوا ما شاءوا من الشهوات، حيث لا بعث ولا حساب ولا عقاب، وتلك غفلة شديدة منهم، فليس من المعقول أن يخلق الناس ويمنحهم فرصة العيش فى الدنيا وتعامل بعضهم مع بعض وفق منهج الحق والعدل الذى اختاره لهم دون أن يحاسب المخطئ والمقصر، وإلا أكل القوى الضعيف وبطش به.

● إن واجب الدعاة أن يذكروا الناس بيوم الساعة وما سوف يجرى فيه، لأن ذلك يدعو إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، ويسهم فى ترشيد سلوك الناس فى الدنيا، لينجوا من عذاب الله يوم القيامة.

ب - وأن الذين كفروا ومن لف لفهم قد لعنهم الله تعالى وأقصاهم عن رحمته، وأعدلهم يوم القيامة أشد العذاب، خالدين فيه لا يجدون من يخلصهم منه، وفى ذلك العذاب تقلب وجوههم فى النار.

● إن على الدعاة أن يذكروا الناس بذلك، وأن يقارنوا لهم بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين، لأن هذه المقارنة لها فى نفوس الناس أكبر تأثير، وكثيرا ما نقلت هذه المقارفات كثيرا من الناس من الضلال إلى الهدى ومن الكفر إلى الإيمان.

● والمتأمل لآيات القرآن الكريم وسوره الكريمة، يجد هذه المقارنات بين المؤمنين ومصيرهم والكافرين ومصيرهم، والمنافقين ومصيرهم، فهى وسيلة من وسائل إعمال الفكر والتدبر والتأمل للوصول إلى الهدى وإلى الحق المبين.

● وللدعاة إلى الله فى القرآن الكريم عظة وعبرة ونمط يمكن احتذاؤه فى ممارسة الدعوة إلى الله، وذلك أن الدعاة إلى الله ليس لهم معين أنقى ولا أغنى من القرآن الكريم، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن عليّ رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتانى جبريل، فقال: يا محمد أمتك مختلفة بعدك، قال: فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟ قال: فقال: فى كتاب الله به يقصم الله كل جبار، مَنْ اعتصم به نجا، ومن تركه هلك -مرتين- قول فصل، وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن، ولا تغنى عجائبه، فيه نبأ ما كان قبلكم، وفضل ما بينكم، وخبر ما هو كائن بعدكم».

إن القرآن الكريم والسنة النبوية فيهما كثير من هذه المقارنات وإنهما الزاد الذى يتزود به الدعاة والحركيون فى طريق العمل من أجل الإسلام.

● ولعل الله أن يهدى بهذه المقارنات من كان له بصر أو ألقى السمع وهو شهيد.

إن تلك المقارنات من أبرز ما يجب أن يقوم بها الدعاة إلى الله والعاملون من أجل الإسلام.

جـ - وأن هؤلاء الذين كفروا وتحدوا الحق وأهله، وناصبوا دين الله ومنهجه العداء، منخدعون بما هم فيه اليوم من سلطة وجاه نادمون غدا على ما فرط منهم، حيث لا ينفع الندم، فهم الذين سوف يقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [الشعراء: ١٠٢، ١٠٣].

● إن على الدعاة والحركيين أن يوضحوا هذا المعنى ويؤكدوا للناس أن الندم والتراجع هو ما سوف يصل إليه هؤلاء الكفار، وأنه لا جدوى منه آنئذ، وتلك مهمة الدعاة إلى الله، فى كل حين، وليس لهم أن ينهجوا نهجا آخر غير دعوة الناس إلى الهدى وإلى الرشاد بتوضيح هذه المصائر للمؤمنين والكافرين.

د – وأن هؤلاء الكفار ينقلبون على سادتهم وكبرائهم يوم القيامة ساخطين عليهم، وقد تكشفت أمامهم الحقائق، معترفين أمام الله تعالى أنهم قد أضلوهم عن السبيل السوى، وهو الإيمان بالله وطاعة الرسول ﷺ، نادمين على ذلك أشد الندم.

بل يبلغ بهم الندم أن يطلبوا من الله لعن هؤلاء السادة والكبراء وإيقاع أشد العذاب بهم ومضاعفته، وهذا الضعف من العذاب جزاء على عملين سيئين لهم، وهما:

كفرهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإضلالهم غيرهم عن الحق وعن الصراط المستقيم.

● ولعن الله تعالى لهم هو أقسى أنواع العذاب، وهو من المعنى العام الذى يفهم من قول الله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٩]، ومن قوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨)** ﴾ [**آل عمران**: ٨٧، ٨٨].

● وإنما كانت اللعنة من الله أشد أنواع العذاب لأن الله تعالى قد اختارها جزاء لأشقى عباده، وهو إبليس، قال الله تعالى: ﴿ **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)** ﴾ [**الحجر**: ٣٤، ٣٥].

● وأن واجب الدعاة إلى الله أن يذكِّروا الناس بما سوف يحدث يوم القيامة بين الضالين والمضلين، وبين الضالين وحدهم، حيث تتكشف لهم الحقائق، بل بينهم وبين إبليس نفسه.

فبينهم وبين المضلين لهم يقول الضالون: ﴿ **رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ** ﴾ [**الأعراف**: ٣٨].

وبينهم وبين زملائهم فى الضلال: ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [**الزخرف**: ٦٧].

وبينهم وبين إبليس: ﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

● إن من شأن الدعاة إلى الله أن يدعوا دائما الناس إلى إعمال العقل وإجالة الفكر والتدبر فى خلق الله، ليستنيبوا ويهتدوا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

● وللدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يطمئنوا هم وأن يطمئنوا غيرهم من الناس الذين يدعونهم إلى أنهم جميعا فى نعمة من الله غامرة فى الدنيا والآخرة.

أمَّا نعمة الدنيا فلأن الله أورثهم الكتاب، وجعلهم فى الدعوة إلى الله ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يبلغون رسالات الله تعالى ولا يخشون أحدا إلا الله.

وأمَّا نعمة الآخرة فهى أكبر النعم إذ هى رضاه سبحانه وتعالى عليهم وجنته التى أعدت للمتقين.

● فأى أمن وطمأنينة أكبر من ذلك؟

إن الاطمئنان إلى معية الله تبارك وتعالى هو الزاد الذى يدفع صاحبه إلى العمل وإلى إحياء الأمل، وإلى مضاعفة الجهد فى سبيل الله، بل الأهم من ذلك كله أن يدعوه الاطمئنان إلى معية الله تعالى إلى تحمل ما قد يتعرض له من عناد فى سبيل الله، فينال بذلك أجر الصابرين وهذا أجر عظيم لا يكال ولا يوزن ولا يُحد، ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر: ١٠].

١٣ - الآيات الكريمة من التاسعة والستين إلى الثالثة والسبعين

نهاية السورة نداء على المؤمنين، وتحذير لهم، ومطالبتهم

بالتقوى وبيان لضخامة الأمانة التى قبل الإنسان حملها

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾ [الأحزاب: ٦٩ - ٧٣].

● تحدثت هذه الآيات الكريمة عن تحذير المؤمنين من إيذاء النبى ﷺ بشئ، حتى لا يكونوا كالذين آذوا موسى عليه السلام وهم قومه اليهود.

وتنادى الآيات على المؤمنين مطالبة لهم بتقوى الله، وتطالبهم بالقول السديد، وتبشرهم بإصلاح الله أعمالهم ومغفرته ذنوبهم وفوزهم بطاعة الله ورسوله.

وتتحدث الآيات الكريمة عن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، ورفضهن حمل الأمانة وإشفاقهن منها، وقبول الإنسان حمل هذه الأمانة الثقيلة.

وإنما كان ذلك لكى يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بغفرانه ورحمته.

● وقد اشتملت الآيات الكريمة على نداءين للذين آمنوا، وعلى نهى، وعلى أكثر من أمر، وعلى أسلوب شرط وجزائه، وعلى عدد من الأخبار، وعديد من الحقائق الهامة فى حياة الإنسان، مما سوف نوضحه بعون الله تعالى فيما يلى:

- ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾.

هذا نهى وتحذير للمؤمنين بأن يكونوا كاليهود الذين آذوا نبيهم موسى عليه السلام.

● ﴿ والذين آذوا موسى ﴾ هم بنو إسرائيل.

● وإيذاؤهم له عليه السلام، للعلماء في توضيحه أقوال منها:

القول الأول:

إنهم رموه بأن به برصا، وأنه آدر –أي منتفخ الخصية– ويدل على أن أذيتهم له هي اتهامه بتلك العيوب، ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوءات بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال: فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، قال: فجمح موسى عليه السلام بأثره يقول: ثوبي حجرُ –أي يا حجر بحذف ياء النداء– ثوبي حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوءة موسى، وقالوا: والله ما بموسى من بأس، فقام الحجر حتى نظر إليه، قال: فأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربا، فبرأه الله مما قالوا بأن أظهر سلامته من البرص والأُدرة».

والقول الثاني:

إنهم اتهموه بأنه قتل أخاه هارون، ومما يشهد لهذا القول: ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ﴿ **آذوا موسى** ﴾ بأن قالوا: قتل هارون، وذلك أن موسى وهارون –عليهما السلام– خرجا في فحص التيه[1] إلى جبل فمات هارون فيه، فجاء موسى فقالت بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته، وكان ألين لنا منك وأشد حبا، فآذوه بذلك، فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى طافوا به في بني إسرائيل، ورأوا آية عظيمة دلتهم على صدق موسى، ولم يكن فيه أثر لقتل.

وقيل: إن الله تعالى أحيا هارون فأخبرهم أنه لم يقتله.

والقول الثالث:

إنهم آذوه بقولهم: إنه ساحر، إنه مجنون، ولعل ذلك كان مما يؤذى به معظم الأنبياء.

---

(١) الفحص: كل موضع يسكن فيه الإنسان سهلا كان أو جبلا بشرط أن يزرع.
والتيه هو الموضع الذى ضل فيه موسى عليه السلام وقومه، وأرضه بين أبلة –العقبة– ومصر وبحر القلزم– البحر الأحمر– وهذا المكان اليوم هو شبه جزيرة سيناء –وهي جزء من أرض جمهورية مصر العربية.

والقول الرابع:

قال به بعض المفسرين، وهو قولهم له: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، فآذوه بالعصيان والقعود عما أوجب عليهم نبيهم من حرب أعدائهم.

والقول الخامس:

إنهم آذوه بالتهكم به والسخرية منه، بأن قالوا له: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ [البقرة: ٦٧]، فنسبوه إلى الطيش والنزق ساخرين منه، ولذلك كان رده عليهم: ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧].

والقول الأخير:

إن إيذاءهم كان بسوء ما قالوه له، ويشهد لذلك ما جاء في التوراة التي بين أيديهم اليوم: «وقالوا لموسى فماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر!!! فإنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية»(١).

وجاء في التوراة أيضا: «وقالوا لموسى وهارون إنكما أخرجتمانا إلى القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع»(٢).

● والصحيح القول الأول لأنه مؤيد بالحديث النبوي الشريف الذي أورده الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه والذي رواه البخاري أيضا.

● وأما ما أوذي به رسولنا الكريم محمد ﷺ ففيه أقوال كذلك:

– قال النقاش: هو قولهم: زيد بن محمد لزيد بن حارثة وقولهم عن الرسول ﷺ: تزوج مطلقة ابنه.

– وقال أبو وائل: أذيته ﷺ أنه قسم قسما فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك للنبي ﷺ فغضب، وقال: «رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

– وقد أوذي رسول الله ﷺ بأكثر من ذلك من يوم كان في مكة وبعد مجيئه إلى المدينة

---

(١) الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج.
(٢) الإصحاح السادس عشر من سفر الخروج.
المعهد القديم ص: ١٠٩ ط العربية بمصر ١٩٩٢م.

وإلى أن توفاه الله، فصبر صبرا جميلا.

- «**وكان عند الله وجيها**» أى مرضيا عنه من الله تبارك وتعالى مقبولا مغفورا له، مستجاب الدعوة.

- «**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا**».

● نداء على المؤمنين بتقوى الله.

وتقوى الله هى: جماع الخير فى القول والعمل.

والقول السديد هو: ما يعم الخيرات، أو هو الصواب، أو ما يوافق ظاهره باطنه، أو ما أريد به وجه الله، أو ما أريد به الإصلاح بين الناس والمتشاجرين.

وما يعم الخيرات يشمل كل ذلك.

● وقال بعض العلماء:

القول السديد يشمل كل ما هو تعبير عن الإرشاد والإصلاح من أقوال الأنبياء والعلماء، وما هو تبليغ لأقوال الأنبياء وإرشادهم عليهم السلام، إلى الناس أى ما يقوم به الدعاة إلى الله.

● وقراءة القرآن على الناس، ورواية الحديث الشريف لهم ودراسة السيرة النبوية من القول السديد.

● ومن القول السديد: التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل وسائر أنواع ذكر الله تعالى، ومنه الأذان والإقامة ونحوهما.

● ومن اتقى الله جازاه الله بمغفرة ذنوبه.

● ومن قال قولا سديدا أصلح الله له عمله.

- «**ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما**» هذا شرط وجزاؤه، ففعل «يطع الله ورسوله» هو الشرط أو فعل الشرط.

و «**فقد فاز فوزا عظيما**» هو جواب الشرط وجزاؤه، وهذا وعد من الله تعالى، ووعده سبحانه لا يتخلف أبدا: «**مَنْ يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما**».

- «**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا**».

● العَرْض: حقيقته هى إحضار الشئ لإنسان ليختاره أو يرفضه.

ومجاز العَرض: هو وضع شئ فى شئ لأنه أهل له، دون بقية الأشياء.

● والأمانة ما يؤتمن عليه ويطالب بحفظه والوفاء به دون إضاعة أو إجحاف.

والأمانة هى الطاعة، أو الصلاة أو جميع الفرائض، أو الانقياد إلى الدين، أو التوحيد، أو الوفاء بالعهد، أو حفظ الفرج، أو العقل.

وقال بعض العلماء: الأمانة هى الخلافة، أى خلافة الله تعالى فى الأرض.

● وكل هذه المعانى صالحة للأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال والإنسان.

● ويمكن أن تكون الأمانة هى: أمانة الإيمان: أى توحيد الله وهى العهد الذى أخذه الله على جنس بنى آدم، العهد المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ [**الأعراف**: ١٧٢].

والمعنى أن الله تعالى أودع فى نفوس الناس دلائل وحدانيته، فهى دلائل ملازمة للفكر البشرى أودعها الله فيه، فكأنها عهد الله لهم به، وكأنه أمانة ائتمنهم عليها، لأنه سبحانه أودعها فى الفطرة ملازمة لها.

● وهذه الأمانة لم تودع فى السموات والأرض والجبال، لأن هذه الأمانة من قبيل المعارف، والمعارف علم، وذلك من صفات الإنسان لا هذه المخلوقات من أرض وسماء وجبال.

● ويجوز أن تكون الأمانة ما يؤتمن عليه، وذلك أن الأمانة فطرة فى الإنسان، والناس متفاوتون فى الوفاء بها، وقد روى الطبرانى بسنده -فى الكبير- عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة».

وروى البخارى بسنده عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن ومن السنة.

ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، ليظل أثرها مثل أثر المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه مُنْتَبِراً، وليس فيه شئ» ثم أخذ حصاة قد حرجها على

رجله وقال: «فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال: إن فى بنى فلان رجلا أمينا، حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، وما أعقله، وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيكم بايعت: لئن كان مسلما ليردنه علىّ دينه، وإن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه علىّ ساعيه، وأما اليوم، فما كنت أبايع منكم إلا فلانا وفلانا».

- «**فأبين أن يحملنها**» أى يحملن تبعاتها ومشقاتها أوزارها.

- «**وحملها الإنسان**» أى قبلها بأعبائها والتزم بها.

● وقال الحسن وغيره من العلماء: إنه سبحانه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وما يرتب على حفظها من ثواب وعلى إضاعتها من عقاب، أى أظهر لهن ذلك فلم يحملن وزرها، وأشفقن منها وقلن: لا ينبغى ثوابا ولا عقابا، وكل منها قال: هذا أمر لا نطيقه، ونحن لك سامعون ومطيعون، فيما نؤمر به ونسخر له.

- «**وحملها الإنسان**» أى قبل أن يتحمل تبعاتها، وأن يثاب على حفظها ويعاقب على تضييعها.

- «**إنه كان ظلوما جهولا**» أى ظلوما لنفسه، جهولا بربه سبحانه وتعالى، أمَّا أنه ظلوم لنفسه فلما يوطها فيه من المعاصى وأمَّا أنه جهول بربه فلما يقع فيه من تفريط.

والمعنى أن الإنسان قصر فى الوفاء بما تحمله من أمانة تقصيرا بعضه عن عمد وهو فى هذا ظلوم لنفسه إذ تعمد المعصية فاستحق العقاب، وبعضه عن تفريط فى الأخذ بأسباب الوفاء، وهو فى هذا جهول بربه وبما أمر به وما نهى عنه وما ندب إليه.

- «**ليعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات...**».

والمعنى: أن الله تعالى عذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات على عدم الوفاء بالأمانة التى تحملوها فى أصل فطرتهم، وبحسب الشريعة التى نزلت عليهم.

وتاب على المؤمنين والمؤمنات فغفر لهم ذنوبهم، لأنهم وفوا بالأمانة التى تحملوها.

- «**وكان الله غفورا رحيما**» تلك بشارة للمؤمنين والمؤمنات بأن الله تعالى سيعاملهم بالغفران وبما تقتضيه صفة الرحمة فيه سبحانه وتعالى وهى صفة ملازمة تتسع لكل شئ.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

هذه الآيات الكريمة حافلة بالقيم التربوية الموجهة إلى أفضل أنواع الحياة الإنسانية، وإلى أحسن أسلوب فى التعامل مع الناس ومع سائر مفردات الحياة من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وسوف نتحدث عنها فيما يلى سائلين الله التوفيق.

١ – يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيها** ﴾ ما يلى:

أ – أن المؤمن لا يجوز له أن يؤذى أحدا بالقول أو بالصمت، بالعمل أو بالترك، حتى لو كان الذى يقع عليه الأذى من غير المسلمين، لأن أذى الناس بل الأذى عموما محرم شرعا، وهو من الشرور التى حظرها الشارع الحكيم.

● وكل مؤمن مطالب بتقديم الخير للآخرين، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٧٧) **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ.....** (٧٨) ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

فكلمة: افعلوا الخير مطلقة عن كل قيد وعامة تشمل كل من يُقدم له الخير، وربط فعل الخير برجاء الفلاح يعنى أن فعل الخير هدف فى ذاته، لأن الفلاح هدف كبير فى الحياة.

ب – وأن الأذى المنهى عنه فى هذه الآية أنواع:

● منها ما هو أذى لله ولرسوله وعقاب ذلك اللعن والطعن إلا من تاب وأناب.

● ومن الأذى ما هو موجه للمؤمنين أو المؤمنات، وعقابه حمل الوزر، وقد يكون له عقاب دنيوى كالحدود ونحوها.

● ومنه ما يؤذى النفس ويؤلم القلب، ولابد عليه من عقاب من العادل سبحانه وتعالى، إلا أن يغفر ويرحم.

● وأن المؤمن منهى عن كل أنواع الأذى حتى ذلك الأذى الموجه إلى حيوان أو نبات أو إفساد أى شئ.

جـ – وأن اليهود مثل مشركى العرب كلهم آذى نبيه ﷺ . فبرأ الله أنبياءه وعاقب من تعرض لهم بالأذى.

وفى الآية دليل على أن الله تعالى ينصر رسله ويدافع عنهم، وعن الذين آمنوا، كما فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾ [غافر: ٥١].

وتبرئة الله تعالى لرسوله تلتمس فى كتب السيرة فيما يخص محمدا ﷺ، وفى كتب السنة كذلك.

د – وأن المكانة التى يعول عليها هى أن يكون الإنسان مرضيا عنه عند الله تعالى: وكان عند الله وجيها، ولا عبرة بما يتقوله المتقولون من الذين يحبون الشر والإثم والفواحش، أو يزعمون لأنفسهم أعمالا تقربهم إلى الله لم يشرعها الله تعالى.

٢ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما** ﴾ ما يلى:

أ – أن المؤمن مطالب دائما بأن يكون على تقوى الله –أى مستمرا عليها.

وتقوى الله مفتاح كل خير، ومغلاق كل شر، ودليل على عقل ناضج وقلب داع، وإيمان صحيح، وخوف من الله ورجاء له على كل حال.

● وللتقوى عند الله أحسن الجزاء، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ **وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [الزمر: ٦١].

وقوله جل شأنه: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ب – وأن القول السديد: الحق والصواب والنافع كل ذلك مطلب شرعى، طالب الله تعالى به المؤمنين، وهو فى الوقت نفسه باب عظيم من أبواب الخير.

وأحسن ما يكون القول السديد هو تمثل آيات القرآن الكريم عملا وتلاوتها لفظا، والاهتداء بأحاديث الرسول ﷺ فى كل موقف يتعرض له المسلم، كما نفهم من

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠].

ولقد روى الترمذى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه، فرب مبلَّغ أوعى من سامع ».

جـ – وأن جزاء تقوى الله تعالى، والالتزام بالقول السديد هو أحسن جزاء وأجزله وأبقاه لأنه من عند الله، وكيف لا يكون كذلك وهو إصلاح الأعمال، ومغفرة الذنوب، والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بقوله : ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر : ٥٦]، وبقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد : ٦].

● وما دامت التقوى خير زاد كما قال تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ١٩٧]، فلابد أن يكون الجزاء عليها خير جزاء، وحسبنا بحسن الجزاء معية الله تعالى، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٤]، وكيف لا يكون جزاء التقوى أحسن جزاء والمتقى أكرم الناس عند الله تعالى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣].

وجزاء المتقين الجنة وليس بعد الجنة مطلب، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد : ١٥].

– ويتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها** ... ﴾ الآية ما يلى :

أ – أن التكاليف الشرعية، وأمانة الإيمان والإسلام والإحسان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا أمانة ثقيلة التبعات تحتاج إلى جهد وجهاد، وصبر واحتساب.

● وأن هذه الأمانة بتلك التبعات هى اختيار الإنسان وحده من بين مخلوقات الله تعالى :

﴿ **وحملها الإنسان** ﴾.

● وأن سائر المخلوقات المسخرة لما أراد الله لها، لما عرض عليها الأمانة خافت من هول التبعة ولذعة العقاب فأبت حملها وأشفقت من عبئها، ولا عجب فى ذلك فالإنسان هو المخلوق

المخير الذى أعطاه الله تعالى حرية الإرادة فى أن يؤمن أو يكفر: ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .....** ﴾ [**الكهف**: ٢٩]، والإنسان هو أكرم مخلوقات الله على الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [**الإسراء**: ٧٠].

الإنسان بهذه الإرادة وبذلك التكريم كان جديرا بأن يحمل أمانة التكاليف.

ب - وأن الإنسان إذا لم يؤد أمانة التكاليف، فقد ظلم نفسه ظلما آخر، وجهل حق الله عليه، واستحق عقابا على هذا وذاك، وليس ذلك بمستغرب من الإنسان لأن الله تعالى وصفه بذلك حين يقصر فى حق نفسه وفى حق الله تعالى، فقال عنه: «إنه كان ظلوما جهولا» وعلى الرغم من ذلك فإن الإنسان يتميز من بين مخلوقات الله بأنه يثاب إن أطاع الله ورسوله، ويعاقب إن عصى الله ورسوله، وأن الله تعالى قد سخر له ما فى السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ [**لقمان**: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾ [**الجاثية**: ١٣].

جـ - وأن الله تعالى جعل الإنسان للأمانة سببا فى أن يحاسب كل إنسان بما عمل، فيعذب المنافقين والمنافقات لأنهم زعموا أنهم يحملون الأمانة والحقيقة أنهم يخونونها ولا يطيعون الله ورسوله، وليعذب المشركين والمشركات لأنهم خانوا الأمانة وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا.

ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات فيما قصروا فيه أو أخطأوا غير عامدين، لأن الله تبارك وتعالى غفور رحيم.

٤ - وأن قمة الخير وغاية الفوز فى الدنيا والآخرة سببه طاعة الله ورسوله، ولذلك جاءت الآية الدالة على ذلك مشتملة على شرط وجزائه وهى قوله تعالى: ﴿ **ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما** ﴾.

● والفوز هو: الظفر بالخير مع حصول السلامة، إذا نظرنا إلى حال الدنيا، أما الفوز فى الآخرة فهو الوصول إلى النعيم فى جنة عرضها السموات والأرض.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة
والحركة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم الدعاةوالعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات جملة كثيرة من القيم وعددا غير قليل من الفوائد التربوية تنفعهم فى مجال الدعوة والحركة والعمل من أجل تمكين دين الله فى الأرض، ومن ذلك ما نشير إلى بعضه فيما يلى والله المستعان:

١ - يتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: «**يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها**» يتعلمون من ذلك ما يلى:

أ - أن يربّوا أنفسهم ومن يدعونهم على نبذ الأذى ورفضه، لأن الإسلام حرم الأذى تحريما مطلقا، فى قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ**﴾ [**الأحزاب**: ٤٨]، وهذه الآية الكريمة التى شرحناها آنفا وهى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)** ﴾ [**الأحزاب**: ٥٨].

● ولا يباح الأذى إلا فى حد أو قصاص يثبت عليه ويوقعها عليه الحاكم المسلم، لأن الأصل فى المسلم أن يقدم الخير للناس جميعا وحسبه فى ذلك الخير أنه يدعوهم إلى الله تعالى وإلى منهجه ونظامه.

ب - وليطمئن الدعاة والحركيون إلى أن كل ما يوجهه إليهم الأعداء من تهم وافتراءات، فإن مصيره أن ينكشف الزور فيه والبهتان، لأن الله تعالى متكفل بأن يبرئ دعاته وأولياءه والعاملين من أجل دينه ونظامه، لأنه سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه برأ أنبياءه ومرسليه، وسوف يبرئ من أورثهم عمل الأنبياء والمرسلين وهم الدعاة إلى الله، وتلك المكانة عند الله هى الوجاهة التى منحها الله نبيه موسى عليه السلام.

٢ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم...** ﴾ الآية. يتعلمون منها ما يلى:

أ - أن ذخيرة الدعاة إلى الله وزادهم الذى يتزودون منه شيئان:

● تقوى الله تعالى بامتثال أمره ونهيه.

● واتخاذ القول السديد أسلوبا فى التعامل مع الناس.

وليس أنفع للدعاة ولا للناس جميعا من تقوى الله تعالى والتزام القول السديد. فبهذا وذاك تصبح حياة الناس أكثر أمنا وأكثر اطمئنانا وأكثر عدلا، وأرضى لله تعالى.

ب – وأن أفضل ما يستعين به الدعاة والحركيون على النجاح فى العمل والتوفيق فيه، مع صلاح العمل ومغفرة الذنوب، أفضل ما يستعينون على الوصول إلى ذلك هو تقوى الله والقول السويد، بل أكثر من ذلك، إنهم يستطيعون أن يحصلوا على العلم النافع فى الدنيا والآخرة بالتقوى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [**البقرة**: ٢٨٢].

جـ – وأن طاعة الله ورسوله مفتاح الفوز المبين. فالدعاة إلى الله والحركيون، حياتهم كلها لا تخلو من أن يواجههم أعداؤهم بالعناد والتحدى، بل ربما واجه الدعاة إلى الله الفشل فى عملهم، فاستعصى عليهم نقل بعض الناس من الضلال إلى الهدى فضلا عن نقلهم من الكفر إلى الإيمان.

● ولا يعين على النجاح فى ذلك والمضى فى طريق الدعوة والحركة شئ مثل طاعة الله ورسوله، لأن ترك الطاعة يحبط العمل ويبطله كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾ [**محمد**: ٣٣].

د – وأن كلمة الحق والصواب هى التى تفتح أمام الدعاة والحركيين أبواب التقبل عند الله وعند الناس، وتعينهم على المضى فى الطريق، وتمكنهم من النصر فالتمكين لدين الله فى الأرض.

● وأن الدعاة إلى الله إذا التزموا القول السديد فى كل مفردات الدعوة إلى الله ضمنوا أمرين:

صلاح العمل.

ومغفرة الذنوب.

وليس وراء ذلك مطلب لكى تتحقق سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة.

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** . . .﴾ الآيتان إلى قوله

تعالى: ﴿إن الله كان غفور رحيما﴾ ما يلى:

أ - أن على الدعاة والحركيين أن يعينوا المدعوين على حمل أعباء الأمانة فهى ثقيلة تحتاج إلى عون وتأييد.

- وإذا كان شياطين الجن والإنس يجدون فى تثبيط همة الإنسان عن أن يحمل الأمانة، فإن الدعاة والحركيين موكول إليهم -بحكم أنهم ورثة الأنبياء فى الدعوة إلى الله- هم القادرون بما يملكون من وسائل قادرة على مقاومة همزات الشياطين، والتصدى لما يقع فيه الإنسان من ظلم لنفسه حين يخرج عن واجب حمل الأمانة، ومن جهلٍ بما يجب عليه نحو ربه سبحانه وتعالى.

ب - وأن على الدعاة والحركيين أن يدركوا أن الأمانة فى عملهم كثيرة التشعب والتفاريع، وأن كل فرع منها يحتاج إلى توافر الأمانة فيه.

وعلى سبيل المثال:

فهناك هذه الأنواع من الأمانة:

- أمانة الدعوة والتبليغ عن الله ورسوله وفق منهج الدعوة إلى الله ووسائلها ومراحلها وأهدافها.
- وأمانة الاستمرار فى الدعوة والحركة وفق أولويات معروفة وخطط مدروسة، وتنسيق وتنظيم وتوظيف وترشيح وتوريث، وكل ذلك لا يتم عمل الدعوة إلا به[1].
- وأمانة الاستمرار فى كل عمل يحتاج إليه التمكين لدين الله فى الأرض، وهذا عمل معروف لدى الدعاة والحركيين، يبدأ بحبه الناس وحب الخير لهم، وتقديمه إليهم، ولا تنتهى تفاصيله حتى يتمكن دين الله فى الأرض ويحكم به عباد الله.

وتفاصيل هذه الأنواع من العمل تكمن فى الحديث النبوى الشريف الذى رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها أو أرفعها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[2].

---

(١) لمعرفة ذلك بالتفصيل: انظر لنا: فقه الدعوة إلى الله من جزءين نشر دار الوفاء بمصر ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

(٢) انظر تفصيل هذه الشعب كلها فى كتاب: مختصر شعب الإيمان للبيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ بشرح أبى جعفر القزوينى المتوفى سنة ٦٩٩ هـ. نشر دار الطباعة المنيرية بالقاهرة: ١٣٥٥ هـ.

والتمكين لدين الله فى الأرض واجب شرعى على كل قادر عليه وأدلة وجوبه مفصلة فى كتب كثيرة منها: كتابنا فقه الدعوة إلى الله المشار إليه آنفا.

جـ - وأن على الدعاة أن يبصروا المدعوين بأن من قصّر فى حمل الأمانة ثم تاب وأناب، فإن الله تعالى يغفر له ويصفح عنه فهو الذى يقبل التوبة عن عباده وهو التواب الرحيم.

● أقول ذلك حتى لا يتسرب اليأس إلى نفس مقصر أو متجاوز، إذ من وظائف الدعاة بعث الأمل فى النفوس وتجديد الثقة فى عفو الله ومغفرته، وذلك يتطلب تجديد التوبة وفق شروطها الشرعية.

● والرسول ﷺ وهو القدوة، روى له البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا».

د - وعلى الدعاة إلى الله أن يؤكدوا للناس أن الله تبارك وتعالى غفور رحيم، وأن صفتى المغفرة والرحمة من صفاته الذاتية، وأن رحمته وسعت كل شئ، كما قال سبحانه:

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

الخاتمة

نقول: ونحن نختم هذه الحلقة الخامسة من سلسلة: «التربية فى القرآن الكريم» وهو: التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب: الحمد لله الذى بفضله تتم الصالحات والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

وندعو الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذا الكتاب كل من يريد أن يربى نفسه أو غيره تربية إسلامية نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وسبحانك اللهم وبحمدك

نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

القاهرة فى المحرم من سنة ١٤١٧ هـ

الموافق ليونيو من سنة ١٩٩٦م

ثبت موضوعات الكتاب

قائمة بأعمال المؤلف المطبوعة

أولا :

فى الفكر الإسلامى «وقضاياه»

١ – مع العقيدة والحركة والمنهج

نشر دار الوفاء بمصر

٢ – الغزو الصليبى والعالم الإسلامى

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٣ – المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى

دار المنار بالقاهرة

٤ – الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى

دار المنار بالقاهرة

٥ – التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى وطرق التغلب عليه

دار الوفاء بمصر

٦ – التعريف بسنة الرسول ﷺ أو علم الحديث دراية

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٧ – نحو منهج بحوث إسلامى

دار الوفاء بمصر

٨ – السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

دار عكاظ بالسعودية

ثانيا :

فى التربية الإسلامية :

٩ – تربية الناشئ المسلم

دار الوفاء بمصر

١٠ – فقه الأخوة فى الإسلام

دار التوزيع والنشرالإسلامية

١١ – منهج التربية عند الإخوان المسلمين

دار الوفاء بمصر

١٢ – وسائل التربية عند الإخوان المسلمين

دار الوفاء بمصر

ثالثا :

سلسلة التربية فى القرآن الكريم

١٣ – التربية الإسلامية فى سورة المائدة

دار التوزيع والنشر الإسلامية

١٤ – التربية الإسلامية فى سورة النور

دار التوزيع والنشر الإسلامية

١٥ – التربيةالإسلامية فى سورة آل عمران

دار التوزيع والنشر الإسلامية

١٦ – التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب

دار التوزيع والنشر الإسلامية

١٧ – التربية الإسلامية فى سورة الأنفال

دار التوزيع والنشر الإسلامية

رابعا :

سلسلة مفردات التربية الإسلامية

١٨ – التربية الروحية

دار التوزيع والنشر الإسلامية

١٩ – التربية الخلقية

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢٠ – التربية العقلية

دار التوزيع والنشر الإسلامية

خامسا :

سلسلة فى فقة الإصلاح والتجديد عن الإمام حسن البنا

٢١ – فهم أصول الإسلام

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢٢ – الإخلاص فى مجال العمل الإسلامى

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢٣ – ركن العمل أو منهج الإصلاح الإسلامى

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢٤ – ركن الجهاد أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢٥ – ركن التضحية أو بذل النفس والمال وكل شئ فى سبيل الله

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢٦ – ركن الطاعة

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢٧ – ركن الثبات

دار التوزيع والنشر الإسلامية

سادسا:

فى فقه الدعوة الإسلامية

٢٨ ـ فقه الدعوة إلى الله

دار الوفاء بمصر

٢٩ ـ فقه الدعوة الفردية

دار الوفاء بمصر

٣٠ ـ المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله

دار الوفاء بمصر

٣١ ـ التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة

دار الوفاء بمصر

٣٢ ـ عالمية الدعوة الإسلامية

دار الوفاء بمصر

٣٣ ـ فقه المسئولية فى الإسلام

دار التوزيع والنشر الإسلامية

سابعا:

فى الأدب الإسلامى

٣٤ ـ مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه

دار عكاظ بالسعودية

٣٥ ـ جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه

دار عكاظ بالسعودية

ثامنا :

في الدراسات الأدبية

٣٦ – القصة العربية فى العصر الجاهلى

دار المعارف بمصر

٣٧ – النصوص الأدبية تحليلها ونقدها

دار عكاظ بالسعودية

تاسعًا :

كتب معدة للنشر

١ – التربية الإسلامية فى سورة النساء

٢ – باقى سلسلة مفردات التربية الإسلامية وهى : التربية البدنية، والدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والجهادية، والجمالية.

٣ – باقى سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عن الإمام حسن البنا ركن التجرد، وركن الأخوة، وركن الثقة.

٤ – التربية الإسلامية فى المدرسة.

٥ – التربية الإسلامية فى المجتمع.

رقم الإيداع

٩٦/١٣١٠٠

الترقيم الدولى

977 - 265 - 149 - 1